

# الإنقاذ الأبدي في القرن الثامن الهجري

بين الصفدي ومعا صريه

تأليف  
محمد علي سياطاني

منشورات دار الحكمة  
ط. ٧٨٧ ص. ١٠٠

١١٩  
٧٥٥



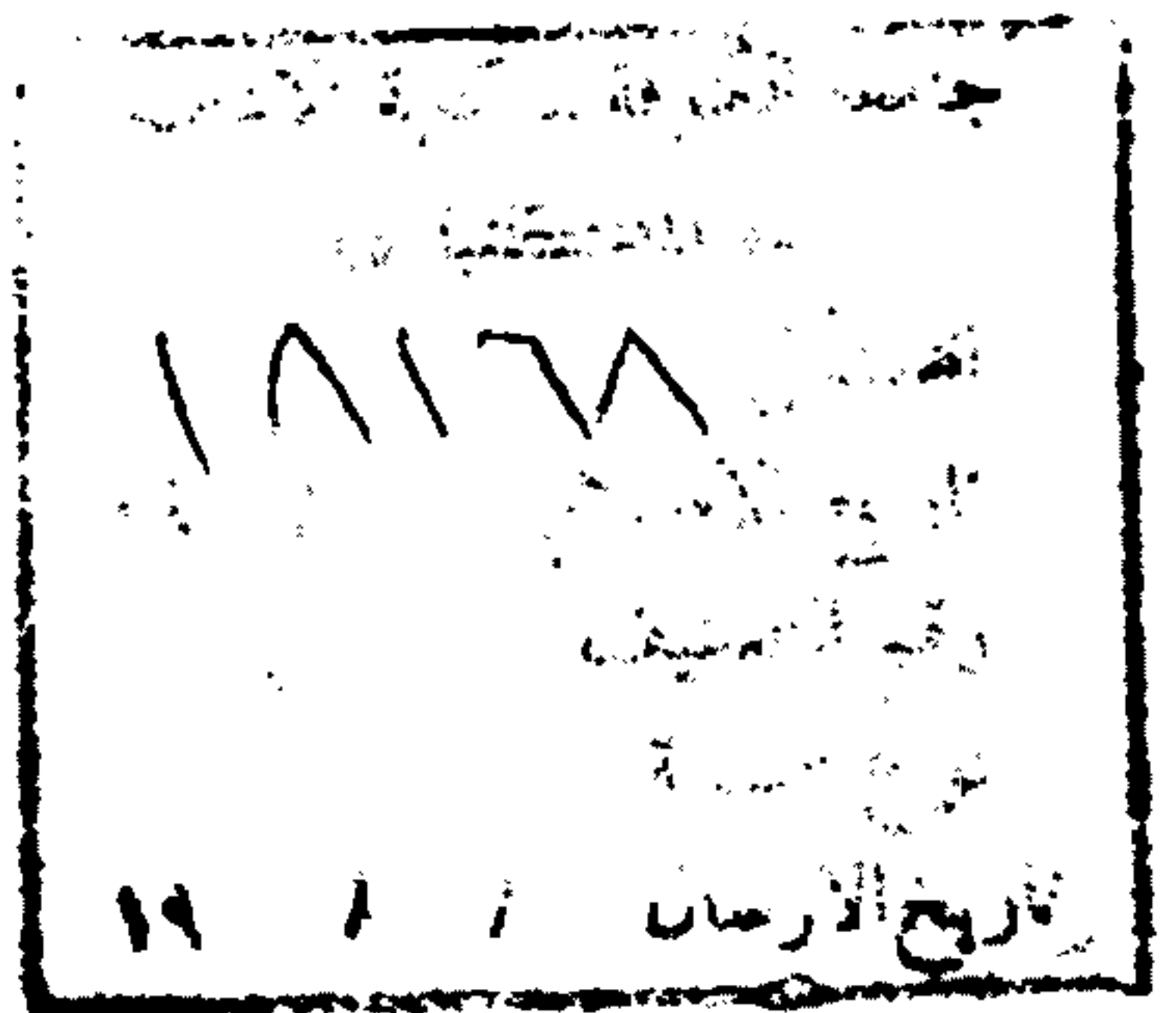


# النقد الأصيل

## في القرون الثامن والعشرون

بين الصفيدي ومعاصريه

تأليف  
محمد علي بياطاني



مكتبورات دار الحكمة  
ط. دمشق ص. ٧٨٧

مطبعة الحجاز بدمشق  
١٢٩٤هـ - ١٩٧٤م

حقوق إعادة الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

صم الغلاف أحمد راتب سلطاني

إِهْدَائِي

إِلَى وَلَدِي سَامِ

الطَّرِيقَ إِلَى الْفَلَاحِ . إِرَادَةً .. وَدَأْبًا ... وَإِخْلَاصًا



# لغة العرب

## كوة على الكتاب

لقد حظي النقد العربي والتاريخ له باهتمام العديد من الأقلام المعاصرة ، بدأت معه منذ أن كان فطرياً وليداً يعتمد الذوق البسيط والانطباع الجزئي في العصر الجاهلي ، وسارت معه في تطوره وصعوده إلى أن بلغ أوج نشاطه عند الأموي المتوفى سنة ٥٣٧١ هـ ، وسعة ثرائه لدى القاضي الجرجاني المتوفى سنة ٥٣٩٢ هـ ، ثم ظفره بنفحة جديدة بين يدي عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٥٤٧١ هـ ، إلى أن تحول إلى بلاغة حددتها عقول مفكرة ، صاغها المنطق ، وغذتها الفلسفة بلبانها ، فحولت النقد إلى جملة من القواعد والقوالب ، لم يزد لها الزمن إلا تفرعاً وجفافاً ، تواري معها الذوق ، وتعثر القول ، وتحنط التعبير .

إلى هنا ويشعر مؤرخو النقد العربي أن مهمتهم قد انتهت ، دون أن يفوتهم الإشارة إلى صحوة الموت في « المثل السائر » لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ، قبل أن يثب بهم القلم إلى الملخصات البلاغية العقيمة ، وشروحها المبسوطة ، وحواشيها المتزاحمة .

ولم أتوقف حيث توقفتوا ، كما لم أجتاوز القرون معهم إلى الملخصات والشروح ؛

بل توغلت في هذا الضباب بعد ابن الأثير قرناً آخر حتى بلغت بلاد الشام في عهد المماليك ، وإذا بغابة عذراء فيها الكثير من المفاجآت ؛ تتوسطها واحة لا تخلو من الظلال المثيرة حقاً ، إنه الأديب صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤هـ .

عرفه الكثيرون في آثاره الكبيرة بأسلوبها المرسل « كالوافي بالوفيات » وعرفته — من خلال كتبه الأخرى « كالغيث المسجم » و « نصره الثائر على المثل السائر » وغيرهما — ناقداً فذاً رفيع لواء الذوق عالياً ، مستمداً من ذوق متطلع غني بالتجارب الفنية مع الرسم والشعر ، متميزاً بنظراته الطريفة ؛ الصائبة ؛ حين جاء بالجديد المحكم فيما يتعلق بالتخيل وإبداع المعاني ، ثم في أسلوبه التطبيقي الواسع في ممارسة النقد ؛ إذ راح يخوض في بحر زاخر من نصوص الأدب ومختاراته في مختلف عصوره بما ضمه حفظه ، محللاً مقارناً ، يسبقه إلى ذلك ذوقه وسعة اطلاعه ودقة اختياره ، بعيداً كل البعد عن القواعد الجافة والأصول المفروضة المسبقة ؛ بما وُسم به النقد في تلك القرون المتطاولة . كما كانت له جولات بعيدة من الخصومات النقدية مع أعلام الأدب في عصره وما قبله ، مما تجده مبسوطاً فيما يطالعك من فصول هذا الكتاب .

كل ذلك مما ألحت إليه وغيره . . . قدم لي جزئيات غنية وافرة تتضمن وتتعاون لتقدم لنا في النهاية صورة وافية جلية للنقد الأدبي في القرن الثامن الهجري .

★ ★ ★

وقبل أن أدعوك للجلوس مع هذا الكتاب على مائدة الصفدي الجديدة ؛ أتقدم بلمحات سريعة مقتضبة تكون لها أسلفت عنواناً ، ولما سيأتي من الفصول إشارة ودليلاً .

وأبرز ما يجذبنا للإشارة إليه في هذا العصر هو الصنعة . فبينما تنهل الصنعة

أديب هذه الفترة ليجري في إثرها يتطلبها بكل سبيل ؛ يطلع عليهم الصفدي لا ليتخلى عن الصنعة التي يشاركونها تذوقها ؛ بل ليبين لهم أن لهذه الصنعة مجالها وموطنها ، مفرقاً في ذلك بين ما يكتب للتفقه والمتعة ؛ وبين ما هو تعبير عن المشاعر والوجدان :

« فمثل هذه الأشياء من اللغز والأحجية والأغاليط ، والإتيان بالكلمة المعجمة وبعدها المهمة ، وبالحرَف المعجم وبعده المهمل ، أو صدر بيت كذا وعجزه كذا.. كل ذلك لا تقى بالمقامات . أما في الترسل والخطب فإنه يكره ويستنقل ، لأن الترسل ليس المراد منه التفقه في الأدب ؛ وإنما هو لهناء أو عزاء أو شكر أو مدح أو وصف أو استعطاف أو عتب أو شوق أو غير ذلك . ومثل هذه الأشياء لا يليق بها التكلف » (١) .

« ألا ترى أن العباد الكاتب - رحمه الله تعالى - لما جعل كلامه مشحوناً بالجناس ، لا تكاد كلمة تخلو من ذلك ثقل على الأسماع والقلوب » (٢) .

ويلتفت بعد هذا ناحية الشعر ليقم المبدأ نفسه ، وينأى بشعر الوجدان عن تيار الصنعة الجارف ، ليحصرها في حدود « المقاطيع » الموضوعه مضمراً لأفانين الصنعة والقدرة على إيرادها ، فيقول في معرض حديثه عن الشاعر الطغرائي : « وله مقاطيع شعر في الصنعة ، وله ديوان شعر على عادة الشعراء » (٣) .

ثم يضيف - بعد أن أورد لابن الفارض من قصيدته نظم السلوك - قوله : « وهذه الأشياء لا يخفى على ذي الذوق السليم ما فيها من الاستتقال ، ولم أقل هذا الكلام

(٢) المصدر السابق ٣٧٠

(١) نصره الناشر ٣٦٩

(٣) الفهست المسجوم ٨/١



جهلاً بمقدار الشيخ شرف الدين بن الفارض - رحمه الله - وأنه لم يكن من  
الفصحاء . ألا ترى قصائده التي أخلاها من الجناس مثل الميميتين والجيمة واللامية  
والمهموزة وغيرها فما أرقها وأحلاها ، (١) .

★ ★ ★

كما أمّ الصفديّ ما شاع من تداول شعراء عصره للتراكيب والصور القديمة ،  
يستمدونها بيسر من التركة الأدبية الجليلة التي تناهت إليهم ، حتى فقدوا كل شعور  
بالحاجة إلى الابتكار به القدرة عليه . فبدأ ذلك بقوله : « واعلم أن للشعراء  
ألفاظاً صارت بينهم حقائق عرفية وإن كانت في الأصل مجازات ، لكثرة دورانها في  
كلامهم وتعاطيهم استعمالها ، لأنهم ألفوا ذلك من تداولها وتكرارها على مسامعهم .  
من ذلك الغصن إذا أطلقوه فهم منه القوام ، والكثيب إذا أطلقوه فهم منه  
الردف . . (٢) »

هذه الملاحظة وأشباهاها ساقته للتفكير في المعاني والبحث في مصادرها وأسرارها ،  
فكان من أبرز ما جاء به نظراته في التخيل وإبداع الصور الشعرية ، ودور الحواس  
والتخيلة والنفس في عملية الإبداع هذه ، متنبهاً إلى عمل الذاكرة الفعال في أثناء  
النوم وليس في اليقظة فحسب ، ما يعرف بالاشعور في مفهوم عصرنا . ولم يهدأ في  
في هذا حتى وصل إلى قرار تسكن إليه نفسه ، بما ترى تفصيله في ألفاف  
هذه الدراسة .

كما يلتفت إلى ماتسميه الرمزية بالمبادلات بين الحواس ، منطلقاً من تأمله في صور  
الأضراء من الشعراء ، كبشار بن برد ، وأبي العيناء ، وابن سيده ، وأبي العلاء المعري

(٢) المصدر السابق ٢٦٦/١

(١) الغيث المسجم ٣٧/٢



من أتى بغرائب الصور مع إظلام نافذة البصر لديهم ، ليصل إلى أن المشاهدة ليست هي السبيل الوحيد لاستمداد عناصر التصوير بقوله : « إن استنباط المعاني لا يفتقر فيه إلى المشاهدة ، وقد جاء في الوجود جماعة من العميان الذين لم يشاهدوا الصور في الخارج ؛ وأتوا بالتشبيهات البديعة »<sup>(١)</sup>. مستهدداً لذلك بالشعر المختار المعبر عن مراده . كقول بشار بن برد :

وحدِيثِ كَأَنَّهُ قَطَعُ الرَّوِّ ضِ وَفِيهِ الصَّفْرَاءُ وَالْبَيْضَاءُ

ويجول بنا في ناحية أخرى في حديقة التصوير هذه حين يورد للمعري في ذم الشبية قوله :

وَأذْكَرِي لِي فَضْلَ الشَّبَابِ وَمَا يَجِدُ مَعَهُ مِنْ مَنَظَرِ يَرُوقُ وَطِيبِ  
غَدْرُهُ بِالْحَلِيلِ أُمُّ حُبُّهُ لِلدَّغِيٍّ أُمُّ أَنَّهُ كَدَّهْرِ الْأَدِيبِ

ليعقب على ذلك بقوله : « وهذا هو تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو أعلى مراتب التشبيه طبقة ، لأنه ينشأ عن لطف ذوق ، وسلامة فطرة ، وصحة تخيل . فهو صعب على من يرومه ، متقاعس عن جذب زمامه ؛ لأن العلوم العقلية تستفاد من الحواس في المقادير والألوان والطعوم والرائحة وطيب النغم ونعومة الملمس وخشونته . . . ولهذا قالوا : من فقد حاسة فقد علماً<sup>(٢)</sup> »

وهكذا أدرك الصفدي أن النفس كل متكامل ، لا يستقل جانب منها بالإبداع وحده ، وإيست الحواس إلا منافذ النور التي تطل منها على المشاهدات والأصوات والمحسوسات . . فتتلاقى كلها في بوتقة النفس التي تصهرها بجمرة انفعالها ،

(١) نصره الشاعر ١٨٧

(٢) الفيث المسجم ١/٢١٠ - ٢١١



لتعكس هذا الانفعال بعد ذلك صوراً رائعة تقرّب ما يبدو متباعداً ، وتعبّر عن المشاعر النفسية بصور حسية ؛ تحمل تلك المشاعر وتعمق الإحساس بها .

ثم أورد الصفدي لهذا النوع من التشبيه الرفيع من شعر الشعراء ما يؤكد نضج هذه اللحظة لديه وأصالتها عنده . من ذلك قول الشاعر :

كَأَنَّ انْتِضَاءَ الْبَدْرِ تَحْتَ غَمَامِهِ نَجَاةٌ مِنَ الْبُأْسَاءِ بَعْدَ وَقُوعِ-

وقول ابن الهبارية :

كَمْ لَيْلَةٍ بَيْتٌ مَطْوِيًّا عَلَى حُرْقٍ أَشْكُوا إِلَى النَّجْمِ حَتَّى كَادَ يَشْكُونِي  
وَالصُّبْحُ قَدْ مَطَّلَ الشَّرْقُ الْمُرُورَ بِهِ كَأَنَّهُ حَاجَةٌ فِي نَفْسِ مِسْكِينِ-

وقول أبي طالب الرقي :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالظَّلَامُ كَأَنَّهُ يَوْمُ النَّوَى وَفُؤَادٌ مَنْ لَمْ يَعِشْ-

★ ★ ★

هذا غصن من غاب ، وزهرة من روض ؛ مما كشفت عنه من نقد هذا القرن ، وضمته فصول هذا الكتاب ، تلك الفصول التي هدقت منها رسم صورة وافية للنقد الأدبي في القرن الثامن الهجري ، زاداها غنى وجلاء ما كان من اهتمامي بإبراز شخصية الصفدي الناقد ، بوصفه واحداً من ألمع أدباء ذلك القرن ، وبما حفلت به حياته كذلك من خصومات نقدية مشرقة ، أسفرت عن العديد من النظرات في شؤون الأدب وتقده .

رجوت من ذلك كله أن أعكس حال النقد في عصر سادته بين الدارسين الكثير من التعميم والغموض ، لا يصح معه الاكتفاء بما تحمله الالفة المستريحة و عصور الانحطاط ، بما تثار حولها من أحكام صريعة متداولة ، تفتقر إلى الدقة والجلاء فحلت أنوار جولة موهلة متمسة ،



وإن كان في هذه الدراسة من جديد ، فإنني لأظنها من أوائل الأبحاث الشاملة المتأنية ، التي طافت في مجاهل العصور المتأخرة ، وغاباتها العذراء الوعرة . ذاكراً لأستاذي الكبير الدكتور شكري فيصل فضله العميم ، في فتح هذه الآفاق أمامي وإنارتها بالعديد من سديد آرائه وتوجيهاته .

كما أتوجه بالشكر الوفي إلى الأستاذ الناقد الدكتور عبد القادر القط ؛ والأستاذ العالم المحقق الدكتور رمضان عبد التواب ؛ والأستاذ الفاضل رشاد عبد المطلب ؛ والأخ الدكتور محيي الدين رمضان ، بما أبدوه وقدموه من نظراتهم وملاحظاتهم ، أو مכתباتهم الخاصة لإخراج هذا العمل .

فإن أحسنت فتلك بغيتي ، وإن قصرت دون الغاية فشفيعي أنني لم آل إلى الأحسن جهداً .

والله من وراء القصد هو حسبي ونعم الوكيل .

١٨ شعبان ١٣٩٣ هـ  
دمشق في ١٥ - ٩ - ١٩٧٣ م

محمد علي سلطاني







# فهرس الموضوعات

## الباب الأول

### البيئة الحضارية

- تقديم ١٩ - ٢٠
- الفصل الأول : الحياة العامة في مصر والشام في عهد المماليك البحريةية :
- الحالة الادارية ٢١ - ٤١
- الحياة الاجتماعية ٤٢ - ٦٠
- الحياة الثقافية ٦١ - ٧٣
- الفصل الثاني : حياة الصلاح الصفدي وآثاره ٧٤ - ٩١
- الفصل الثالث : الخصومة حول « التل السائر »
- بين ابن أبي الحديد وابن الأثير ٩٢ - ٩٧
- بين الصفدي وابن الأثير ٩٨ - ١٠١

## الباب الثاني

### الناقد الصفدي

- تقديم ١٠٥ - ١٠٧
- الفصل الأول : الصفدي الناقد بين معاصريه ١٠٨ - ١١٠



<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
	- الفصل الثاني : الصفدي الناقد من خلال كتبه
١٢٠ - ١١١	- موهبته
١٣٣ - ١٢١	- ذوقه
١٤٢ - ١٣٤	- غزاة محفوظه
١٤٤ - ١٤٣	- تواضعه
١٤٦ - ١٤٥	- تجرده الفني
١٦٠ - ١٤٧	- منهجه في النقد
	- الفصل الثالث : لمع من آرائه :
١٦٧ - ١٦١	- اللفظة المفردة
١٧٠ - ١٦٨	- التركيب
١٧٣ - ١٧١	- الموهبة
١٧٧ - ١٧٣	- ثقافة الأديب
١٨١ - ١٧٨	- في النحو
١٨٥ - ١٨٢	- التقييد للأدب
١٩٥ - ١٨٦	- الصنعة
٢٠٤ - ١٩٦	- التخيل وإبداع المعاني
٢٢٦ - ٢٠٤	- في الشعر
	- الفصل الرابع : مقاييس النقد عنده :
٢٢٩ - ١٢٧	- الأساس التأثري
٢٣١ - ٢٣٠	- » الديني
٢٣٣ - ٢٣١	- » الاجتماعي
٢٣٥ - ٢٣٤	- » الثقافي
٢٣٨ - ٢٣٥	- » الفني

## الباب الثالث

### الحياة الأدبية والنقدية في القرن الثامن

#### - الفصل الأول : صورة العصر الأدبية :

- ٢٤٤ - ٢٤١ - مفهوم الأدب
- ٢٥٢ - ٢٤٥ - المثل الأدبية العليا
- ٢٥٨ - ٢٥٣ - ثقافة العصر وأثرها في الإنتاج الأدبي
- ٢٦٣ - ٢٥٩ - تأثير ديوان الإنشاء
- ٢٦٩ - ٢٦٤ - العملية الشعرية
- ٢٧٨ - ٢٧٠ - مفهوم النقد وروحه السائدة
- ٢٨٤ - ٢٧٩ - بين الكاتب والشاعر وأسباب التخلف

#### - الفصل الثاني : موضوعاته الكبرى

- ٢٩٣ - ٢٨٥ - السرقة الأدبية
- ٢٩٧ - ٢٩٤ - المعارضات
- ٣٠٨ - ٢٩٨ - حل المنظوم

#### - الفصل الثالث : منافذ التجديد

- ٣٣٣ - ٣٠٩ - خاتمة
- ٣٣٥ - ٣٣٤





الباب الاول  
البيئة الحضارية





## الفصل الأول

الحياة العامة في مصر والشام في عهد المماليك البحرية

من سنة ٦٥٦ هـ الى ٧٨٤ هـ

### تقديم

لم أر بدأ قبل البحث في حياة الصفدي ونقده ؛ من سعي لكشف جوانب الحياة العامة التي أحاطت به ، وتنفس في جوها ، فكان لها التأثير بقدر ما في تكوينه وتكوين إنتاجه ، مما ينير لنا الميدان الذي كان يضطرب فيه بين مصر والشام ، في دولة المماليك البحرية ، ويفسر العديد من الظواهر والنظرات في أدبه ومقاييسه ، إذ لم يكن الصفدي بعيداً بشخصه عن تيارات الحياة العامة تلك وهو يتولى المناصب الحساسة في كبرى عواصم الدولة آنذاك .

ولكي يكون الحديث مر كترأ بين الخطوط واضح القسما ت أعمد الى تحديد منطلقه بدءاً من سقوط بغداد حيث ولدت دولة المماليك ، خاصة وأن سقوط بغداد يشكل مفترقاً رئيسياً ، اتخذت بعده السبل طرقها الجديدة للتكيف مع الوضع الجديد ، الذي فرض نفسه على المنطقة باستيلاء التتار ذوي البأس والأطماع الواسعة على بغداد والمشرق كله ، ومدوا بأبصارهم النهم شطراً بلاد الشام ومصر . هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية الاجتماعية فان الصدمة الكبرى التي



هزت العالم الاسلامي بسقوط منارته الأولى بغداد ؛ قد أثر على مشاعر الناس ، وزاد من تعاطفهم وحندهم ، وغير شيئاً من علاقاتهم . كما أن هذا الحدث الكبير ترك من الناحية العلمية والثقافية آثاراً واضحة ، من إتلافه لكنوز اللغة والعلم في بغداد ، وقتله للعلماء ، وفرار من نجامين هؤلاء العلماء الى مصر وبلاد الشام ، مما سيترك أثراً في حياة هذين البلدين العلمية والتأليفية .

لهذه العوامل جميعها ، رأينا أن نجعل عام ٦٥٦ هـ بدءاً للحديث في هذه المقدمة العامة بين يدي البحث الأدبي .

## الحالة الوردية :

بدأت هذه المرحلة مع مقتل المملوك عز الدين أيبك ، على يد شجرة الدر ،  
وتسلم ولده الصغير نور الدين علي مقاليد الحكم بوصاية المملوك قطز .  
وردّد الناس في مصر ، أخبار الكتب التي أرسلها هولاءكو الى الناصر  
الأيوبي صاحب دمشق ، جاء في أولها ما صورته :

« يتعلم السلطان ملك الناصر طال بقاؤه ، أنه لما توجهنا الى العراق ، وخرج  
الينا جنودهم ، فقتلناهم بسيف الله ، ثم خرج الينا رؤساء البلد ومقدموها ، فكان  
قصارى كلامهم ؛ سبياً لهلاك نفوس تستحق الهلاك ، وأما ما كان من صاحب  
البلدة ؛ فانه خرج الى خدمتنا ودخل تحت عبوديتنا ، فسألناه عن أشياء كذبنا فيها  
فاستحق الاعدام ، فكان كذبه ظاهراً ووجدوا ماعملوا حاضراً . أجب ملك البسيطة  
ولا تقولن قلاعي المانعات ورجالي المقاتلات ، وقد بلغنا أن شذرة من العسكر  
التجأت اليك هاربة ، والى جنابك لائذة .

أَيْنَ الْمَفْرُ وَلَا مَفْرًا لِهَارِبٍ      وَلَنَا الْبَسِيطَانِ الثَّرَى وَالْمَاءُ

فساعة وقوفك على كتابنا نجعل قلاع الشام سماءها أرضاً وطولها عرضاً والسلام»  
فتجاهل الناصر هذا الكتاب ، ولم يُجِب عنه كما لم يستجب لما جاء فيه . فورد  
اليه من هولاءكو كتابه الثاني تلفته لهجة الارهاب والتهديد بقول فيه :

« خدمة ملك ناصر طال عمره ، أما بعد ، فانا فتحنا بغداد ، واستأصلنا  
ملكها ومليكها ، وكان قد ظن - وقد فتن بالأموال ولم ينافس بالرجال - أن



ملكه يبقى على ذلك الحال ، وقد علا ذكره ونما قدره ، فخُسف في الكمال بده .

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَأَ نَقْصُهُ تَوَقَّعُ زَوَالِهَا إِذَا قِيلَ تَمَّ

ونحن في طلب الازدياد على مرّ الآباد ، فلا تكن كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وأبند ما في نفسك إما إمساكٌ بمعروف أو تسريح بإحسان ، أجيب دعوة ملك البسيطة ؛ تأمن شره وتنال بيره ، واسع اليه باموالك ورجالك ، ولا تعوق رسلنا والسلام .

فصبر الناصر على هذا الكتاب . فأرسل هو لاكو كتاباً ثالثاً أرغى فيه وأزبد

واشد وتوعد فقال :

« أما بعد فنحن جنود الله ، بنا ينتقم من عتا وتجير ، وطغى وتكبر وبأمر الله ما اتّمر . إن عوتب تَمَر ، وإن روجع استمر ، ونحن قد أهلكنا البلاد وأبَدنا العباد وقتلنا النسوان والأولاد ، فيا أيها الباقون انتم بمن مضى لاحقون ، ويا أيها الغافلون انتم الينا تساقون ، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة ؛ مقصودنا الانتقام ، ومُلكنا لا يُرام ، ونزيلنا لا يُضام . وعَدْلنا في مُلكنا اشهر ، ومن سيوفنا أين المفر .

أَيْنَ الْمَفْرُ وَلَا مَفْرًا لِهَارِبٍ وَلَنَا الْبَسِيطَانِ الثَّرَى وَالْمَاءُ

ذَلَّتْ لِهَيْبَتِنَا الْأَسْوَدُ وَأَصْبَحَتْ فِي قَبْضَتِي الْأَمْرَاءُ وَالْخُلَفَاءُ

نحن اليك صائرون ، ولكم الهرب وعلينا الطلب .

« دَمَرْنَا الْبِلَادَ ، وَأَبْتَمْنَا الْأَوْلَادَ ، وَأَهْلَكْنَا الْعِبَادَ ، وَأَذَقْنَا الْعَذَابَ ، وَجَعَلْنَا عَظِيمَهُمْ صَغِيرًا ، وَأَمِيرَهُمْ أَسِيرًا . تَحْسَبُونَ أَنْكُمْ مَنَا نَاجُونَ أَوْ مَتَخَلِّصُونَ ، وَعَنْ قَلِيلٍ سَوْفَ تَعْلَمُونَ عَلَى مَا تُقَدِّمُونَ ، وَقَدْ أَعْنَدُ مَنْ أَنْدُ »<sup>(١)</sup> .

وهنا شعر الناصر بالخطر ولم يقو على الصبر ، فسارع بإرسال صاحب كمال

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣١٤ - ٣١٥ .

الدين العديم الى مصر ، يطلب النجدة على التتار ، فجمع قطز الامراء والاعيان للتشاور ، وبعد ايام يسيرة خلع السلطان الصغير وقال : هذا صبي والوقت صعب ، ولا بد من أن يقوم رجل شجاع ينتصب للجهاد . وتسلطن قطز ولقب بالملك المظفر .

وفي هذه الأثناء ؛ جاءت الاخبار بزحف هولاءكو نحو الشام ، ففي سنة ٦٥٧ استولى على الجزيرة الفراتية ، وفي سنة ٦٥٨ دخل حلب وقتل فيها ما يزيد على قتلى بغداد ، ووصل إليه في حلب الملك الأشرف الأيوبي صاحب حصص ، فأكرمه هولاءكو وأعادته الى حصص ، ثم أرسل صاحب حصص حماة مفاتيحها الى هولاءكو في حلب ، فاستناب عليها رجلاً من العجم . وأمر صاحب حصص بهدم اسوار قلعة حماة ، فخرّبت وأحترقت زرد خانها<sup>(١)</sup> . وأما دمشق فان نائب هولاءكو قدم الى اهلها بالفرمان<sup>(٢)</sup> والامان ، فتلقاه كبراء المدينة ، وأنفذت مفاتيح دمشق الى هولاءكو<sup>(٣)</sup> . ووصل هولاءكو الى غزة بعد أن قتل الناصر صاحب دمشق وفر بقايا الأيوبيين الى مصر .

وبعد ان تم لهولاءكو كل هذا ؛ بعث الى المظفر قطز كتاباً جاء فيه : « يعلم الملك المظفر قطز ، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا ؛ أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، فاتعظوا بغيركم وأسلموا الينا أمركم »<sup>(٤)</sup> .

غضب قطز ، وقتل رسول هولاءكو ، وردّ عليه بكتاب يتوعده ، وعاهده المماليك على الاستماتة في سبيل البلاد وسار المظفر اليهم فكان اجتماعهم على عين جالوت

---

(١) مستودع الاسلحة .

(٢) مراسم السلطان .

(٣) النجوم الزاهرة حوادث سنة ٦٥٨ .

(٤) السلوك للمقريزي القسم الثاني من الجزء الاول ص ٤٢٧ وما بعدها .

يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٥٦٥٨ هـ ، فاقتلوا قتالاً عظيماً ، وكان مع التتار بعض  
الامراء الايوبيين ، فهزمهم المسلمون هزيمة كبرى ، وقتل أمير المغول كتبخانوين ،  
وأسر بمن معه الملك السعيد الايوبي ، فأمر المظفر بضرب عنقه ، واستأمن  
الأشرف الأيوبي صاحب حمص وكان مع التتار وقد جعله هولاء نائباً على الشام  
كله ، فأمنه وردّه اليه حمص ، وارسل المظفر الامير بيبرس لملاحقة التتار في كل  
مكان ، الى أن وصلوا خلفهم الى حلب ، وهرب من كان منهم بدمشق ، وتبعهم  
العرب يقتلون فيهم ويخلفون الأسرى منهم .

وقد أظهر بيبرس شجاعة ومقدرة ، جعل السلطان يتنازل له عن حلب ،  
ثم لم يف بوعده ، فأضمر بيبرس الشر ، ثم اتفق مع بعض الأمراء على قتله ،  
فقتلوه في الطريق ، ولم يحكم سوى سنة وتولى بيبرس مكانه . من ٦٥٨ الى ٦٧٦ هـ ،  
ولقبوه بالظاهر ، وكان حازماً بطلاً فعم الخير ، فانتشرت الطمأنينة بحكمه .

خاف التتار من هذا ، فأثاروا سنجر صاحب الشام ضده ، فنادى بنفسه  
سلطاناً وتلقب بالملك المجاهد ، فسار بيبرس نحوه ، فتلقاه التتار فهزمهم وسار نحو  
دمشق ، ففتحت له أبوابها ، فقضى على سنجر واعوانه فهدأت البلاد وعكف  
بيبرس على الاصلاح وتشييد المدارس التي ما تزال آثارها باقية .

وأقدم بيبرس على إحياء الخلافة العباسية ، بعد أن بقي المسلمون ثلاث  
سنوات بدون خليفة ، وذلك تدعيماً لمصر ، ورفعاً لشأنها ، يجعل القاهرة مقراً  
الخلافة الاسلامية ، فقد علم بوجود واحد من بني العباس قد نجا من مجزرة هولاء  
ببغداد ، وهو الامام احمد بن الظاهر عم المستعصم آخر الخلفاء ، فاستدعاه الى  
مصر وتلقاه بنفسه ، ثم عقد مجلساً شرعياً ثبت فيه نسب الامام ، وبويع  
بالخلافة سنة ٦٦٠<sup>(١)</sup> ولقب بالمستنصر بالله .

---

(١) في عصر الانحدار سنة ٦٥٩ والأرجح عندي سنة ٦٦٠ فابن كثير يذكر بيعه  
الحاكم بأمر الله سنة ٦٦١ وخلافة المستنصر دامت خمسة أشهر فقط .



ثم أراد الملك الظاهر أن يسترجع بغداد للخلفاء العباسيين من يد التتار؛ فأعد جيشاً وسار مع الخليفة المستنصر بالله، فلما وصلوا دمشق؛ عاد بيبرس إلى مصر، وتقدم المستنصر بالله قاصداً بغداد، وقبل أن يصلها لقيه التتار فقاتلوه وقتلوه واكثر جيشه، ولم تدم خلافته أكثر من خمسة أشهر، فتولى بعده ابنه وتلقب الحاكم بأمر الله سنة ٦٦١ هـ.

وحاول الصليبيون الاستفادة من الظروف للاغارة على دمشق « فهزمهم بيبرس وفتح كثيراً من المدن والقرى، وفي سنة ٦٦٣ أغار على عكا فرأى أنها لا تنال فتوجه إلى قيسارية ففتحها، واشترك هو في هدم أسوارها، ثم وجه جيشه إلى بلاد أرمينية وهدم عاصمتها سيس وفي سنة ٦٦٤ فتح صفد، وبعد سنتين فتح يافا وهدم قلعتها، ثم طرابلس، ثم فتح انطاكية وقتك بالصليبيين وملوكهم، واتجه إلى حصون الصليبيين على الساحل السوري ففتحها واحداً واحداً، وفي سنة ٦٧٠ سار لمحاربة الباطنيين في شمال سوريا والعراق فقتل عليهم، وعاد إلى القاهرة.

« ثم توجه إلى أرمينية وفتحها من جديد، وقيل في خوضه الفرات مع جيشه الشعر الكثير<sup>(١)</sup> ».

وفي سنة ٦٧٣ « اطلع السلطان على ثلاثة عشر أميراً كاتبوا التتار يدعونهم إلى بلاد المسلمين فأخذوا وأقرموا بذلك وكان آخر العهد بهم<sup>(٢)</sup> ».

« وفي سنة ٦٧٥ علم بقدم التتار من آسيا الصغرى، فنهد إليهم والتقى بجمعهم قرب حلب وكان له النصر، ثم عاد القاهرة فوجد بها خمسة وعشرين رسولاً من جهة ملوك الأرض ينتظرونه فتلقتوه وحدثوه وقبئوا الأرض بين يديه ودخل القلعة في أبهة عظيمة<sup>(٣)</sup> ».

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٦٣

(٢) البداية والنهاية ١٣ / ٢٦٨

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٢٦٩

ثم جهّز أسطولاً لغزو قبرص فحطته الرياح ، وأسر الفرنج من كان فيه ، فلم يثن ذلك همة بيبرس بل أمر بإنشاء أسطول آخر للأخذ بالنار ولكنه مات قبل أن يتم ما عزم عليه ، ففي سنة ٦٧٦ سار الى انطاكية متفقداً ، فمرض وتوفي في طريقه الى دمشق ، ودفن فيها تحت قبة المدرسة الظاهرية .

بايع الامراء بعده ابنته الأمير محمد بركة خان وتلقب الملك السعيد وهو في التاسعة عشرة ، وكان فيه نزق الشباب ولهوه ، فأبعد أمراء أبيه وقرّب الشباب الصغار فخلعوه سنة ٦٧٨ ونفي الى الكرك ثم مات .

ولى الأمراء بعده اخاه بدر الدين سلامش وهو في السابعة ، وأقاموا سيف الدين قلاوون أتاكاً<sup>(١)</sup> له ، ولم يلبث قلاوون أن خلع بدر الدين ، وأعلن نفسه سلطاناً ، وتلقب بالملك المنصور ، فلما علم بذلك سنقر الأشقر الذي كان قلاوون قد عينه نائباً للسلطنة في دمشق ؛ أعلن انفصاله وبايعه امرأوه على السلطنة ولقب بالملك الكامل ، فأرسل المنصور اليه جيشاً فانهمز سنقر ، وهرب الى الرحبة ، وكاتب التتار وأطمعهم في ملك الشام ، فلم يتوانوا عن اهتبال هذه الفرصة . « فيينا كانت البلاد كذلك اذ أقبلت التتار لما سمعوا بتفريق كلمة الأمة . فانجفل الناس من بين أيديهم من سائر البلاد الى الشام ومن الشام الى مصر . فوصلت التتار الى حلب فقتلوا خلقاً كثيراً ونهبوا ... وكتب المنصور الى سنقر الأشقر بأن التتار قد دامونا ، والمصلحة أن نتفق عليهم لئلا يهلك الشعب بيننا وبينهم فكتب اليه سنقر بالسمع والطاعة وبقي مستعداً لقتال التتار ، فما لبثوا أن علموا برجوع التتار من حلب الى بلادهم ، وذلك لما بلغهم من اتفاق كلمة الأمة<sup>(٢)</sup> .

وفي سنة ٦٨٠ سار قلاوون الى الشام لاصلاح احوالها ، فبلغه ان التتار يقصدون الإغارة على الشام ، فلبث حتى وافاه جيش التتار بقيادة منكوتمر بن

---

(١) الأتابك بمعنى الوصي والمرمي . (٢) البداية والنهاية ٢٩١/١٣

هولاشكو ، فالتقى الفريقان في ظاهر حصص ، وحصل قتال عنيف أتصرف فيه المسلمون انتصاراً باهراً وقتلوا اميرهم منكوتمر .

انتهمز الصليبيون هذه الظروف فاغاروا على البلاد ، فزحف اليهم قلاوون وأخضعهم ، وفي سنة ٦٨١ توفى ابا قاخان بن هولاشكو وتولى الملك بعده تكدار ابن هولاشكو فاسلم وتسمى احمد « وأرسل الى السلطان المنصور يطلب منه المصالحة وحقق الدماء فيما بينهم ، فاجاب المنصور الى ذلك وكتب المكاتبات الى ملك التتر بذلك (١) .

وفي سنة ٦٨٨ زحف المنصور الى طرابلس « وكان لها في ايدي الفرنج من سنة ٥٠٣ ففتحها ولم ينج من أهلها الا اليسير ، ثم امر أن تهدم البلد ، وأن تبني على ميل منها بلدة غيرها ، أمكن منها واحسن ففعل ذلك ، وهي هذه البلدة التي يقال لها طرابلس (٢) . ثم عاد المنصور الى مصر واخذ يتجهز لفتح عكا ، ولكن المنية أدركته سنة ٦٨٩ فكانت مدته احدى عشرة سنة ونيّف .

تولى بعده ابنه صلاح الدين خليل وتلقب بالملك الأشرف ، وأراد تميم مقصد أبيه « ونودي في دمشق الغزاة في سبيل الله الى عكا ، فأبرزت المجانيق الى ناحية الجسورة وخرجت العامة والمتطوعة يجرون في العجل حتى الفقهاء والمدرسون والصلحاء ، واجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخاري . فحاصرها وفتحها وقتك بالصليبيين ، وامر بهدمها وتخريبها ، ثم استولى على صيدا ثم بيروت وهدم اسوارها ، ففرح العرب ودقت البشائر في سائر الحصون ، ولم يبق بالسواحل والله الحمد معقل للفرنج ، وراح الله منهم البلاد والعباد (٣) .

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٩٩

(٢) المصدر السابق ١٣ / ٣١٣

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٠



وهكذا كانت حملة الأشرف خليل ثالثة الحملات العنيفة على الصليبيين بعد  
بيرس وصلاح الدين الايوبي .

بيد أن أوربا لم ترض بهذا ، فجهزت الحملة الصليبية السابعة والأخيرة التي  
انتهت الى الهزيمة والتشتت ولجأ بعض الصليبيين الى جبال سورية ، فكانوا شوكة  
في جنب الدولة ومصدر اعتداء على السهول المجاورة ، وقد قام بتأديبهم الأشرف خليل .

وفي سنة ٦٩٢ توجه السلطان الى حلب ، ومنها الى آسية الصغرى لقتال  
المغول ومن معهم من الأرمن ، فاعمل فيهم السيف وفتح بلاد ارزن الروم، وعاد  
الى القاهرة وقد ذاع صيته وهابه الناس ، وقيلت قصائد الشعر في الاشادة باعماله<sup>(١)</sup> .

وفي أول سنة ٦٩٣ اقدم بعض الامراء ، وعلى رأسهم نائبه بيدرا على قتله ،  
أثناء ذهابهم للصيد « فتألم الناس لفقده ، وقد كان شجاعاً عالي الهمة حسن المنظر  
وكان قد عزم على غزو العراق ، واسترجاع تلك البلاد من أيدي التتار ، واستعد  
لذلك ونادى به في بلاده<sup>(٢)</sup> » . فكانت مدة ولايته ثلاث سنين حافلة بالفتوحات  
الجليلة . ومن آثاره بالقاهرة « خان الخليلي » نسبة اليه ، وقد بناه على انقاض  
مدافن الخلفاء الفاطميين .

تولى مكانه قاتله بيدرا وتلقب بالملك القاهر ، ولكن بمالك الملك الأشرف  
قتلوه بعد يوم واحد ، فولى الامراء محمد بن قلاوون أخا الملك الأشرف وهو في  
التاسعة من عمره ولقبوه بالملك الناصر ، وعينوا الامير زين الدين كتبغا أتابكاً له  
علماً بأن كتبغا هذا تترى « من سبي وقعة حمص الاولى التي كانت في أيام الملك  
الظاهر بعد وقعة عين جالوت ، وهو من طائفة التتر العويراتية<sup>(٣)</sup> ، ولم يلبث

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٧

(٢) البداية والنهاية ١٣ / ٣٣٥

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٣٣٨

كتبغا ان خلع الناصر ونفاه الى الكرك ، ونادى بنفسه سلطاناً ، وتلقب بالملك العادل سنة ٦٩٤ وكان سيء الادارة ، اصبحت البلاد في عهده بالمصائب من طاعون وقحط « فكان الفناء والغلاء بديار مصر شديداً جداً ، فمات بها في شهر صفر مائة الف ونحوه من ثلاثين الفاً ، حتى أفنيت الحُمُر والحيل والبغال والكلاب من أكل الناس لها ، ولم يبق شيء من هذه الحيوانات يلوح الا أكلوه (١) » .

وزاد الأمر سوءاً استقدامه طائفة من التتر العويراتية ، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل الى مصر « فقدموا لما بلغهم سلطنة كتبغا الى الشام ، فتلقاهم الجيش بالرحب والسعة ، ثم سافروا الى الديار المصرية ، ومكثهم من وظائف الدولة فعاثوا فساداً ، حتى قال الشاعر محمد بن دينار :

رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ فَإِنَّا قَدْ تَلَفْنَا فِي الدَّوْلَةِ الْمُغْلِيَّةِ  
جَاءَنَا الْمُغْلُ وَالغَلَا فَأَنْسَلَقْنَا وَأَنْطَبَخْنَا فِي الدَّوْلَةِ الْمُغْلِيَّةِ (٢)

ثم ثار الناس على كتبغا ففر الى دمشق ، وكان قد خلعه فيها نائبه حسام الدين لاجين ، وتسلطن على مصر والشام سنة ٦٩٦ ، وتلقب بالملك المنصور ، وبدأ عهده فسجن العويراتية في الاسكندرية .

وفي سنة ٦٩٧ أغار المنصور على بلاد سيبس وأذنة الارمنية وعاد بالغنائم ، « ثم أمر بعمل غارة ثانية فخاف ملك الارمن وارسل اليه يطلب الصلح ، فشرط عليه ان يكون الحد الفاصل بين مملك مصر ومملك الارمن نهر جيحون فاجابه ملك الارمن الى ذلك (٣) » .

وفي سنة ٦٩٧ فرّ الأمير سيف الدين قبچق نائب دمشق وجماعة من الامراء

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣٤٣

(٢) خطط المقرئ ٣ / ٣٥

(٣) دائرة المعارف محمد فريد ابو حديد ٩ / ١٠٣٦

الى بلاد التتر بحجة « ان السلطان قد تفلت خاطرُه نحوهم » وفي سنة ٦٩٨ بعث السلطان بجيش الى حلب بقيادة قفجاق للقاء المغول ، فانضم الى غازان ملك المغول ، فاراد السلطان السير بنفسه الى حلب ، فقتله أحدُ انصار قفجاق سنة ٦٩٨ .

تولى بعده الامير سيف الدين طقجي وتلقب بالملك القاهر ، فقتله بعد يوم واحد انصار الملك الناصر بن قلاوون نزيل الكرك ، فاتفق الامراء على إعادة الناصر سلطاناً واعيد سنة ٦٩٨ وهو في الخامسة عشرة . وفي هذا العام نفسه دخل الناصر الى دمشق في طريقه للقاء التتار فكثرت الادعية وامتأ البلد من الجافلين النازحين من بلاد حلب وحماة ، واقترضت أموال الاسرى لأجل تقوية الجيش ، وخرج السلطان بالجيش من دمشق ، وخرج معهم خلق كثير من المتطوعة ، واخذ الناس في الدعاء والقنوت والتقى الجيش بالتتار عند وادي سلمية فهزم الجيش وولى السلطان هارباً . فخرج أهل دمشق خاضعين ، واستطاع الاعيان وعلى رأسهم ابن تيمية ان ينالوا الأمان من غازان لأهل دمشق (١) .

ولكنه أمان التتار فقد نكبوا البلد وسبوا منه خلقاً كثيراً ، كما بذل الاغنياء الكثيرَ إنقاذاً لأموالهم ، فقد ذكر الشيخ وجيه الدين بن المنجا انه حمل الى خزانة غازان ثلاثة آلاف الف وستائة الف درهم ، سوى ما تمحق من التراسيم والبراطيل (٢) وما اخذ غيره من الامراء والوزراء . وأن شيخ المشايخ حصل له نحو ستائة الف درهم ، والأصيل بن النصير الطوسي مئة الف ، والصفى السخاوي ثمانون ألفاً (٣) .

ليت شعري ألا يجدر به وهو المالك لهذا وغيره أن يُقدّم شيئاً منها لإعداد حماه وأمثاله ؛ بدل أن يقترضوا لتجهيز هذا الجيش أموال اليتامى والأسرى ! .

(٢) أي الرسوم والرشاوى .

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٦

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٩



وهكذا أمست دمشق تحت سلطة التتار الذين انابوا عليها قبجق الذي « طلب القضاة والاعيان وحلفهم على المناصحة للدولة المممودية - يعني غازان - فحلفوا له (١) » ولكن هذا لم يدم اكثر من مائة يوم ، اذ سرعان ما أعاد السلطان الناصر تنظيم جيشه وزحف الى الشام ، وهزم المغول ودخل دمشق ، فتركها غازان ، وانتقل السلطان منها الى حماة وحلب وفعل بهما ما فعل بدمشق .

« وقامت في دمشق حملة على المتعاونين مع العدو ، فشئتق منهم طائفة ، ومسير اخرون ، وكُحِّلَ بعضهم ، وقطعت ألسن ، ثم نودي في البلد أن يُعلق الناس الاسلحة بالدكاكين وأن يتعلم الناس الرمي . ثم استعرض نائب السلطنة اهل الاسواق بين يديه ، وجعل على كل سوق مُقدِّماً وحواله أهل سوقه ، (٢) .

وفي سنة ٧٠٠ قصد التتار بلاد الشام ، فدخلوا حلب وخيف زحفهم الى دمشق ، وتردد السلطان في القدوم بجيشه الى بلاد الشام ؛ خوفاً من هزيمة تجعل البلاد كلها في ايدي التتار ، وذهب ابن تيمية الى مصر ، فلم يزل بهم حتى جرد العساكر الى الشام ، وزحف المغول سنة ٧٠٢ بمئة الف مقاتل ، وعلى رأسهم قطلو شاه وتلاقى الجيشان في شقحب قرب دمشق « وثبت السلطان الناصر ثباتاً عظيماً وأمر بجواده فقيده حتى لا يهرب ، وبايع الله تعالى في ذلك الموقف ، وحلف جماعة من الفقهاء والعامه على القتال ، الى ان نزل النصر على المسلمين قريب العصر يومئذ ، (٣) .

انتهز صليبيو الجبال هذه الاحداث ، فأخذوا يغيرون على المدن وبخاصة صيدا وصور وبيروت ، فبعث اليهم آقوش الأفرم نائب دمشق جيشاً لضربهم ، فهزم الجيش وغنمه الصليبيون . وفي سنة ٧٠٣ بعث السلطان الناصر جيشاً لقتالهم ، كما قام آقوش الأفرم بحملة سنة ٧٠٤ بعد خروج الشيخ ابن تيمية لغزورهم ففتح بلادهم .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٠

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ١١

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٢٦

وفي سنة ٧٠٨ يستفحل الخصاص بين سلاز نائب السلطنة وبيبرس رئيس القصر ، وانقسمت البلاد وحاول السلطان التخلص منهما فأحسا ، فأظهر أنه ينوي الحج ، فلما انتهى الى الكرك اقام به وتنازل عن السلطنة ، فتولى السلطنة بيبرس وتلقب بالملك المظفر ، واستمر سلاز نائباً للسلطنة .

بيد ان امراء المماليك لم يكونوا مخلصين له ، فأخذوا يستمياون الناس سرأ الى الملك الناصر قلاوون ، فاستجاب الناصر لهم وسار الى دمشق واستولى عليها ، ثم سار نحو مصر فخلع بيبرس نفسه ، ثم اعتقل بعد أحد عشر شهراً من السلطنة ، وبويع الناصر للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ ، واستمرت سلطنته حتى سنة ٧٤١ ، حيث صفا له الجو ثلاثاً وثلاثين سنة ، فصرف جُل اهتمامه للإصلاح ، كما سير الجيوش الى بلاد الأرمن .

وبلغ من هبة الدولة في زمنه ما جعل الفرنج يتهبون الاقتراب من السواحل غازين أو معتدين ، فأرسلوا اليه سنة ٧٣٠ « رسلاً منهم يطلبون منه بعض البلاد الساحلية ، فقال لهم : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، ثم سيروهم الى بلادهم خاسئين<sup>(١)</sup> . كما حاول التتار وكان سلطانهم خدابنده فتح البلاد الشامية سنة ٧١٢ ، بمساعدة بعض امراء المماليك المتمردين فآخفق ، وكتب الناصر الى سلطان المغول أبي سعيد سنة ٧٣٠ وعقد معه صلحاً ساد بعده الهدوء من ناحية التتار ، واستمر ذلك الى أن كانت نكبة تيمورلنك لبلاد الشام سنة ٨٠٣ ، وللعراق وسائر المشرق قبل هذا التاريخ .

وقد أتاح هذا الهدوء الذي نعم به الناصر ؛ الفرصة للالتفات الى جهاز الادارة ومحاوله اصلاحه بعد أن سرى فيه الفساد حتى كاد يغلب عليه .

فقد أصدر السلطان سنة ٧١٢ امراً غايته « ان لا يولّى احد بمال ولا برشوة

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٤٨

فان ذلك يفضي الى ولاية من لا يستحق الولاية ، والى ولاية غير الاهل<sup>(١)</sup> . كما اهتم بامر الذين يمدون ايديهم الى اموال الامة من ولاية الامور بالقبض والعزل ، وملاحقتهم بما أخذوا . وبما يلفت النظر حقاً كثرة هذه الحوادث حتى عُدَّتْ منها ابن كثير<sup>(٢)</sup> ما يزيد على العشرة بين سنتي ٧٢٣ - ٧٣٨ .

من هذه الحوادث ما كان يفعله الصاحب عز الدين غريال ناظر الدواوين بدمشق سنة ٧٥٨ « فلقد ثبت انه كان يشتري أملاكاً من بيت المال ويقفها ويتصرف فيها تصرف الملاك لنفسه<sup>(٣)</sup> » .

وفي سنة ٧٦١ سيتسع أمر هذه الظاهرة مما يدعو الى ان « يرد من الديار المصرية امير<sup>٤</sup> معه مرسوم بالاحتياط على دواوين السلطان بسبب ما أكثروا من الاموال المرتبة للناس من الصدقات السلطانية وغير ذلك<sup>(٤)</sup> » .

وكان من اعمال الناصر الغاؤه إقطاعات الممالك ، فقد كانت مصر مقسمة الى ٢٤ قيراطاً : يختص السلطان بأربعة ، والممالك والاجناد يختصون بعشرة ، والباقي وقدره عشرة موزعة بين الاهلين جميعاً .

كما صدر « مرسوم آخر فيه إطلاق السخر في الغصب وغيره عن الفلاحين<sup>(٥)</sup> » وغيرها كثير من المراسيم الاصلاحية « حتى بلغت دولة الممالك أوجها في عهده<sup>(٦)</sup> » توفي السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ خلفاً ثانياً من الابناء الذكور ، فأسلم البلاد بهذا الى فوضى في الحكم لم تعرف له نظيراً ، فقد راح الامراء

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٦٦

(٢) المصدر السابق ١٤ / ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٨٠

(٣) المصدر السابق ١٤ / ١٥٨

(٤) المصدر السابق ١٤ / ٢٦٩

(٥) المصدر السابق ١٤ / ٧٠

(٦) تاريخ مصر الحديث ، جرجي زيدان ١ / ٣٣٩ .



يتلاعبون بالسلطين أبنائه وفقاً لأهوائهم واطماعتهم ، فما ان يولوا واحداً حتى يخلعوه ويجلسوا أخاه ، وهكذا حتى توالى على عرش السلطنة أولاده الثانية في خلال اربعة عشر عاماً .

وقل أن يُكتفى بخلع السلطان بل يتعدى ذلك الى النفي أو السجن أو القتل في بعض الاحيان ، كما حصل لثلاثة من أبنائه . وبعد أن نفذ أبناؤه الثانية يم الأمراء شطر أبناء هؤلاء الخلوعين ، فسرت نحو هؤلاء التعساء مصائر العزل والنفي والقتل ، فكان من هؤلاء الأبناء محمد بن المظفر الذي قتل أبوه من قبل ، فكان مصيره على يد يلبغا العزل والاعتقال سنة ٧٦٤ ، بعد أن تولى عامين ، وكان في الرابعة عشرة . ثم تلاه الأشرف شعبان بن حسن ، الذي قُتل أبوه كذلك من قبل ، فلقى مصير أبيه خنقاً سنة ٧٧٨ هـ .

وبما يزيد الأمر سوءاً ؛ أن أكثر هؤلاء قد نُصبوا على السلطنة ، وهم في سن الطفولة الغضة ، مما يحفز الامراء الكبار على الاقتتال للتسلط عليهم ، ثم ينجلي الصراع عن الاطاحة بالسلطان وبواحدٍ من الطرفين المتنافسين . فكان لا بد لهذه المهازل المضحكة المبكية ، التي انهمك الامراء في تمثيلها على مسرح الحكم في مصر من اخر . فجاء برقوق ليكتب خاتمتها سنة ٧٨٤ بعد أن امتدت ما يزيد على الاربعين عاماً .

وكان برقوق هو الأمير الكافل للسلطان الطفل المسمى بالمنصور زين الدين حاجي ، فجمع في رمضان سنة ٧٨٤ الخاصة من الجنود والعلماء والاعيان ، فاجمعوا كلهم على بيعة برقوق ، وعزل السلطان الصالح . وانتهت بولاية السلطان الظاهر برقوق دولة المماليك البحرية ، لتخلفها ابتداء منه دولة المماليك الجراكسة ، وذلك نسبة الى أصل ملوكها .

ويحق لنا أن نسأل عن مكان الخليفة وموقفه بما كان يجسرى في البلاد من تنافس وصراع وعزل وتنصيب لنقول : لقد كان الخليفة يشترك في عمليات الخلع

والتنصيب ليلفها بستر من الشرعية والحق لا غير<sup>(١)</sup> . ولم يحصل أن إعترض الخليفة على أمر أراده الامراء ، لأنه يعلم جيداً أن استشارته في هذا و كتابته التقليد بالحكم ليس إلا إجراء شكلياً قد أبرم القرار فيه .

أما إذا كان في الأمر تنافس وصراع حول السلطة ؛ فما على الخليفة الا الإذعان للمتصر شاء أم أبي ، بل إنه سيشاء ويخضع عليه ويكتب تقليده . اذ لم يكن يصعب على السلاطين سجن الخلفاء أو نفيهم ببساطة ويسر ؛ عند ادنى تصرف لا يعجبهم ، فكيف بالاعتراض على عزل أو تنصيب . والأمثلة على هوان أمر الخلفاء وتجروؤ السلاطين<sup>(٢)</sup> بل الأمراء<sup>(٣)</sup> عليهم بالقبض أو السجن والنفي كثيرة ، لا يتسع لها مجال . كما يطلعنا المقرئ علي مدى ما وصل اليه حال الخلفاء من الهوان والاهمال فيقول :

« وفي سنة ٧٤٨ أقيم للخلافة المعتضد بالله ابو بكر ، واستقر مع ذلك في نظر مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها ليستعين بما يرد الى ضريحها من نذور العامة على قيام أوده . فان مرتب الخلفاء كان على مكس الصناعة ، وحسبُه ان يقوم بما لا بد منه في قوتهم ، فكانوا أبداً في عيش غير موسع ، فحسنت حال المعتضد بما يبيعه من الشمع المحمول الى المشهد النفيسي ونحوه<sup>(٤)</sup> . »

ولقد كان من حسن حظ البلاد ؛ أن اعداء الامة التقليديين من الفرنج والتتار ؛ لم يكن لهم وجود في المنطقة خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخ دولة المماليك ، فالفرنج كانوا قد استؤصلوا وتطهرت أرض الشام منهم ، على يد السلطان الأشرف خليل سنة ٦٩١ هـ إلا من لجأ الى الجبال ، من بقايا الحملة الصليبية السابعة

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٤٧ ، ٢٠٠ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٢٠ - ٣٢٢

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٢٣

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٣٢٣

(٤) الخطط ٣ / ٣٩٤

التي ارسلتها اوروبا بعد هذا التاريخ ، وهؤلاء وان كانوا شوكة في جنب الدولة ؛  
الا انهم لا يشكلون خطراً على كيانها ، شأن أسلافهم قبل سقوط عكا سنة ٦٩٠

وأما التتار فكانت دولتهم قد انقرضت من العراق والمشرق كله منذ عام  
٥٧٣٨ ، لتقوم مقامها في العراق الدولة الجلايرية الجديدة ، على يد رئيسها الشيخ  
حسن الكبير ، وكانت تربطها بدولة المماليك روابط المودة والتعاون ، حتى إن الموصل  
وسنجار خطبتا<sup>(١)</sup> لسلطان مصر دون اعتراض حكام الدولة . وقد استمرت هذه الدولة  
تحتكم العراق حتى بدأ نجم تیمورلنك بالظهور سنة ٥٧٨٦ .

### ملاحظات ونتائج :

نخلص من هذا كله الى ما يلي :

١ - رغم كل ما مر آنفاً من مآخذ المماليك ، فقد اتبعوا نظاماً حفظ للبلاد  
تماماً ، كما حفظ بالتالي قوتها أمام الاعداء . فقد قسموا البلاد الى تسع  
ممالك ينوب عن السلطان في كل منها نائب للسلطنة ، يعاون هذا النائب  
اربعة قضاة ونائب للقلعة وامير كبير . ونائب السلطنة في كل الممالك يعينه  
السلطان ويعزله او ينقله ، واذا حدث أن خرج أحدهم على طاعة السلطان ،  
استطاع السلطان ان يكلف من يريد من نوابه الاخرين بالمسير اليه واخضاعه ،  
أو ان يسير اليه بنفسه . ومهما يكن من امر فان النائب الخارج عن الطاعة ؛  
يُعد في نظر الجميع متمرداً ولا يقوم له امر ، كما انه ليس بصاحب حق  
وهو المملوك ، كما كان الحال عند الامراء الايوبيين ، مما سبب في حينه تمزق  
البلاد الى مدن وقلاع يسود التناحر والحند علاقاتها .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٩٣

٢ - كما اثبت المماليك انهم اهل سياسة وحرب ، فاستطاعوا أن يديروا دفة البلاد غير مكتفين بصيانتها والدفاع عنها ، بل لقد افلحوا في تطهير ارضها من بمالك الفرنج من انطاكية الى بيت المقدس ، على يد ثلاثة من اعيان ملوكهم ، وهم الظاهر بيبرس ٦٥٨ - ٦٧٦ ، والمنصور قلاوون ٦٧٨ - ٦٨٩ وابنه الاشرف خليل ٦٨٩ - ٦٩٣ الذي تحطمت امام همته اسوار عكا وتم على يديه تطهير البلاد من كل اثر للصليبيين .

كما وقفوا سداً منيعاً أمام جحافل التتار واجتياحهم للمعمورة ، فذاقوا امامهم عدداً من الهزائم بما لم تعرفه من قبل جيوشهم الظافرة .

والمتتبع لتفاصيل هذه المعارك وغيرها يعجب مما يلهمه من اقدام المماليك واستماتتهم في جهادهم<sup>(١)</sup> كما بدت من بعضهم روح فدائية عالية . ففي معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ استشهد جماعة من سادات الامراء منهم الأمير الكبير الحاج عز الدين اذمر جمدار وهو الذي جرح ملك التتار يومئذ منكوتمر ، فانه خاطر بنفسه وأوم انه منشقٌ إليه ، وقاب رمحاً حتى وصل اليه ، فطعنه فجرحه فقتلوه رحمه الله ،<sup>(٢)</sup> .

فقد اقدم على هذه المخاطرة وهو يعلم ان سيوف التتار ستمزقه لا محالة ، فكان لا بد من النصر اذن وقد تميأت اسبابه في صدق العزيمة ، والسعي الى الموت حتى النصر .

ويزول عجبنا الى حد كبير اذا انصتنا الى المقرئزي ، وهو يخبرنا عن كيفية تربية هؤلاء المماليك وإعدادهم فيقول : « إذا قدم بالملوك تاجره ، عرضه على السلطان ، ونزله في طبقة<sup>(٣)</sup> حسنة ، وسلمه لطواشي برسم الكتابة . فأول ما

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٥٥

(٢) البداية والنهاية ٢٣ / ٢٩٦

(٣) مكان الإقامة ، وتشبه الشكفة في عصرنا



يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ، ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة ، وملازمة الصلوات والاذكار .

« وكان الرسم اذذاك ( اوامر السلطان ) ان لا تجلب التجار الا المالك الصغار ، فاذا شب الواحد من المالك ؛ علمه الفقيه شيئاً من الفقه واقراه فيه مقدمة . فاذا صار الى سن البلوغ أخذ في تعليمه انواع الحرب : من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج اليه . واذا ركبوا الى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم . فينقل الى الخدمة . ويتنقل في اطوارها رتبة بعد رتبة الى أن يصير من الامراء . فلا يبلغ هذه الرتبة الا وقد تهذبت اخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الاسلام واهله بقلبه ، واشتد ساعده في رمي النشاب وحسن لعبه بالرمح ومروءة على ركوب الخيل .

« ولهم أزمّة من الخدام ، وأكابر من رؤوس الثوب ، يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي ، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته ، فان عثر احد من مؤدبيه الذي يعلمه القرآن ، أو الطواشي الذي هو مسلم اليه ، أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه ، على انه اقترف ذنباً ، أو اخل برسم ، أو ترك أدباً من آداب الدين ؛ قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه .

« وبلغ من تأديبهم أن مقدم المالك كان إذا أتاه بعض مقدمي الطيباق في السحر يشاور على بملوك انه يغتسل من جنابة ، بعث من يكشف عن سبب جنابته إن كان من احتلام فينظر في سراويله ، هل فيه جنابة أم لا ، فإن لم يجد جنابة جاءه الموت من كل مكان ، ويعلق المقريري على هذا فيقول :

« فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى (١) » .

كان هذا قبل أن يتولى الناصر بن قلاوون ، لأنه بعد توليه السلطنة أخل بهنه القواعد في تربية الممالك « فلم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك في تنقل الممالك في اطوار الخدمة ، حتى يتدرب ويتمرن كما تقدم ، وفي تدريجه من ثلاثة دنانير في الشهر الى عشرة دنانير ، ثم نقله من الجامكية (٢) الى وظيفة من وظائف الدولة ، بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة (٣) فأثابه من الممالك شيء كثير رغبة فيما لديه ، حتى كان الاب يبيع ابنه للتاجر الذي يجلبه الى مصر . وبلغ ثمن المملوك في أيامه مائة ألف درهم فما دونها » .

فهذه الحقيقة التي كشف عنها المقرئ يزي تفسر لنا فترة الفوضى والاضطراب التي تلت وفاة الناصر من سنة ٧٤١ ، فكانت أدواتها أبنائه وحفدته ، يتحكم الامراء بمصائرهم خلعاً وقتلاً وتنصيباً ، الى ان تسلطن برقوق الذي زاد الإساءة في إعداد الممالك حين « رخص لهم في سكنى القاهرة وفي التزوج ، فنزلوا من الطباق من القلعة ، ونكحوا من نساء أهل المدينة ، وأخذوا الى البطالة ، ونسوا تلك العوائد » ولم يتوقف الامر عندها بل « بقي الجلب من الممالك ؛ لكنهم من الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ، ووقاد في تنور خباز ، ومحول ماء في غيط اشجار ونحو ذلك » .

وزاد الامر سوءاً حين استقر رأي ولده الناصر فرج « على أن تسليم الممالك للفقير يتلفهم ؛ بل يتركون وشؤونهم . فبدلت الارض غير الارض ، وصارت الممالك السلطانية أرذل الناس وادنامهم ، وأخسهم قدراً ، وأشحهم نفساً ، واجهلهم

(١) الخطط ٣/٤٤٧

(٢) الحياة في الطباق والأرزاق العيبية

(٣) ويبدو انه اخذ يجلبهم كباراً

بأمر الدنيا ، وأكثرهم إغراضاً عن الدين ، ما فهم الا من هو أذن من قرد ، وألصق من فأر ، وأفسد من ذئب ، وبينى على هذا فيقول « لا جرم إن خربت ارض مصر والشام ، من حيث يصب النيل الى مجرى الفرات بسوء إباله الحكام ، وشدة عبث الولاة ، وسوء تصرف أولي الامر ، حتى إنه ما من شهر الا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه (١) » .

فهذا النص وان احتملنا طوله ؛ لكنه فسر لنا سر فلاح الممالك وانتصاراتهم في اول الامر ، ثم علة تدهور حالهم حتى آلوا الى اسوأ حال بعد ذلك .

فقد ادركوا ان مسوغ وجودهم على رأس الحكم بديلاً شرعياً عن امراء بني أيوب إنما هو تدينهم وحسن سيرتهم ثم قدرتهم الحربية ، فحققوا الجانب الاول من تكوينهم بالتربية القويمة التي كشف المقريري عن اسسها ، كما حققوا الجانب الآخر بالتدريب المستمر . فتنافسوا في اقتناء الخيول ، حتى كان يصل ثمن الحصان الى السبعين الف درهم (٢) ، وأقاموا لها الميادين العامة للسباق والتدريب ، يمارس فيها الامراء والممالك على السواء من الظهر الى العشاء جميع الالعب الحربية (٣) فلا عجب أن تكون لهم القدم الثابتة في الحروب وان يحققوا الانتصارات الباهرة على الصليبيين والتتار والارمن وغيرهم ويثبتوا أقدامهم في الحكم حين استماتوا في الدفاع عن العرب وبلادهم ، فاحتلوا مكانهم من قلوب الشعب (٤) فلم يعد يُشعر بانهم عناصر شتى غريبة عنه . وقد اثبتت الحوادث صحة هذا ، فحين تخلى الممالك عن هذه العناصر الاساسية ، التي ادركها سلاطينهم الاوائل ، مالت شمسهم الى المغرب ، وضح الشعب من مظالمهم

---

(١) الخطط ٣٤٧/٣

(٢) الخطط ٣٦٥/٣

(٣) تاريخ مصر الحديث ٢٢٥/١

(٤) البداية والنهاية ٣١٢/١٤

ورقة دينهم وفساد سلوكهم كما اوضح المقريري ، فكان ذلك ايذاناً بزوال دولتهم فيما بعد بيد العثمانيين .

٣ - كما تطالعنا في هذه الفترة ظاهرة الفرار الى التتار ، او استدعائهم والاستعانة بهم ، وقد بدأت هذه الظاهرة بابن العلقمي الوزير قبيل سقوط بغداد ، ثم لم يتورع عنها بعض الامراء الايوبيين<sup>(١)</sup> بعد الملك العادل ، حتى استعان بعضهم بالصليبيين<sup>(٢)</sup> لفتك بعضهم الاخر ، واقتبس هذا بعد ذلك امراء المماليك<sup>(٣)</sup> كلها شعر احدهم بالخطر يتهده من السلطان ، أو أنه لم ينل ما كان يؤمله منه ، فكان العدو التتري يفرح بهم ويبالغ في تكريمهم ، حتى زوجوا احدهم وهو قرا سنقر بنت هولاكوك<sup>(٤)</sup> ، وسرت هذه الظاهرة الشنعاء الى أمير مكة وهو الامير خميصة بن ابي ثمي الحسني ، ولا يعزب ان يكون من اغراض غازان في إسلامه سنة ٦٩٤ تشجيع هذا السلوك بين امراء المماليك ، فيقع الانقسام في جيش الأمة ، ويتمكن منهم التتار ، حيث حارت وسائله في تحقيق النصر عليهم مجتمعين .

هذه لمحة سريعة عن الحالة الادارية في مصر والشام في دولة المماليك البحرية حيث ترعرع اديبنا الصفدي ، فلم يكن غريباً عن هذا الجو ، فتعرض لتجاره ابناً لأحد امراء المماليك ، وخاض غماره كاتباً في دواوين الإنشاء لديهم فيما بعد ، فعاصر ما أسلفنا من وقائع ، وكان له ردود الفعل الكاملة حيال الاحداث الجارية آنذاك .

---

(١) البداية والنهاية ٢٣٨/١٣

(٢) المصدر السابق ١٦٤/١٣

(٣) المصدر السابق ٢٦٨/١٣ ، ٢٩٧ ، ٣/١٤

(٤) المصدر السابق ١٤٠/١٤



## الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع في مصر والشام مع بداية دولة المماليك البحريةية ، يتكون من طبقتين متميزتين : طبقة الحكام ، وطبقة الشعب .

فطبقة الحكام هم من المماليك الذين تساموا بالحكم بعد مقتل تورانشاه ، آخر أمراء بني أيوب في مصر ، ويذكر المؤرخون<sup>(١)</sup> بأن المجموعات الأولى منهم كانت من أمة القفجاق ؛ التي هزمت أمام التتار سنة ٦١٨ . حيث « كثر فيهم القتل والأسر ، ففارقوا أيدي سبأ في جميع الأقطار ، وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية ، فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب بمالكة البحريةية ، ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية ، وكان منهم المعز أيك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم » .

وقد عرفنا جانباً من الحياة التي كانوا يجيئونها . فكانوا يعيشون منذ بداية وصولهم في مستوى مرتفع ، اذ « اقتضى رأي الناصر بن قلاوون ؛ أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة<sup>(٢)</sup> » ولا نستغرب هذا اذا تذكرنا ان ثمن المملوك « بلسغ في أيامه مائة الف درهم فما دونها » كما عرفنا أن المماليك عمدوا الى تقسيم البلاد المصرية الى ٢٤ قيراطاً ، انفرد السلطان بأربعة منها ، ونال المماليك واجنادهم عشرة ، وبقي للشعب كله عشرة قراريط ، كان هذا قبل ان تتوسع دولتهم خارج البلاد المصرية ، أما بعد أن ضموا اليهم بلاد الشام ، فقد أصبح السلطان يمنح بعض الاقطاعات الاخرى ، على سبيل الراتب<sup>(٣)</sup> أو التعويض<sup>(٤)</sup> أو المسكافاة<sup>(٥)</sup> . ويبدو أن الإمراء

(١) محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ص ٤٧٤

(٢) خطط المتريزي ٣/٤٧٣

(٣) البداية والنهاية ١٤/٢٩٥ سنة ٧٩٤

(٤) البداية والنهاية ١٤/١٠٣ سنة ٧٢٣

(٥) المصدر السابق ص ١٠٩

كانوا يهضمون حقوق الجند في قراريطهم العشرة ، « فوردت المراسيم الشريفة السلطانية بأن يجعل للأمير من إقطاعه النصف خاصة له ، والنصف الآخر يكون لأجناده ، فحصل بهذا رفق عظيم بالجند وعدل كثير »<sup>(١)</sup> .

فعاش الممالك لذلك في امتلاء و ثراء ، والشواهد كثيرة على البذخ والرفاه الذي كانوا ينعمون فيه .

فابن كثير يذكر طرفاً من عرس أنثوك بن الملك الناصر ، على بنت الأمير سيف الدين بكتتمر الساقى سنة ٧٣٢ هـ مما يتأبى على التصديق فيقول : « كان جهازها بألف ألف دينار ، وذبح في هذا العرس من الأغنام والدجاج والإوز والحيل والبقر نحو من عشرين ألفاً ، وحملت حلوى بنحو ثمانية عشر ألف قنطار ، وحمل له من الشمع ثلاثة آلاف قنطار »<sup>(٢)</sup> . لذلك لم يجد السلطان الناصر حسين بن الناصر قلاوون ، حين ورد عليه رسول صاحب العراق ، يخطب له ابنته الا أن يطلب مملكة بغداد صداقاً لها<sup>(٣)</sup> . كما كان من مظاهر غنى الدولة أن كتب الفرمان بتعيين الأمير سيف الدين منجك « براء الذهب وشاهده الناس »<sup>(٤)</sup> ، ومن هذه المظاهر كذلك وجود بعض الوظائف : منها وظيفة ( حاجب الخزانة الشريفة ) التي تحتوي على عدة خزائن وصناديق ، بملاءة بالخلي والجواهر والأواني من ذهب وفضه وأمتعة حسنة<sup>(٥)</sup> ، ومنها ما ذكره القلقشندي في كتابه<sup>(٦)</sup> من ان « الملوك كانت قد اعتادت الرفاهية ، مع اقتدارها على تحصيل الأشياء العزيزة ، وولوعهم

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣١٨ سنة ٧٦٧

(٢) المصدر السابق ص ١٥٧

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٦

(٤) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٩

(٥) عصر الاتحاد - محمد اسعد طلس

(٦) صبح الاعشى ١٤ / ٣٩٥

بجلبها من الأماكن البعيدة ، إكمالاً لحال الرفاهية ، وإظهاراً لأبهة الملك ، دعاهم ذلك إلى جلب الثلج من الشام إلى مصر ، لتبريد الماء به في زمن الحر . وقرروا له هُجناً تحمله في البر ، وسفناً تحمله في البحر حتى يصل إلى القلعة المحروسة . وقد كانت في أيام الظاهر بيبرس ثلاثة مراكب في السنة ، ثم أخذت في التزايد إلى أن بلغت أحد عشر مركباً . . .

كما كانت نقلاته البحرية « إحدى وسبعون نقلة » ، ثم صار يزيد على ذلك ، ويجهز مع كل نقلة بريدي يتداركه ، ومعه ثلاث خيول بحمله ومداراته . ثم إن الثلج إذا وصل على المراكب والهجن حتى انتهى إلى القلعة ، تُخزن بالشرابخانة السلطانية . والمجهزين به من الخلع<sup>(١)</sup> ورسوم الإنعام رسوم مستقرة وعوائد مستمرة . . .

وهذا لا يعدّ شيئاً إذا قيس بمصروفات المطبخ السلطاني الضخمة ، حتى « توقفت أحوال الدولة في أيام الصالح اسماعيل »<sup>(٢)</sup> ، وبلغت نفقات الدولة سنة ٧٤٥ « ثلاثين ألف درهم ، منها مصروف الخوايج خاناه في كل يوم اثنان وعشرون ألف درهم . . . وكان راتب الدور السلطانية في كل يوم من أيام شهر رمضان ، ستين قنطاراً من الحلوى . . . وكانت الدولة قد توقفت أحوالها ، فوفر من المصروف في كل يوم أربعة آلاف رطل لحم ، وستائة كمامة سميد ، وثلاثمائة إردب<sup>(٣)</sup> من الشعير . . . واعتبر مصروف الخوايج خاناه سنة ٧٤٨ فكان في كل يوم ٢٢ ألف رطل من اللحم ، وصادر الحاج علي الطباخ « فوجد له خمسة وعشرون داراً على البحر وفي عدة أماكن »

ولم تقتصر مظاهر الغنى عند علي السلاطين فحسب ، فقد وُجد عند الأمير سيف الدين بشتك الناصري ، بعد مقتله سنة ٧٤٢ « من الذهب ألف ألف دينار

---

(١) الملابس والمخصصات من الهبات

(٢) خطط المقرئزي ٣ / ٣٧٥

(٣) مكيال ضخيم بساوي ٢٤ صاعاً

وسبعائة ألف دينار<sup>(١)</sup> ، وترك الأمير شيخو بعد موته « الشيء الكثير من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والحيل المسومة والانعام والحراث ، وكذلك من الممالك والاسلحة والعدة والبرك والمتاجر ما يشق حصره ويتعذر احصاؤه<sup>(٢)</sup> » . اما ما وجد بحوزة الامير سيف الدين تنكز بعد مقتله سنة ٧٤٠ من الحلي والجواهر فشيء يقدر بالأرطال والقناطير والصناديق منها « ١٩ رطلاً من الزمرد والياقوت ، وستة صناديق جواهر وفصوص الماس و ١٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة بما زنته درهم الى مثقال و ٢٤٠٠٠٠٠ مثقال ذهب و ١٠ ملايين درهم فضة وأربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والأساور ، وستة قناطير فضيات ، ومليون ومائتي ألف دينار<sup>(٣)</sup> » .

كما أن بعضهم لم يكتف بما كانت تدره عليه اقطاعاته الواسعة ، بل عمد الى تطلب المال بكل الوجوه ، فنائب حاب سيف الدين قطلبشاه كان سنة ٧٥٠ « يجتاط على تركة الميت وان كان فيها ولد ذكر أو غيره ، ويأخذ من أموال الناس جهرة ، حتى حصل له منها شيء كثير<sup>(٤)</sup> » .

أما السلطان الناصر حسن ٧٥٥ - ٧٦٢ هـ فقد « كثر طمعه وتزايد شرهه وبني البنايات الجبارة التي لا يحتاج الى كثير منها ، واستحوذ على كثير من أملاك بيت المال وأمواله ، واشترى منه قرايا كثيرة ومدناً أيضاً ورساتيق . فشق ذلك على الناس جداً ، ولم يتجاسر أحد من القضاة ولا الولاة ولا العلماء ولا الصلحاء على الإنكار عليه ، ولا النصيحة له بما هو المصلحة له وللمسلمين .. حتى إنه قطع أرزاق

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٩١

(٢) المصدر السابق ١٤ / ٢٥٨

(٣) تاريخ التمدن الاسلامي - زيدان ٥ / ١٢٠

(٤) البداية والنهاية ١٤ / ٢٣١



الجند ومعاليهم<sup>(١)</sup> وجوامكهم<sup>(٢)</sup> واخبازم وأضاف ذلك جميعه الى خاصته<sup>(٣)</sup> . . . «  
كان هذا في طبقة الحكام من الممالك ، فاذا انتقلنا الى صفوف الشعب ،  
وجدنا فيه مجموعة الموظفين اللائحة بالحكام ، ومجموعة التجار ، ثم عامة الشعب .  
أما الموظفون فقد كانت تدفع لهم الرواتب الكافية ، وتصرف لبعضهم الارزاق  
اضافة الى ذلك . فكان « معلوم الوزير في الشهر ٢٥٠ ديناراً جيشية مع الأصناف  
المذكورة من سكر وحلوى وزيت وعليق للدواب ولحم وغاة ، وتبلغ نظير المعلوم .  
« وكان معلوم القضاة والعلماء أكثره خمسون ديناراً في كل شهر ، مضافاً لما  
بيدهم من المدارس التي يستدرسون من أوقافها ، وكانوا يتوارثون هذه المرتبات ابناً  
عن أب ويرثها الأخ عن أخيه ، وابن العم عن ابن العم<sup>(٤)</sup> . »

ويخبرنا ابن كثير بأن « القاضي شهاب الدين بن الفضل ، رجع من الديار  
المصرية ومعه توقيع بالمرتب الذي كان له أولاً ، كل شهر ألف درهم<sup>(٥)</sup> . كما  
ينقل الينا في مكان آخر بأنه لما عزل قاضي القضاة « بدر الدين بن جماعة لأجل كبر  
سنه وضعف نفسه وضرر عينيه ، جبروا خاطره فرتب له ألف درهم وعشرة أرباب  
قمح في الشهر<sup>(٦)</sup> . »

فاذا انحدنا قليلاً ودخلنا دار الحديث السكرية ، سمعنا ابن كثير يعدد  
العاملين فيها فيقول : « . . وباشر مشيخة الحديث بها الشيخ الحافظ محمد بن شمس  
الدين الذهبي ، وقرر فيها ثلاثون محدثاً لكل منهم جراية<sup>(٧)</sup> وجامكية ، كل شهر

(١) الرواتب (٢) الأرزاق

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٨

(٤) خطط المقريري ٣ / ٣٦٤

(٥) البداية والنهاية ١٤ / ٢٠٧ سنة ٧٤٢

(٦) البداية والنهاية ١٤ / ١٢٨ سنة ٧٢٦

(٧) الراتب

سبعة دراهم ونصف رطل خبز ، وقرر للشيخ ثلاثون ورطل خبز . وقرر فيها ثلاثون نفراً يقرأون القرآن لكل عشرة شيخ ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين ، ورتب لها امام وقارئ حديث ونواب ، ولقارئ الحديث عشرون درهماً وثاني أواق خبز (١) .

وينتقل بنا ابن كثير الى الفقهاء ليقول بأن « الأمير الكبير ( يلبغا ) جدّ درساً بجامع ابن طولون ، فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وجعل لكل فقيه منهم في الشهر ٤٠ درهماً وإردب قمح ، وذكر فيه أن جماعة من غير الحنفية انتقوا الى مذهب أبي حنيفة ، لينزلوا في هذا الدرس (٢) .

أما في الجامع الأموي في دمشق ، فقد جعل الامير يلبغا فيه « من الطلبة من سائر المذاهب ١٥ طالباً ، لكل طالب في الشهر ١٠ دراهم ، وللمعيد ٢٠ ، وللكاتب الغيبة ٢٠ ، وللمدرس ٨٠ (٣) » وهذه رواتب حسنة اذا قيست بما قرره نصير الدين الطوسي وزير هولاءكو ، في مؤسسته التي أنشأها للرصد في مراغة سنة ٦٥٧ هـ « ورتب فيها فلاسفة ، ورتب لكل واحد في اليوم والليلة ثلاثة دراهم ، ودار طب للطبيب في اليوم درهمان ، ومدرسة لكل فقيه في اليوم درهم . ودار حديث لكل محدث نصف درهم في اليوم (٤) » .

ويأتي بعد ذلك موظفو الدواوين ، ودخّلتهم يزيد عما سلف ، دون أن يمنعهم ذلك من الإقدام على الرشوة والاختلاس ، فكثرت حواض القبض على القائمين بالأمور ومصادرة أموالهم ، بما رأينا جانباً كافياً منه في البحث السابق .

وإن دل اقدم الموظفين هذا على شيء ، فانما يدل على مدى اطلاعهم على

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٨٤ سنة ٧٣٩

(٢) المصدر السابق ١٤ / ٣٢١ - ٧٦٧

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق ١٣ / ٢١٥ سنة ٦٥٧

ما يحصل عليه السلطان وحاشيته وأمرأؤه ، من الغنى والثراء والعيش الباذخ ، فلا يجدون بأساً من الأخذ بنصييهم أسوةً بأولئك ، لكن هذا لم يمنع وجود من ترقّع عن قبول الوظائف ، أو من ندم لقبولها عندما حضرته الوفاة ، كردّ فعل لتهاكك الناس وتراحمهم ، وما يروونه من دساتيمهم وتدني أساليبيهم ، ودقعيهم المال ثمناً للمنصب المنشود . يدل على ذلك ما نراه من تعدد المناصب ، حتى إنّ بعضهم كان يتسلم سبعة عشر منصباً في وقت واحد<sup>(١)</sup> ، مما دفع ابن كثير الى التعليق عند ذكره لأحد الأشخاص بقوله « ولم يتدنس بشيء من الولايات ، ولا تدنس بشيء من وظائف المدارس ولا الشهادات<sup>(٢)</sup> » .

أما الشيخ برهان الدين الفزاري « فقد عُرض عليه قضاء قضاء الشام ، وألح نائب الشام عليه بنفسه وأعوانه من الدولة فلم يقبل ، وصمم وامتنع أشد الامتناع<sup>(٣)</sup> » .

كما أقدم « كمال الدين بن الشريشي على عزل نفسه عن وكالة بيت المال ، وصمم على الاستمرار على العزل ، وعُرض عليه العُودُ فلم يقبل ، وحملت اليه الخليفة لما خلع على المباشرين فلم يلبسها<sup>(٤)</sup> .. » ، وشبهه بهذا ما فعله قاضي القضاة عز الدين بن بدر الدين بن جماعة اذ عزل نفسه عن القضاء وصمم على ذلك ، فبعث الأمير الكبير يلبغا اليه الأمراء يسترضونه فلم يقبل ، فركب اليه بنفسه ومعه الأعيان ، فتلطفوا به فلم يقبل ، وصمم على الانعزال<sup>(٥)</sup> .

ولم تقتصر هذه المواقف النبيلة على القضاء ، فهذا « محمد بن يحيى الدين بن عبد الظاهر كاتب الأسرار في الدولة المنصورية .. وقد طلب منه ( الوزير القوي ) ابن

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٢ سنة ٦٩٠

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ١٠٩ سنة ٧٢٣

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ١٤٦ سنة ٧٢٩

(٤) الباية والنهاية ١٤ / ٤٧ سنة ٧٠٨

(٥) البداية والنهاية ١٤ / ٣١١ سنة ٧٦٦

السَّلْعوس أن يقرأ عليه كل ما يكتبه ، فقال : هذا لا يمكن ، فإن أسرار الملوك لا يطلع عليها غيرهم ، وأبصروا لكم غيري يكون معكم بهذه المثابة . فلما بلغ ذلك الأشرف أعجبه منه وازدادت عنده منزلته (١) .

ولنترك هؤلاء وأولئك من الموظفين والحكام ، لنجد بين صفوف الشعب مجموعة متميزة باليسار وسعة الثراء ، هم بلا ريب من طبقة التجار . وقد مر بنا ذكر الشيخ وجيه الدين بن المنجا الذي ذكر « انه حمل الى خزانة غازان ثلاثة الآف ألف وستائة ألف درهم ، سوى ما تمسقى من التراسيم والبراطيل (٢) » .

ومنهم ابن قطنية الذرعي التاجر ، وقد « بلغت زكاة ماله في سنة غازان خمسة وعشرين ألف دينار (٣) » ، وكذلك « الصد الكبير تاج الدين الكارمي ، الذي خلف مئة ألف دينار ، غير البضائع والأثاث والأملك (٤) » .

هذا الغنى عند هؤلاء وغيرهم ، كان يغري أمراء الممالك بمصادرتهم ، فقد كان نائب السلطنة بمصر علم الدين الشجاعى سنة ٦٨٦ يتقرب من السلطان المنصور قلاوون بتحصيل الاموال . فقدم في السنة نفسها « من مصر الى الشام بنية المصادرة لأرباب الاموال من أهل الشام » ويبدو أنهم كانوا يضمنون بهم عن الإسهام في مصالح الأمة العامة . وقد رأينا كيف اضطر السلطان سنة ٦٩٨ هـ « لاقتراض أموال اليتامى وأموال الأسرى لأجل تقوية الجيش » بينما يجبر ابن منجا بعد الهزيمة أن يحمل الى خزانة غازان ما أبان عنه في السطور السابقة .

هذا ولم يتعذر الامر وجود أمثال الشيخ شمس الدين محمد بن عبد السلام الذي كان « يتردد الى عكا حينما كانت في أيدي الفرنج في فكك أسارى المسلمين (٥) »

(١) البداية والنهاية ٣٣١/١٤ سنة ٦٩١

(٢) « « ٩/١٤ سنة ٦٩٨

(٣) « « ١٠٧/١٤ سنة ٧٢٣

(٤) « « ١٥٦/١٤

(٥) « « ٢٩٨/١٣ و ٣٠/١٤



فاذا دخلنا في صفوف العامة ، وجدنا شعباً متمسكاً بدينه ، ويزيد في ذلك مجاورته للفرنجة ، وحرابه مع الصليبيين ، الذين وفدوا عليه غازين باسم الدين يتقدمهم شعاره . كما زحفت عليهم من الشرق جحافل التتار ، عدوة الأديان والحضارات والوجود الانساني كله ، فزادته هذه الاخطار تقرباً من الله سبحانه بالعبادة والدعاء ، فكانت المساجد ملتقاهم في كل أمورهم الدينية والدينية .

وأبرز حادثة في هذا ؛ ما أقدمت عليه نساء دمشق سنة ٦٠٧ ، اذ عمدن الى شعورهم فقصصنها ، وضربنها حبلاً للجهاد ضد الصليبيين وبعثن بها الى سبط الجوزي علامة الشام وواعظها . فبكى لرؤيتها وتأثر « وكانت عدتها ٣٠٠ حبل غليظ ، فحملت على الاعناق خلال خطبة الجمعة في المسجد الأموي من قبل ابن الجوزي . فضج الناس وتقاسموا على القتال حتى الموت ، وتزاحمت جموعهم ، وكروا على الصليبيين فاتصروا ، واحتفى الصليبيون بحصون عكا ، وكتبوا الى الملك العادل يرجونه الهدنة فقبل ، بينا راح الصليبيون خلالها يستعدون للهجوم على دمشق .

وقد استغل بعض الحثباء نمو الشعور الديني هذا ، فكان يدعي المكاشفات أمثال « الشيخ ابراهيم الشاغوري بدمشق ، ويذكر له أحوال ومكاشفات على السنة العوام ومن لا يعقل ، ولم يكن ممن يحافظ على الصلوات ولا يصوم مع الناس . ومع هذا كان كثير من العوام وغيرهم يعتقدونه<sup>(١)</sup> » وقد شاع كذلك أمر المنجمين ، « فأمر السلطان بتسليمهم الى والي القاهرة ، فضربوا وحبسوا لإفسادهم حال النساء ، فمات منهم أربعة تحت العقوبة . كما رحنا نسمع في هذه الفترة ، ما يتردد بين أتباع المذاهب الأربعة من المنافسات المذهبية ، وتصل أحياناً الى الحصومات الحادة .

أما فئات الشعب فقد كانت متعددة ، منها السكان الأصليون ، وفئات من

---

(١) البداية والنهاية ٢٩٨/١٣ و ٣٠/١٤

الأتراك والأرمن واليهود وغيرهم ، فكانت أزيائهم لذلك متنوعة متعددة ، حتى إنه كان هناك فئة تدعى القلندية كانوا يخلقون لحاهم وحواجبهم وشواربهم « فورد كتاب من السلطان بإلزامهم ترك ذلك ، وبإلزامهم بزي المسلمين ، وترك زي الأعاجم والمجوس ، فلا يمكن احد منهم من الدخول الى بلاد السلطان ، حتى يتترك هذا الزي المتدع ، واللباس المستشنع ، ومن لا يلتزم بذلك يعزر شرعاً ، ويقلع من قراره قلماً (١) . »

ومن المؤكد ان السكان جميعاً كانوا يكسون رؤوسهم بالعمائم ، وكان بعض السلاطين حريصاً على تمييز عمائم المسلمين عن عمائم غيرهم ؛ باللون (٢) تارة وبالجم (٣) تارة أخرى ، ويبدو أن المرأة كانت تلبس العمامة أيضاً ففي سنة ٦٩٠ « نادى نائب الشام الشجاعي ان لا تلبس امرأة عمامة كبيرة (٤) » ، والمرأة لا تتقيد في ملابسها بزي واحد ، فقد جعلته سنة ٧٥١ قصيراً نسبياً ، وأكمامه عريضة كاشفة ، وفيه تذيير ، حتى صدر الأمر « بأن لا تلبس النساء الاكمام الطوال العراض ولا البرد الحرير ولا شيئاً من اللباسات والثياب الثمينة ولا الاقمشة القصار . . . وشدوا في تطبيق ذلك حتى قيل انهم غرقوا بعض النساء (٥) » . وصدد بخصوصهم أمر آخر بعد بضع سنوات يقضي « بتضييق الأكمام (٦) » ، ويبدو أن حالهم استدعى اصدار أمر ثالث سنة ٧٦٢ « بأن يمشين في تستر ، ويلبسن ازهرن الى أسفل عن سائر

(١) البداية والنهاية ٢٧٤/١٤

(٢) « « ١٤/١٤

(٣) « « ٢٥٠/١٤

(٤) « « ٣٢٢/١٣

(٥) « « ٢٣٣/١٤

(٦) « « ٢٥٤/١٤

ثيابهن ولا يظهرن زينة . فامتثلن بذلك (١) ، وقام نائب دمشق بفصل سوق خاص (٢) للنساء يشترين منه الاقمشة ، وترك للرجال سوق الدهشة السابق .

وقد انتشرت في هذه الفترة التي نتحدث عنها بعض الأمراض الاجتماعية ، كانت معاقرة الراح على رأسها ، ويبدو أن مجاورة الفيرنج والاحتكاك بهم ، ساعد على سعة انتشارها ، حتى قلّ أن ينسى سلطان إصدار الاوامر باراقتها ومنعها ، وقد كان يرافقها امر الحواطيء ، فان سمح فيها معاً ، وان ألغيازالا معا .

وقد كان الظاهر بيبرس أول من اهتم بذلك من الممالك ، فرسم سنة ٦٦٧ « باراقة الخمر وتبطل المفسدات والحواطيء بالبلاد كلها ، وسلبن جميع ما كان معهن حتى يتزوجن (٣) » . ويبدو أن الناس تهاونوا في أمر الخمر ، فأمر السلطان ثانية سنة ٦٦٩ « باراقة الخمر من سائر بلاده ، وتهدد من يعصرها أو يعتصرها بالقتل ، وأسقط ضمان ذلك وكان بالقاهرة وحدها ألف دينار في اليوم (٤) » .

ولكن موضوع الخمر والزنا لم يكن يثبت على حال ؛ ففي سنة ٦٨٠ « ضمن الخمر والزنا بدمشق وجعل عليه ديوان ومشد (٥) » ، فقام في وجه ذلك العلماء والصلحاء فأبطل بعد عشرين يوماً . تم أقدم قبجق خلال احتلال التتر لدمشق على اعادتها « فضمن الخمرات ومواضع الزنا من الخانات وغيرها ، وصار له على ذلك في كل يوم ألف درهم (٦) » ، ولكن الأمر لم يطل ، فما أن غادر التتار دمشق بعد مائة يوم فقط ، حتى قام ابن تيمية وأصحابه فأبطلوا ذلك .

---

(١) البداية والنهاية ٢٨٠/١٤ .

(٢) « « ٣١٣/١٤ .

(٣) « « ٢٥٤/١٣ .

(٤) « « ٢٦٠/١٣ .

(٥) « « ٢٩٤/١٣ ، والمشد بمعنى ادارة خاصة به .

(٦) البداية والنهاية ١٠ / ١٤ .

أما منطقة الساحل ؛ فما تزال متأثرة بما غادره فيها الصليبيون « فبرزت المراسيم السلطانية الى البلاد الساحلية سنة ٧٠٩ بإبطال الخمر ، وتخريب الخانات ، ونقي أهلها ففعل ذلك ، . وحين أريقت خمر أهل الذمة سنة ٧٦٧ « فاض نهر تورا من ذلك (١) » .

وبما نشأ في المجتمع من الآفات ؛ ما يشير اليه الشاعر شمس الدين التلمساني سنة ٦٨٨ في محاولة للتفسير فيقول :

ما للحشيشة فضلٌ عندَ آكلِها      لكنَّه غيرُ مصروفٍ الى رَشيدِه  
صَفراءُ في وجهه خَضراءُ في فَمِه      حَمراءُ في عَيْنِه سوداءُ في كَبِدِه (٢)

وقد كان أكل الحشيشة شائعاً ، بخاصة في جماعة القلنديه الذين مر ذكرهم فيقول ابن كثير بحقهم « وكان اللاتق أن يؤمروا بتوك أكل الحشيشة الحسيسة ، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها (٣) » . كما شاع التغزل بالمذكر حتى غدا على نكوه وانحطاطه كأن لا هجنة فيه ، اذ يقول ابن كثير « إن سلامش ( ابن الظاهر بـرس ) كان من أحسن الناس شكلاً وأبهاهم منظراً ، وقد اقتن به خلق كثير ، واللوطية الذين يحبون المردان ، وشبب به الشعراء . . » وكذلك ساد أمر الرشوة بشكل واسع ، حتى رأينا الأمير بندار نائب السلطنة بمصر وهو على رأس حملة الى جبل كسروان لتأديبهم ، فلما أحرق بهم حملوا اليه ليلاً ما جعله ينصرف بالجيش عنهم ، وبقي السلطان يجهل ذلك ؛ حتى نقله اليه وزيره « فلامه وعنفه فمرض من ذلك مرضاً شديداً أسفى به على الموت (٤) » .

(١) البداية والنهاية ٣١٧/١٤

(٢) «      «      ٣١٥/١٣

(٣) «      «      ٢٧٤/١٤

(٤) «      «      ٣٢٧/١٣



وحيث تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، أهتم بمعالجة عدد مما توضع في جسم المجتمع ، فأصدر سنة ٧١٢ أمراً يقضي بأن « لا يولى أحد بمال ولا برشوة ، فان ذلك يفضي الى ولاية من لا يستحق الولاية ، والى ولاية غير الأهل (١) » كما أصدر في العام نفسه أمراً « بإبطال ضمان القواصير وضمان النبيذ » . ويبدو أن منطقة الساحل عادت الى ما كانت عليه قبل عام ٧٠٩ فأمر السلطان سنة ٧١٧ « فأبطلت الخمر والفواحش كلها من بلاد السواحل وطرابلس وغيرها (٢) » .

وفي سنة ٧٢٤ ولي سيف الدين قديدار ولاية مصر ، وكان شديداً على المفسدين « فأراق الخمر ، وأحرق الحشيشة ، وأمسك الشطار ، فاستقامت به أحوال القاهرة ومصر (٣) » . كما رسم السلطان سنة ٧٣٣ « بالمنع من رمي البندق ، وأن لا تباع قسيها ولا تعمل ، وذلك لإفساد رماة البندق أولاد الناس ، وأن الغالب على من تعاناه اللواط والفسق وقلة الدين ، ونودي بذلك في البلاد المصرية والشامية (٤) » .

أما من أقدم على السرقة ، فقد كانت عقوبته صارمة رادعة ، ففي سنة ٧٤٨ « أمر نائب السلطنة بدمشق بجماعة انتهبوا شيئاً من الباعة ، فقطع أحد عشر منهم وسمير عشر تسميراً تعزيراً وتأديباً (٥) » .

كما كانت الدولة تؤكد منع الربا ، وتنزل بمن يتعامل به أشد العقاب ، بعد أن تنتزع منه ما أخذه بالربا ، وتفعل ذلك بمن يغفل إخراج زكاة ماله . فقد أخذت من رجل واحد من هؤلاء « مبلغ ٣٢٠ ألفاً وختم على حججه ليعقده بذلك مجلس يأخذ رأس ماله منها عملاً بقوله تعالى : ( وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٦٦

(٢) « « ١٤ / ٨٢

(٣) « « ١٤ / ١١٣

(٤) « « ١٤ / ١٦١

(٥) « « ١٤ / ٢٢٥

لا تظلمون ولا تظلمون ) وتؤدي . . عليه في البلد إنما فعل به ذلك لأنه لا يؤدي  
الزكاة ، ويعامل بالربا ، (١)

هذا وإن فوازع الخير هي الغالبة على هذا المجتمع ، رغم وجود أمثال هؤلاء  
المفسدين ، ولولا ذلك لما كان هناك من يهتم بالأيتام ، حتى كنا نسمع عن وجود  
أموال تحفظ للاتفاق عليهم ، جعل نائب السلطنة بالشام ؛ يطلب منها لتقوية الجيش  
« خمسمائة ألف ويعوضهم عن ذلك بقرية من بيت المال ، وكتب بذلك سجلات (٢) » .

ولما كان كذلك من يهتم للأسرى ، فيوقف من أملاكه ما يجعل المسؤولين  
يرسلون « إلى الشام يطلبون من أموال أوقاف الأسارى ما يستنقذون به من بقي  
في أيدي العدو من المسلمين (٣) » وقد مر بنا خبر من كان يذهب بنفسه إلى عكا ؛  
في فكك الأسرى لوجه الله . مما دعا إلى إقامة ديوان للأسرى ، يتولى الدفع عند  
الحاجة في فككهم ، كما حصل سنة ٧٥٧ حيث راسل الجيش الفرنج « في فكك  
الأسارى من أيديهم فبادرهم عن كل رأس بخمسمئة ، فأخذوا من ديوان الأسارى  
مبلغ ثلاثين ألفاً ، ولم يبق معهم والله الحمد أحد (٤) » . كما يطالعنا ابن كثير  
بالشيخ بهاء الدين أبي القاسم ، الذي اشتغل بالطب « وكان يعالج الناس بغير أجره (٥) » .

أما المستوى المعاشي الذي كانت عليه عامة الشعب ؛ فلا أشك في أنه كان  
متديناً سيئاً ، لأن كل فرصة لهذا الشعب للعمل والكسب أو ثمره له ؛ كانت  
طعمة للحروب والضرائب والنكبات ، إضافة إلى حرمانه من استقرار يتيح له  
إنتاجاً يعود عليه بربح يذكر .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٠

(٢) « « ١٤ / ١٩٥

(٣) « « ١٤ / ٢٥٢

(٤) « « ١٤ / ٢٥٥

(٥) « « ١٤ / ١٠٨

فقبل بدء فثرتنا محور البحث بقليل ، كانت بلاد الشام حديثة العهد بما كان يفعله أمراء البيت الايوبي من التطاحن لاحتلال المدن ، مستعينين بالفرنج تارة ، وبالخوارزمية أخرى . حتى إن مدينة دمشق لقيت في عام ٦٤٣ من الشدة - بسبب استمرار حصار الصالح أيوب ومعه الخوارزمية - ما ينكره التصديق . حتى « بيعت الأملاك بالدقيق ، وأكلت القطط والكلاب والميتات والجيفات ، وتماوت الناس في الطرقات ، وعجزوا عن التغيل والتكفين والإقبار (١) ، بعد أن احترق أكثر أحياء المدينة . ثم تجددت هذه الحال سنة ٦٤٨ حيث تداول الامراء دمشق خلالها أربع مرات . حتى قال بعضهم معرضاً بالصالح اسماعيل :

صَيَّعَ إِسْمَاعِيلُ أَمْوَالَنَا      وَخَرَّبَ الْمَغْنَى بِلَا مَعْنَى  
وَرَا حَ مِنْ جِلَّتِي ، هَذَا جِزَا      مَنْ أَفْقَرَ النَّاسَ وَمَا اسْتَعْنَى

كان هذا حال السكان ، بينما قام الصالح اسماعيل بمصادرة « الخاتون أرغوانيه ، وهي التي كانت تصلح الطعام للمغيث بن الصالح أيوب ، فأخذ منها أربعمئة صندوق من المال (٢) » .

ولم تكف بلاد الشام تلتقط أنفاسها من هذه المحن الغريبة ، حتى طرقت التار بابها وجاسوا خلال ديارها من أقصاها الى غزة ، ولم تلبث أن أصبحت تشكل مع الديار المصرية دولة المماليك ، التي ستخوض في أقل من خمسين سنة من ٦٥٨ حتى ٥٧٠٥ ما يزيد على خمسة عشر حرباً كبيرة ضد أعداء الانسانية ، احتل التار خلالها بلاد الشام مرتين ، يزهقون الأنفس ، وينهبون الأموال ، ويسبون النساء ، ويخربون الديار ، قبل ان يرتدوا مهزومين صوب العراق ، وكان آخر هذه الحروب سنة ٥٧٠٢ .

(١) البداية والنهاية ١٣ / ١٦٦

(٢) «      » ١٣ / ١٧٩

كما احتمل هذا الشعب قسوة الحروب الصليبية ، التي امتدت في فترتنا هذه منذ عهد بيبرس ٦٥٨ حتى الأشرف خليل سنة ٦٩١ ، كانت البلاد خلالها مشتبكة في حروبها مع التتار لاتكاد تنتهي من معركة حتى تستعد لتلقي الأخرى .

وقد جرى في بلاد الشام أثناء الاستعداد لمعركة عكا سنة ٦٨٩ هـ ما وصفه ابن كثير بقوله : « وجاء البريد بعمل مجائيق لحصار عكا ، فركب الأعرس الى اراضي بعلبك لما هنالك من الاخشاب العظيمة ، التي لا يوجد مثلها بدمشق ، فكثرت الجنايات والجبليات والسخر ، وكلفوا الناس تكليفاً كثيراً ، وأخذوا أخشاب الناس وحملت الى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة (١) » .

إذا كانت هذه أعباء حرب واحدة ، فما بالنا بالحروب التي لم تنته بين البلاد وأعدائها ، حتى تم تطهير الارض من رجس الصليبيين سنة ٦٩١ هـ ، كما كانت آخر حملات التتار سنة ٧٠٢ هـ .

وخاضت البلاد ضد الأرمن في آسيا الصغرى حروباً خماً ، انتصرت فيها جميعها منذ ٦٦٣ وحتى ٧٠٥ هـ ؛ وشن بيبرس حرباً ضد الباطنية في شمال سورية ، وأخرى فتح بها بلاد النوبة سنة ٦٧٤ ، وكان قد أعد اسطولاً بحرياً لغزو قبرص فغرق بفعل الرياح ، فأمر بإنشاء اسطول آخر .

وكان الشعب في كل هذا لا يتوانى عن البذل والتضحية بالمال والتطوع ، كما يعيش مع المقاتلين في ملازمة المساجد بالدعاء لهم بالغبلة والنصر .

هذا ما يتعلق بالحروب ، أما إذا اتجهنا صوب النكبات التي كانت تحل بالبلاد ، ذهينا لما نراه من كثرتها وهولها في غالب الأحيان .

فقد وقع في مصر بين سنتي ٦٩٥ - ٧٦٤ ما نيف على احدى عشرة نازلة

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢١٦



ما بين حريق (١) وفناء وفيضان (٢) مدمر ، و زلزال (٣) ، وطاعون لأحيلة للناس في رده .

ففي سنة ٦٩٥ كان الفناء بمصر شديداً « فمات في شهر صفر مائة ألف ونحو من ثلاثين ألفاً ، وأفنت الحمير والبغال والكلاب من أكل الناس لها (٤) .  
وفي الطاعون الذي خيم في مصر سنة ٧٦٣ كان « يضبط من أهلها في النهار نحو الألف (٥) » .

أما بلاد الشام فقد حل في أرجائها من النكبات بين سنتي ٧٠١ - ٥٧٦٥ ما زاد على ثماني عشرة ، ما بين جراد (٦) ، وقتنة (٧) دامية ، وسيل (٨) مخرب ، وفيضان<sup>٩</sup> متلف ، وحريق (١٠) كبير ، و زلزال مدمر ، ومرض (١١) مهلك من الطاعون أو الخانوق . ففي سنة ٧٠١ « قدم الى الشام جراد عظيم أكل الزرع والثمار وجرد الأشجار ، حتى صارت مثل العصي (١٢) » . ولا وسائل لدى القوم يجابهون بها زحفه الكاسح ، الا أن يتركوه يغادر بعد أن يفتقد ما يأكله . أما السيل الذي اندفع في بعلبك فقد خرب نحواً من « ستمئة دار وحنوت سوى

---

(١)	البداية والنهاية	١٤ / ٩٩ ، ١٣٤ ، ١٨٩ ، ٢٣٩ ، ٢٥٤
(٢)	»	٨٢ / ١٤
(٣)	»	٢٧ / ١٤
(٤)	»	٣٤٣ / ١٣
(٥)	»	٣٠١ / ١٤
(٦)	»	٣٠٧ / ١٤
(٧)	»	٥٣ / ١٤
(٨)	»	١٥٦ ، ٩٢ ، ٨٨ ، ٨٦ / ١٤
(٩)	»	١٥٨ / ١٤
(١٠)	»	٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٣ ، ٢١٠ / ١٤
(١١)	»	٣٠٨ ، ١٧٠ / ١٤
(١٢)	»	١٨ / ١٤

البساتين والطواحين (١) ، وفي إحدى الحرائق « احترق أكثر مدينة أنطاكية (٢) » ، وكذا فإن الزلزال الذي تحرك في منطقة حلب سنة ٧٤٢ « لم يبق من مدينة منبج الا القليل وأن عامة سكانها هلكوا تحت الردم (٣) » . ثم كان الطاعون الذي خيم على دمشق سنة ٧٤٩ حتى بلغ حصاده « الثلاثمئة في اليوم ، وتعطلت مصالح الناس (٤) » ، وقد عاد إليها ثانية بعد حوالي خمسة عشر عاماً ، ليم ، بدأه قبلاً ، ولا حيلة لدى السكان سوى التضرع الى الله سبحانه برفعه وكشف ضره . اللهم سوى اقدامهم على قتل الكلاب ودفنها خارج المدينة . وزاد في سوء الحال ما قام به الأعراب من عصيانهم ، إذ « دمروا بلد تدمر ، وحرقوا كثيراً من أشجارها ورعوها ، وانتهبوا شيئاً كثيراً (٥) » .

فكيف لا تكون عامة الشعب والحالة هذه ، من توالي الحروب والنكبات واحتمال الاضطرابات ، في حال اقرب الى الفقر ، وفي مستوى متدن من العيش ، بما دعا الكثيرين الى مد أيديهم بالسؤال ، حتى إذا سمع أحدهم بتوزيع صدقة ، خف إليها ليجد هنالك الجموع من أمثاله تنتظر العطاء ، من أي نوع كان ، وقد يلفظ أنفاسه بين المتزاحمين قبل أن يحصل على شيء . وقد حدث هذا سنة ٧٢٣ « إذ عوفي القاضي كريم الدين وكيل السلطان من مرض أصابه ، فجمع الفقراء بالمارستان المنصوري ليأخذوا من صدقته ، فمات بعضهم من الزحام (٦) » .

فكان من نتيجة هذا ، أن برزت في المجتمع فئة تأصل الفقر فيها ، واستمرأت السؤال ، حتى غدا مهنتها لا تحيا إلا بتعاطيه ، غير مطمئة الى غدها القريب

---

(١)	البداية والنهاية	١٤ / ٨١
(٢)	« «	١٤ / ١٧٠
(٣)	« «	١٤ / ٢١١
(٤)	« «	١٤ / ٢٦٦
(٥)	« «	١٤ / ٣٠١
(٦)	« «	١٤ / ١٠٥

واحتالاته المرتقبة . فهؤلاء و جماعة من السؤال اجتمعوا قبل الفجر ليأخذوا خبزاً من صدقة تربة ، فتضاربوا فيما بينهم ، فعمدوا الى رجل منهم فخنقوه خنقاً شديداً ، واخذوا منه جراباً فيه نحو من أربعة آلاف درهم ، وشيء من الذهب (١) .

هذه خطوط سريعة ، رجوت أن تكون كافية لتوضيح صورة مجتمع مصر والشام ، خلال القرنين السابع والثامن الهجريين . حكام من الممالك يتمتعون بأعلى مستويات العيش ، فيتقنون في طعامهم وشرابهم ولباسهم ووفرة بماليكهم ، واستجلاب ما يكفل لهم مزيداً من الرفاه والراحة .

ومن ثم ولادة للأمور والدواوين . يغلب عليهم التهاك على المناصب ، ودفع الاموال الطائلة يرشون بها ذوي الامر ، للوصول الى المنصب المنشود ، ثم لا يفتأون يمدون بأيديهم الى الاموال العامة ، فيضبط اكثرهم ويصادر ما أخذه ، مما جعل بعضاً منهم يأنف من الوظيفة ويترفع عنها . فيعزل نفسه أو يتأبى على التعيين ، أو يقوم بعمله حتى الإقالة العادية محمود السيرة نظيف اليد طاهر الثوب .

أما عامة الشعب ، فقد اتسمت بالبساطة ، حتى راج بينها التنجيم وادعاء الاحلام ودعاوى المكاشفات . واتصفت بالتدين العميق ، والرجوع الى الله كلما حزبها أمر ، بما كانت تعانيه من الحروب ، وتقاسيه من النكبات على أنواعها ، فكانت الخصومات الدينية والمذهبية اكثر ما يشغلها فيما بينها ويحدد مواقفها ، دون أن يخاو ذلك من وجود مجموعات تفتشت فيها مختلف الامراض الاجتماعية ، من معاقرة خمر ، أو تعاطي حشيش ، مما يسلم بالتالي الى انحرافات جنسية شاذة ، أو مزاولة سرقة ، أو تعامل بالربا . . وقد كانت هذه الآفات على أنواعها تقابل بالحزم والشدة في غالب الاحيان .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٧

كما كانت تمر بالشعب أحوال من العدم الشديد ، تتاو غالباً حلول النكبات تدفع بالكثيرين الى السؤال والاستجداء ، حتى توضع في المجتمع فئة تطلب للطلب لا للحاجة ، بعد أن مات فيها كبرياء النفس وإباؤها .

### الحياة الثقافية :

نشطت الحياة العلمية والأدبية في هذه الفترة من تاريخ مصر والشام نشاطاً ملحوظاً ، فبالإضافة الى ما أولاه الحكام من الاهتمام بالعلم ونشره ورجاله ، فقد ساعدت الاحداث على دفع عربة العلم الى الامام أسواطاً .

فقد طوحت يد الردي بمدن العراق وحواضر الاندلس ، ودارت عليها الدوائر ، وذهب كل ما كان لها من آثار العلم وأعمال المجد والحضارة . فوفد علماءها على مصر والشام ، يجدوا فيها الدوحة المنشودة .

وهكذا أصبحت البلاد ميداناً واسعاً ، يتسابق فيه طلاب العلوم والمعارف ، ومورداً عذباً يزدهم عليه أهل الادب ومحبو الحكمة ، وروضة زاهية بمشاهير العلماء والحكماء .

وقد ورث المماليك عن الايوبيين ، تشجيع العلم وتكريم أهله وبناء مدارسهم في كافة أنحاء بلادهم .

فقد تسلم المماليك حكم الديار المصرية ، وفيها من صنيع الأيوبيين خمس وعشرون مدرسة (١) ، ثم وصلوا الى حكم بلاد الشام ، ليجدوا فيها عشرين (٢)

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي - زيدان ٣ / ٢٢٦

(٢) المصدر السابق .



مدرسة أنشأها الأيوبيون . وهكذا سار سلاطينهم على سنة سادتهم ، واحتذى بهم الامراء والفضلاء ، حتى اذا انتصف القرن الهجري التاسع كانت عدة المدارس التي بناها المماليك في مصر خمساً وأربعين (١) . وبذلك بلغت مدارس مصر وحدها في هذين العهدين سبعين مدرسة . وكذا فان مدارسهم بالشام مبنوثة في كل مدنه ، وتأتي على رأسها مدرسة الظاهر بيبرس في دمشق وتضم الآن دار الكتب الظاهرية ، تجاورها مدرسة الملك العادل وفيها جمع اللغة العربية .

ولن يطول تساؤلنا عن سبب اقبالهم هذا على نشر لغة ليسوا من أهلها ، للأسباب الآتية :

— أولها أنهم اعتنقوا الاسلام ديناً ، فأخلصوا له ، وتفانوا في الدفاع عن أرضه وأهله . وتعلموا العربية ، فأقبلوا على علومها ، ونهلوا من آدابها ، فأحبوا أهلها وفدوهم بأنفسهم .

وقد عبر بعض الشعراء عن هذه الغاية الدينية النبيلة ، في حفلة افتتاح احدى هذه المدارس ، فقال ابن الصائغ الحنفي مخاطباً الأمير صرغتمش .

لِيَمْنِكَ يَا صَرَغْتَمَشُ مَا بَنَيْتَهُ لِأُخْرَاكَ فِي دُنْيَاكَ مِنْ حُسْنِ بُنْيَانٍ (٢)

كما قال أبو الحسين الجزار عند افتتاح المدرسة الظاهرية بالقاهرة سنة ٦٦٢ هـ .

أَلَا هَكَذَا يَبْنِي الْمَدَارِسَ مَنْ بَنَى وَمَنْ يَتَغَالَى فِي الثَّوَابِ فِي الثَّنَا (٣)

— وثانيها أن يقدم أحدهم على بناء مدرسة ، تؤيد المذهب الذي ينتمي اليه ويتحمس

(١) تاريخ التمدن الاسلامي - زيدان ٣ / ٢٢٦

(٢) خطط المقرئزي ٤ / ٢٥٦

(٣) المصدر السابق ٤ / ٢١٧

له ويسعى لنشره . صنيع الأمير صرغتمش نفسه الذي « كان يشارك في  
 الفقه على مذهب الحنفية ، ويبالغ في التعصب لمذهبه » فأنشأ مدرسته الصرغتمشية  
 سنة ٧٥٦ ، وجعلها « وفقاً على الفقهاء الحنفية الآفاقية ، ورتب لهم جميعاً  
 المعاليم من وقف رتبة لهم <sup>(١)</sup> » ومن هذا النوع ما فعله الأمير بلبغا سنة ٧٦٧ هـ  
 حين « جدد درساً بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وجعل لكل  
 فقيه منهم في الشهر ٤٠ درهماً وإردب قمح ، وذكر أن جماعة من غير الحنفية ؛  
 انتقلوا الى مذهب أبي حنيفة لينزلوا في هذا الدرس <sup>(٢)</sup> » .

كما كان هناك من شجع العلم حباً في العلم ، لما كان له من الاهتمام به  
 والاستغلال فيه . فقد كان الملك المنصور قلاوون ، على جانب عظيم من العلم  
 والمعرفة والفضل <sup>(٣)</sup> ، ويخبرنا ابن كثير بأن ابنه السلطان الناصر محمد كان  
 يسمع « على الشيخ شهاب الدين الحجار المعروف بابن الشحنة <sup>(٤)</sup> » . وقد عبر  
 السراج الوراق عن ذلك ، عند افتتاح المدرسة الظاهرية فقال :

مَلِيكَ لُهُ فِي الْعِلْمِ حُبٌّ وَأَهْلِهِ      فَلِلَّهِ حُبٌّ لَيْسَ فِيهِ مَلَامٌ  
 فَشَيْدَهَا لِلْعِلْمِ مَدْرَسَةٌ غَدَا      عِرَاقٌ إِلَيْهَا شَيْقٌ وَشَامٌ  
 وَلَا تَذْكُرَنَّ يَوْمًا نِظَامِيَّةً لَهَا      فَلَيْسَ يُضَاهِي ذَا النِّظَامِ نِظَامٌ <sup>(٥)</sup>

— وآخر هذه الأسباب ، سعي هؤلاء الممالك لكسب رضى الامة ومحبتها والتقدم

(١) خطط المقرئزي ٤/٢٥٢ وما بعدها

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٣٢١ سنة ٧٦٧

(٣) عصر الانحدار .

(٤) البداية والنهاية ١٣ / ١٥٠ سنة ٧٣٠

(٥) المقرئزي ٤ / ٢١٧

عندها ، فاذا كانت منزلة الخلفاء في نفوس المسلمين ، يؤيدها أكثر من عامل ، فما أحوج هؤلاء الى البرهنة الدائمة ، على أهليتهم لارتقاء سدة الرئاسة والحكم . فكان أن تبارى السلاطين والامراء ، وتبعهم كثير من الوجهاء ، في بناء المدارس والمساجد والخوانق (١) والربط (٢) والزوايا (٣) والبيمارستانات (٤) ، والتوقيف عليها بسخاء يغطي نفقاتها الكثيرة التي تشمل تأثيثها وتزويدها بالكتب ، ودفع المعاليم الشهرية للمدرسين والفقهاء والقراء والطلبة . . . ما يضمن للمدرسة البقاء والارتقاء ، فكسبوا بذلك رضى الناس وثناءهم . وقد استمعنا الى أبي الحسين الجزار وهو يقول مشيراً الى هذا ، عند افتتاح المدرسة الظاهرية :

أَلَا هَكَذَا يَبْنِي الْمَدَارِسَ مَنْ بَنَى      وَمَنْ يَتَغَالَى فِي الثَّوَابِ وَفِي الثَّنَا  
لَقَدْ ظَهَرَتْ لِلظَّاهِرِ الْيَوْمَ هِمَّةٌ      بِهَا الْيَوْمَ فِي الدَّارَيْنِ قَدْ بَلَغَ الْمُنَى (٥)

وتأتي في طليعة هذه المدارس ، المدرسة المنصورية بالقاهرة ، وقد « أنشأها هي والقبّة التي تجاهها ومانارستان ؛ الملك المنصور قلاوون ، ورتب لها دروساً أربعة ودروساً للطب ، ورتب بالقبّة درساً للحديث النبوي ، ودروساً لتفسير القرآن الكريم . وكانت هذه التداريس لا يلبث الا أجل الفقهاء المعتبرين . . وفي القبّة خزانة جليّة كان فيها عدة أحمال من الكتب في أنواع العلوم (٦) » .

— كما أن إنشاء هذه المدارس لم يكن قاصراً على الأحياء منهم ، إذا أن « الملك الصالح عماد الدين ابن محمد بن قلاوون قصد عمارة مدرسة ، فاخترته المنية دون

(١) ج خانقاه ، يبنى للمتصوفة .

(٢) ج رباط ، يبنى ويوقف للفقراء

(٣) ج زاوية ، يخصص للعبادة والانقطاع

(٤) البيمارستان : فارسي مركب يعني المستشفى

(٥) خطط المقرئزي ٤ / ٢١٧

(٦) المصدر السابق

بلوغ غرضه ، فقام الأمير أرغون العلاني زوج أمه ، في وقف قرية تعرف بدهمشا الحمام ، ورتب ما كان الملك الصالح اسماعيل قرره في حياته لو أنشأ مدرسة ، وجعل ذلك مرتباً لمن يقوم به في القبسة المنصورية ، وهو وقف جليل ، يتحصل منه في كل سنة نحو أربعة آلاف دينار ذهباً . وكان لا يلي تدريس دروسه الا قضاة القضاة (١) .

— ولم تكن نساء الممالك كذلك بعيدات عن ميدان المدارس ورعاية أهلها . فهذه المدرسة الحجازية ، وقد أنشأها الست الجليلة الكبرى خوند ، زوجة الأمير بكتمر الحجازي سنة ٧٦١ . وجعلت بها درساً للفقهاء الشافعية ، ودرساً للفقهاء المالكية ، ورتبت لها إماماً يقيم بالناس الصلوات الخمس ، وجعلت بها خزانة كتب . فيه بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها ، وجعلت بجوار المدرسة مكتباً للسبيل ، فيه عدة من أيتام المسلمين ، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن ، ويجري عليهم في كل يوم لكل منهم من الخبز النقي خمسة أرغفة ومبلغ مـن الفلوس ، ويقام لكل منهم بكسوتي الشتاء والصيف . . وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة ، يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية . وكان لا يلي نظر بهذه المدرسة الا الأمراء الأكبر (٢) . . .

وقد بلغ الدافع الديني عند بعضهم حداً ؛ جعله يتهيب النظر في حساب التكاليف ، فعندما فرغ الأمير علاء الدين طيرس من بناء المدرسة التي أنشأها سنة ٧٠٩ ، وقد تأتق في رخامها وتذهب سقوفها « احضر إليه مباشرة حساب مصروفها ، فلما فُدم اليه استدعى بطشت فيه ماء ، وغسل أوراق الحساب بأسرها ،

(١) خطط المقرئزي ٢١٧ / ٤

(٢) المصدر السابق

من غير أن يقف على شيء منها وقال : شيء خرجنا عنه الله تعالى لا نحاسب عليه (١) «  
أما الأمير اقبغا عبد الواحد فإنه أراد أن ينفي عن نفسه أنه يوقف المدرسة ليؤول  
نفعها الى أبنائه - إذ أنه من ممالك الناصر بن قلاوون ، ويحق لسيدته وراثته دون  
أبنائه - فعمد حين انتهى من انشاء المدرسة الى « جعل النظر للقاضي الشافعي بديار  
مصر ، وشرط في كتاب وقفه أن لا يلي النظر أحد من ذريته (٢) »

ولكن هذه حالة فردية نادرة ، ويبقى من أسباب تسميرهم لبناء المدارس  
والتوقيف عليها ؛ تأمين أبنائهم خوفاً عليهم من عادات السلطان من بعدهم .

وعندما يكتمل بناء المدرسة تحتفل الدولة بافتتاحها ، فحين انتهى انشاء المدرسة  
الصرغتمشية سنة ٧٥٧ « ركب الأمير صرغتمش ، وحضر اليه الأمير مدير الدولة .  
والأمير صاحب الحجاب ، والأمير الدوادار وعامة أمراء الدولة ، وقضاة القضاة  
الأربعة ومشايخ العلم ، ورتب مدرس الفقه بها قوام الدين ، فألقى القوام المدرس ،  
ثم مد سماط جليل بالهمة الملوكية ، وملئت البركة التي بها سكرتراً قد أذيب بالماء .  
فأكل الناس وشربوا وابتاع ما بقي من ذلك للعامة . وقال أدباء العصر فيها شعراً (٣) »

فلامراء في أن مثل هذا الاحتفال ينشر ذكر الواقف ، ويرفع من اسمه  
في أوساط العلماء والعامة ، مما يشجع الآخرين على احتدائه .

وقد يبلغ الحرص ببعضهم لتكون مدرسته تامة الفائدة ، فيعمد الى تحديد  
بعض الشروط . من ذلك ما فعله « بهاء الشيخ نجم الدين البادراني سنة ٦٥٥ وقد ابنتي  
بدمشق مدرسة حسنة ، وشرط على المقيم بها العزوبة . وان لا يكون الفقيه في

---

(١) خطط المقرئزي ٢٢٣ / ٤ وما بعدها

(٢) « « ٢٢٥ / ٤

(٣) « « ٢٥٦ / ٤



غيرها من المدارس . وإنما أراد بذلك توفر خاطر الفقيه وجمعه على طلب العلم<sup>(١)</sup> .  
ولم يكن تشجيع الممالك يتوقف عند فتح المدارس . بل سيكون ذلك  
بتكريمهم العلماء والسماح عليهم . كما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٠ ،  
فقد « سمع على الشيخ شهاب الدين الحجار ، وخلع عليه وألبسه الخلعة بيده<sup>(٢)</sup> » .

كما أن دولة الشعر لم تزل مفرعة الأعلام ، وألسنة الشعراء تحركها الجوائز  
السنية يمنحها لهم الأمراء . كما وقع في حفل افتتاح المدرسة الصرغتمشية سنة ٧٥٦ ،  
فقد « خلع الأمير على القوام خلعة سنية ، وأركبه بغلة رائعة . وأجازه بعشرة  
آلاف درهم على أبيات مدحه بها وهي<sup>(٣)</sup> » .

ثم كانت عناية الممالك باقامة المارستانات ، تضيف الى ما سلف تدريس الطب ،  
والعناية بالصحة العامة . ويأتي في طليعتها المارستان المنصوري . « وكان سبب بنائه ؛  
أن الملك المنصور لما توجه وهو أمير الى غزاة الروم ، في أيام الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ ،  
أصابه بدمشق قولنج عظيم ، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين  
الشهيد ، فبرأ وركب حتى شاهد المارستان فأعجب به ، وندر إن آتاه الله الملك  
أن يبني مارستاناً . فلما تسلطن أخذ في عمل ذلك<sup>(٤)</sup> » .

« وقد رتب فيه العقاقير والأطباء ، وسائر ما يحتاج اليه من به مرض من  
الأمراض ، وفرشها بجميع الفرش المحتاج اليها من المرض ، وجعل فيه فراشين من  
الرجال والنساء لخدمة المرضى ، وقرر لهم المعاليم ونصب الأسرة للمرضى . . وافرد  
لكل طائفة من المرضى موضعاً . . وجعل الماء يجري في جميع هذه الأماكن ، .

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ١٩٦ سنة ٦٥٥

(٢) « « ١٥٠ / ١٣

(٣) خطط المقرئ ٤ / ٢٥٦

(٤) « « ٢٦٠ / ٤

وأفرد مكاناً لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ، ومكاناً لتركيب المعاجين والاكحال والشيافات ونحوها . . ومكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لالقاء درس الطب . ولم يحص عدة المرضى ، بل جعله سبيلاً لكل من يرد عليه من غني أو فقير ، ولا حدد مدةً لإقامة المريض به ؛ بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج إليه . كما جعل فيه أقساماً خاصة بالنساء . . وجعل النظر لنفسه أيام حياته ، ثم من بعده لأولاده ، ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي . . فبلغ مصروف الشراب منه في كل يوم خمسمائة رطل سوى السكر .

« ولما نجزت العمارة سنة ٦٨٣ وقف عليها الملك المنصور من الأملاك بديار مصر وغيرها ، ما يقارب ألف ألف درهم في كل سنة ، رتب مصاريف المدارس والقبعة والمدرسة ومكتب الأيتام وبما قاله فيه شرف الدين البوصيري .

### مدينة علم والمدارس حولها قرى أو نجوم بدرهن منير<sup>(١)</sup>

أما بناء الممالك للمساجد فشيء كثير ، ولم تكن مقصورة على العبادة فحسب بل كانت تعقد فيها حلقات العلم على أنواعه ، وبخاصة الجامع الأزهر الذي أولاه الممالك عناية خاصة ، فأصلحوه أربع مرات . اهتم بأمره فيها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ ، والأمير رسلان سنة ٧٠٢ إثر زلزال أثر فيه ، فنجم الدين بن علي الإسعدي محتسب القاهرة سنة ٧٢٥ ، ثم الأمير سعد الدين الجامدار سنة ٧٦١ وكان يسكن قريباً منه ، فأراد أن يحسن الجوار إليه فأستأذن في ادخال ما يصلحه .

وقد كانت مدارسهم جوامع تقام فيها الصلوات ويتلى في أكثرها القرآن الكريم ليلاً ونهاراً شأن المدرسة الحجازية<sup>(٢)</sup> .

كما ابنتى الممالك الخواتم للصوفية ، وقد زاد عددها على العشرين ، وكان من

(١) خطط المقرئزي ٢٥٩ / ٤

(٢) « « ٢٢٣ / ٤

أشهرها خانقاه سرياقوس التي « أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ..  
 وجعل فيها مئة خلوة لمئة صوفي ، وبني بجانبها مسجداً تقام به الجمعة ، وبني بها  
 حماماً ومطبخاً وكمل البناء سنة ٧٣٥ .. كانت معالم هذا الخانقاه من أسنى معلوم  
 بديار مصر . يصرف لكل صوفي في اليوم من لحم الضأن رطل قد طبخ في طعم  
 شهى ، ومن الخبز النقي أربعة أرطال ، ويصرف له في كل شهر مبلغ أربعين  
 درهماً فضه ، ورطل حلوى ، ورطلان زيتاً من زيت الزيتون ، ومثلاً ذلك من  
 الصابون ، ويصرف له ثمن كسوة في كل سنة ، وتوسعة في كل شهر رمضان وفي  
 العيدين .. وبها الطبائعي والجراحي والكحال ومصالح الشعر .. فكان المنقطع بها  
 لا يحتاج الى شيء غيرها ، ويتفرغ للعبادة ومما قيل في الخانقاه وما أنشأه السلطان بها :

سِرْ نَحْوَ سِرِّياقوسَ وانزِلْ بِفِنَا      أَرْجائِها يا ذا النُهَى والرُّشْدِ  
 تَلَقَّ مَحَلًّا للسرورِ والهنّا      فيه مُقامٌ للتقى والزُّهدِ  
 نَسِيمُهُ يقولُ في مَسِيرِهِ      تَذَبَّهِي يا عَذَبَاتِ الرِّندِ  
 ورَوْضُهُ الرِّياتُ من خَلِيجِهِ      يقولُ دَعْ ذَكَرَ أراضِي نَجْدِ<sup>(١)</sup>

وذكر المقرئ في سبب إنشاء السلطان لهذه الخانقاه ، أنه كان راكباً للصيد  
 « فأخذته ألم عظيم في جوفه كاد يأتي عليه ، وهو يتجدد ويكتم ما به حتى عجز ،  
 فقل عن الفرس والألم يتزايد به ، فندرت الله إن عافاه الله لَيْبَسِينَ في هذا الموضع  
 موضعاً يعبد الله تعالى فيه ، فخفف عنه ما يجده وركب ، ففقد نهمته من الصيد  
 ( ثم عاد بعد أيام ) ومعه عدة من المهندسين واختط هذه الخانقاه .. »

كما أقام المماليك الربط والزوايا ، واعتنوا ببناء المساجد ، التي لا يزال أكثرها  
 قائماً في دمشق والقاهرة وغيرهما ، يشهد بطول باعهم في هذا الميدان .

(١) مخطوط المقرئ ٤ / ٢٨٤ وما بعدها

أما التعليم ، فلم يكن مقصوراً على المدارس ، بل كانت تعقد حلقات للتدريس في المساجد أو في بيوت العلماء أنفسهم . وكان بعض الشيوخ يجمع بين المدارس والحلقات معاً شأن « الشيخ ركن الدين أبي يحيى زكريا بن يوسف البجلي الشافعي مدرس الطيبة والأسدية ، وله حلقة للاشتغال بالجامع ، يحضر بها عنده الطلبة <sup>(١)</sup> » .

وزاد اهتمام الناس بالعلم وتحصيله ، وشاع في المجتمع أمثال أبيات ابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ ناصحاً ولده بقوله :

أَطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ فَمَا      أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ  
وَاحْتَفِلْ بِالْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَلَا      تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلِ  
جَمِّلِ الْمَنْطِقَ بِالنَّحْوِ فَمَنْ      يُحْرَمِ الْإِعْرَابَ بِالنُّطْقِ اخْتَبِلْ  
أَنْظِمِ الشِّعْرَ وَلَا زِمِ مَذْهَبِي      فِي أَطْرَاحِ الرِّفْدِ لَا تَبْغِ النَّحْلُ  
فَهُوَ عَنَوَانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا      أَحْسَنَ الشِّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَدَلْ

كما كان العلماء على درجات ، أعلاها ما اقترن بالرحلة في طلب العلم ، وكان يذكر له ذلك . فابن كثير يخبرنا عن « الشيخ الامام العالم بقية السلف رضي الدين الطبري المكي الشافعي إمام المقام أكثر من خمسين سنة ، سمع الحديث من شيوخ بلده والواردين اليها ، ولم يكن له رحلة <sup>(٢)</sup> » ، كما ينقل اليها صورة واحد من مجالس العلم والأدب ، مما كان يعقد في منزل أحد رجاله وذلك سنة ٧٦٣ فيقول : « دعيت الى بستان الشيخ العلامة كمال الدين بن الشريشي شيخ الشافعية ، وحضر جماعة من الأعيان ، منهم الشيخ العلامة شمس الدين بن الموصل الشافعي ، والشيخ الامام

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٠٣ / سنة ٧٢٢

(٢) المصدر السابق

صلاح الدين الصفدي وكيل بيت المال ، والشيخ الامام العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي من أئمة اللغوين ، والخطيب الامام العلامة صدر الدين بن العز الحنفي أحد البلغاء الفضلاء ، والشيخ الامام العلامة نور الدين علي الصارم أحد القراء المحدثين البلغاء ، وأحضروا نيفاً وأربعين مجلداً من كتاب (المنتهى في اللغة) للتميمي البرمكي وقف الناصرية ، وحضر ولد الشيخ كمال الدين بن الشريشي ، وهو العلامة بدر الدين محمد واجتمعنا كلنا عليه ، وأخذ كل منا مجلداً بيده من تلك المجلدات ، ثم أخذنا نسأله عن بيوت الشعر المستشهد بها ، فينثر كلاً منها ويتكلم عليه بكلام مبين مفيد . فجزم الحاضرون والسامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة ، ولا يشذ عنه منها الا القليل الشاذ . وهذا من أعجب العجائب وأبلغ الأغراب (١) .

ولقد كان من مظاهر تشجيع الممالك للعلم والأدب وأهلها ، عنايتهم بديوان الانشاء وحسن اختيار القائمين عليه ، حتى إن ناظر الديوان كان يخضع لاختيار السلطان نفسه بما يجب أن يجتمع له من صفات العلم والموهبة الأدبية ، والتدين وحسن السيرة ، نظراً لأهمية منصبه ، واطلاعه على أسرار الدولة والسلطان . اذا كان لقب كاتب السر (٢) أحد ألقاب ناظر الديوان هذا ، وقد مر بنا ما كان من « محمد بن محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب الأسرار في الدولة المنصورية . . اذ طلب منه (الوزير) ابن السلعوس أن يقرأ عليه كل ما يكتبه فقال : هذا لا يمكن ، فان أسرار الملوك لا يطالع عليها غيرهم ، وأبصروا لكم غيري يكون معكم بهذه المثابة . فلما بلغ الأشرف ، أعجبه منه وازدادت عنده منزلته (٣) . »

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٩٥ سنة ٧٦٣

(٢) خطط المقرئ ٣ / ٣٦٧

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٣٣٩ سنة ٩٩١



وهكذا بلغ كاتب السر منزلة عظيمة في دولة المماليك « وصار إليه التحدث في مجلس السلطان عند عقد المشورة ، وعند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم ، وله التوسط بين الأمراء والسلطان فيما يندب إليه عند الاختلاف أو التدبير ، وإليه ترجع أمور القضاة ومشايخ العلم ونحوهم في سائر المملكة مصرأ وشامأ ، فيُضي من أمورهم ما أحب ، ويشاور السلطان فيما لا بد من مشاورته فيه (١) » .

لذلك تنافس على هذا المنصب كبار الكتاب ، وعمل للوصول الى هذه المرحلة كل أحد من ذوي الطموح ، فكان ذلك مدعاة للتوسع في التزود والتحصيل .

وفي ( صبح الأعشى ) يعدد القلقشندي ، ما يجب أن يعرفه صاحب ديوان الانشاء أو الكاتب فيه ، وهو شيء يستدعي من الطالب جهداً كبيراً ، وسعيأ حثيثاً ، ليؤهل نفسه لذلك المنصب ، ويُعد الذين تسلموا هذا المنصب أعلاماً في الكتابة والأدب . فمنهم : ابن فضل الله العمري ، والقلقشندي ، وضياء الدين بن الأثير ، وصلاح الدين الصفدي ، وعز الدين بن أبي الحديد . . . والمقريري ؛ الذي يقول عن نفسه عند ذكره قاعة ديوان الانشاء « وأنا جلست بها عند القاضي بدد الدين محمد بن فضل الله العمري ، أيام مباشرتي التوقيع السلطاني الى نحو سنة ٧٧٠ (٢) » .

ويكمل صورة العصر العلمية ، ما نتج فيه من المؤلفات الغزيرة ، فقد كان على اضطرابه السياسي كثير النتاج التألفي . ولمع فيه مؤلفون بلغت مؤلفاتهم المئين من الكتب ، وأقرب مثال لذلك أديبنا صلاح الصفدي ، فقد كان غزير التأليف لا يفتر عنه .

أما ما يتعلق بمخزائن الكتب ، فقد كانت كثيرة وغنية ، وحسبنا أن نقول : إن كل مدرسة ومسجد ومارستان . . . وغير ذلك مما أنشأه المماليك ، كانت تلحق به

(١) خطط المقريري ٤ / ٣٦٧

(٢) خطط المقريري ٣ / ٣٦٦

خزانة عامرة تضم الأحمال من الكتب النفيسة ، والمصنفات النافعة ، في كل فن ومطلب . هذا سوى المكتبات في بيوت العلماء والادباء وغيرهم من المشتغلين .

هذه بالاجمال صورة دالة عن الحالة الثقافية في دولة المماليك :

اهتمام بالتحصيل العلمي ، عناية بالمدارس وإنشائها ، واقامة للمساجد والخوانق والربط والزوايا للعبادة والتدريس ، ثم إنشاء للمارستانات ليكون منها كل الخير للمواطنين والعلم على السواء .

وقد سار المماليك في هذا الشوط حتى النهاية ، فلم يبخلوا بمال أو يرضوا بنفقة ، حتى غدا عصرهم - بغض النظر عن الاسباب الدافعة لهم - درة في جبين الثقافة الاسلامية ، بما كان فيه من البذل والتشجيع ، وانتشار العلم ووزارة التأليف .

★ ★ ★

## الفصل الثاني

### حياة الصلاح الصفدي وآثاره

#### صلاح الدين الصفدي

هو خليل بن الأمير عز الدين أيك بن عبد الله الألبكي الصفدي ، صلاح الدين أبو الصفاء<sup>(١)</sup> . كان والده من أمراء المماليك ، وولد له خليل في صفة سنة ٦٩٦ هـ ، ونشأ نشأة عربية خالصة ، نظير غيره من أبناء المماليك ، وتمتع برغد العيش في ظل أبيه ، فوجدت مواهبه مجالها الفسيح لتتفتح وتعبّر عن ذاتها ، فبدأ ميله الى بعض الفنون « وتعانى صناعة الرسم فمهر فيها ، ثم حجب إليه الأدب فولع به ، وكتب الخط الجيد ، وشارك في الفنون<sup>(٢)</sup> » .

« وذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى عشرين سنة ، فطلب بنفسه ، وقال الشعر الحسن ، ثم أكثر جداً من النظم والنثر والترسل والتواقيع<sup>(٣)</sup> » .

فقد هياه ولوعه بالرسم وتعلقه به ؛ لأن يكون خطاطاً بارعاً ، كما أطلق هذا

---

(١) النجوم الزاهرة ١١ / ١٩ .

(٢) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧ .

(٣) المصدر السابق . والبدر الطالع ١ / ٢٤٣ .

الولوع خياله وأغناه لي جيد التعبير بالتصوير في الشعر والنثر ، وهو في الشعر وسيلته الأصيلة .

وهكذا بدت طريق صلاح الدين واضحة متميزة ، مما سيظهر أثره كذلك واضحاً متميزاً ، في تحصيله واهتمامه وتآليفه .

لم يجد الصفدي في علماء بلده ما يرضي مواهبه ويشبع نهمه ، وكانت له همة عالية في التحصيل <sup>(١)</sup> « فرحل إلى دمشق يقرأ على علمائها ، وكانوا من أجل الرجال . فأخذ الأدب عن شهاب الدين محمود <sup>(٢)</sup> ولازمه ، وعن ابن نباتة الشاعر <sup>(٣)</sup> ، كما لازم فتح الدين بن سيد الناس <sup>(٤)</sup> ، وأخذ عنه المغازي والسير ، وأخذ النحو عن أبي حيان النحوي <sup>(٥)</sup> ، وأما عن القاضي بدر الدين بن جماعة <sup>(٦)</sup> ، فقد أخذ الفقه على المذهب الشافعي ، وأخذ عن الحافظ المزني <sup>(٧)</sup> وقرأ على الشيخ تقي الدين السبكي <sup>(٨)</sup> ، كما أخذ التاريخ عن أبي عبد الله الذهبي <sup>(٩)</sup> ، حتى برع في الأدب نظماً ونثراً وكتابة وجمعاً . وقد أثر اهتمامه البالغ بالأدب وتحصيله وما يتصل به بسبب ؛ على تحصيله لبقية العلوم ، والتي لم تجد كذلك هوى من نفسه ، فكانت

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٦ / ٩٤

(٢) شهاب الدين محمود بن سليمان . متوفى بدمشق سنة ٥٧٢٥ هـ : انظر الدرر الكامنة ٤ / ٣٢٤

(٣) ابن نباتة الشاعر محمد بن محمد . متوفى بمصر سنة ٧٦٨ هـ المصدر السابق ٤ / ٣٣٩

(٤) فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى محمد بن محمد . متوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤ هـ . انظر

الوافي بالوفيات ١ / ٢٨٩

(٥) أبو حيان النحوي محمد بن يوسف الأندلسي أثير الدين . متوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ .

شذرات الذهب ٦ / ١٤٥

(٦) بدر الدين بن جماعة محمد بن إبراهيم . متوفى بمصر سنة ٧٣٣ هـ . البداية والنهاية ١٤ / ١٦٣

(٧) الحافظ المزني يوسف بن عبد الرحمن . متوفى بدمشق سنة ٧٤٢ هـ . مفتاح السعادة ٢ / ٢٢٤

(٨) تقي الدين السبكي علي بن عبد الكافي . توفى بالقاهرة سنة ٧٥٦ هـ . طبقات الشافعية ٦ / ١٤٦

(٩) أبو عبد الله شمس الدين الذهبي محمد بن أحمد . توفى بدمشق سنة ٧٤٨ هـ . المصدر السابق ٥ / ٢١٦

أدرك سوء تأثيرها في خيال الأديب ، وفي تعبيره الشعري « فقرأ يسيراً من الفقه والأصلين<sup>(١)</sup> » ، وكذلك « قرأ بنفسه شيئاً من الحديث<sup>(٢)</sup> » ، حتى قال فيه صديقه تاج الدين السبكي « ما صنف كتاباً إلا وسألني فيه عما يحتاج إليه ، من فقه وحديث وأصول ونحو<sup>(٣)</sup> » ، بينما يقول تاج الدين نفسه في مكان آخر « وربما وقع لي شعور كيك من نظم الصبيان فكتبه هو عني إذ ذاك ، وبه رغبت في الأدب<sup>(٤)</sup> » . وقد أجمع شيوخه على تقديره والإعجاب به ، حتى إن بعضهم سمع عنه ؛ أمثال « الذهبي وابن كثير والحسيني وغيرهم<sup>(٥)</sup> » .

وقد ذكره شيخه الذهبي في « المعجم المختص » فقال فيه : « الإمام العالم الأديب البليغ الأكمل ، شارك في الفضائل ، وساد في علم الرسائل ، وجمع وصنف ، سمع مني وسمعت منه وله تأليف .. والله يمه بتوفيقه<sup>(٦)</sup> » .

كما اعترفوا بموهبته في الأدب والنقد ؛ منذ أن كان يقرأ عليهم . يقول الصفدي في معرض حديثه عن شيخه ابن سيد الناس « وكتبت له استدعاءً إجازته لي ، بما صورته بعد الحمدلة والصلاة ... ( فكان بما أجابه به الشيخ ) : وأذنت لك في إصلاح ما تعثر عليه من الزلل والوهم ، والحلل الصادر عن غفلة اعترت النقل أو وهلة اعترضت الفهم ، فيما صدر عن قريحتي القريجة من النثر والنظم ، وفيما تراه

---

(١) مفتاح السعادة ٢١٠ / ١

(٢) الدرر الكامنة ٨٧ / ٢

(٣) طبقات الشافعية ٩٤ / ٦

(٤) المصدر السابق

(٥) الدرر الكامنة ٨٧ / ٢

(٦) شذرات الذهب ٢٠١ / ٦



من استبدال لفظ بغيره ، مما لعله أنجى من المرهوب ، أو أنجع في نيل المطلوب ، أو أجرى في سنن الفصاحة على الأسلوب (١) .

وقد شعر الصفدي في أخريات عمره ؛ بوجوب إتقان الجانب العلمي من ثقافته ، وقد كانت هذه العلوم أساماً لا يكون المتعلم بدونها « فسمع بالأخرة من جماعة ، وقرأ على الشيخ الإمام جميع (شفاء السقام في زيارة خير الأنام) . . ولما أخرجت مختصري في الأصلين المسمى « جمع الجوامع » كتبه بخطه ، وصار يحضر الحلقة ، وهو يقرأ عليّ ، ويلذ له التقرير ، وسمعه كله عليّ ، وربما شارك في فهم البعض منه . رحمه الله تعالى (٢) .

### نشاطه الأدبي :

وقد كان من أنشط أدباء عصره ، كتب الكثير في التاريخ واللغة والأدب « وله الأشعار الفائقة والفنون المتنوعة (٣) » ومن قوله : « وكتبت أزيد من ستائة مجلد تصنيفاً (٤) » « ولعل الذي كتبه في الإنشاء ضعفاً ذلك (٥) » . كما أنه كثير الشعر غزيره ، وهو مبثوث في ثنايا كتبه ، « وقد أودع منه في شرح لامية العجم وغيرها ما يعرف به مقداره (٦) » « وديوان شعره مشهور بأيدي الناس وهو من المكثرين (٧) » .

---

(١) الوابي بالوفيات ٢٨٩ / ١

(٢) طبقات الشافعية ٩٤ / ٦

(٣) البداية والنهاية ٣٠٣ / ١٤

(٤) مفتاح السعادة ٢١٠ / ١

(٥) الدرر الكامنة ٨٧ / ٢

(٦) البدر الطالع ٢٤٣ / ١

(٧) النجوم الزاهرة ١٩ / ١١

## مؤلفاته :

وتبعاً لما عرف به الصفدي من نشاط علمي ، وغزارة في الشعر ، فقد كثرت نتيجة لذلك كتبه ، فعُد « في باب التأليف من المكثرين المجودين (١) » حتى قال ابن كثير بأنه « كَتَبَ ما يقارب مائتين من المجلدات (٢) » أما الزركلي فقد ذكّر بأنه « كثير التصانيف الممتعة له زهاء مائتي مصنف (٣) » . ويتقدم ابن العماد الحنبلي ليقول : « وقفت على ترجمة كتبها الصفدي لنفسه نحو كراسين ، ذكر فيها أحواله ومشائخه وأسماء مصنفاته ، وهي نحو الحسين مصنفاً ، منها ما أكمله ومنها ما لم يكمله (٤) » ، هذا ما قيل ، أما ما وصل إلينا فلم يزد على خمسة وأربعين ، اعتمدت في معرفتها على كتاب بروكلمان في « تاريخ الأدب العربي » مضيفاً إلى قائمته ما لم يصل إليه خبره ، بما ورد عند غيره . وهاك ثبثاً أجدياً بكتبه هذه :

( ١ ) - أعيان العصر وأعوان النصر : جعله لتراجم مشاهير القرن الثامن الهجري إلى أيامه ، من الرجال والنساء ، في ستة مجلدات . وقد أشار غالبٌ من ترجم للصفدي ، إلى أنه أفرد هذا الكتاب من كتابه « الوافي بالوفيات (٥) » ولا يزال الكتاب مخطوطاً ، وقد ورد في كلٍ من : طبقات الشافعية ٩٦/٦ والدرر الكامنة ٨٧/٢ باسم « أعوان النصر في أعيان العصر » والنجوم الزاهرة ١٩/١١ والأعلام ٣٦٤/٢ والبدر الطالع ٢٤٣/١ وعند بروكلمان GAL II 32 و SII 28 برلين ٩٨٦٤ / ٩٨٦٥ - القاهرة ( ثاني ) ٣٥/٥ وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة تاريخ ١٠٩١ - ١٠٩٤ .

(١) كنوز الأجداد ٣٨٠

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٣٠٣

(٣) الأعلام ٢ / ٣٦٤

(٤) شذرات الذهب ٦ / ٢٠١

(٥) انظر البدر الطالع ١ / ٢٤٣ والدرر الكامنة ٢ / ٨٧

( ٢ ) - اختراع الخواص : وهو شرح مفصل لأشعار مع تعليقات في علوم اللغة والعروض ، ولم يرد إلا عند بروكلمان SII 29 و GAL II 33 ليدن ٣٢١ .

( ٣ ) - الأرب من غيث الأدب : ولم يرد إلا في فهرس الخزانة التيمورية ١٧٧/٣ دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٨ وقد عثرت على نسخة مطبوعة ، في مكتبة معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ( ب ١ - ١٩٦ ) بالمطبعة العثمانية سنة ١٨٩٧ ، ويغلب على الظن أنه مقتطفات من كتاب الصفدي . بينما أشار صاحب معجم المؤلفين ١١٤/٤ إلى أن كتاب ( الأرب من غيث الأدب ) هو نفسه ( الغيث المسجم ) ويؤكد هذا محتويات كتاب الأرب المشار إليه . كما أن في دار الكتب الظاهرية بدمشق نسخة خطية باسم ( غيث الأدب المسجم في شرح لامية العجم ) « شعر ٢ » وفي هدية العارفين ٣٥١/١ ، فهل هو المقصود في معجم المؤلفين ؟ .

( ٤ ) - ألحان السواجم من المبادي والمراجع : مجلدان وهو رسالته الى بعض معاصريه . مخطوط ، وقد ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢ والبدر الطالع ٢٤٣/١ والأعلام ٣١٤/٢ وعند بروكلمان SII 28 و GAL II 32 باسم : ألحان السواجم من النادي والراجع برلين ٨٦٣١ باريس ٢٠٦٧ والمتحف البريطاني ١٠١٦ وغير ذلك .

( ٥ ) - تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب : مخطوط ، وهو أرجوزة لكتاب ابن عساكر . وقد نشر صلاح الدين المنجد كتاباً للصفدي باسم ( أمراء دمشق في الاسلام ) أرجوزة ، لعاباً جزء من ( تحفة ذوي الألباب ) وأورده بروكلمان SII 28 و GAL II 32 باريس ٥٨٢٧ وغيرها .

( ٦ ) - التذكرة : وهو مطول في الأدب والشعر ، تقع في ثلاثين مجلداً ، مرتب حسب الموضوعات ، ويقسم إلى أبواب في أنواع الفضائل والريذائل ، وفيه

كثير من الفوائد التاريخية والاجتماعية ، وكثير أيضاً من تراجم الشعراء والأدباء .  
ومن المرجح أنه صنف التذكرة ليعود إليها عند الحاجة . يقول صديقه  
تاج الدين السبكي : « أعارني مرة من تذكركه مجلداً ، وكان يصنف كتاباً  
في الوصف والتشبيه وينظر عليه التذكرة ، ويكتب على كل مجلداً إذا نجز :  
نجز التشبيه منه (١) » .

كما ورد في الأعلام ٣٦٤/٢ . والكتاب مخطوط ، ذكره بروكلمان في GAL II 32  
وقال : بعض أجزاءها في جوتا ٢١٤٠ والمتحف البريطاني ٧٦٥ وغير ذلك .

(٧) - تصحيح التصحيف وتحوير التحريف : وهو مخطوط ، ورد في معجم  
المؤلفين ١١٤/٤ وفي هدية العارفين ٣٥١/١ وهناك نسخة منه في دار  
الكتب المصرية بالقاهرة المكتبة الزكية ٣٧ لغة (٢) .

(٨) - تشنيف السمع بانسكاب الدمع : وورد كذلك باسم : لذة السمع في صفات  
الدمع . جمع فيه ما قاله الشعراء في الدمع ووصفه ، فبدأ بالبكاء منذ  
قول امرئ القيس فيه ؛ حتى جرى كالأنهار وطمى كالبحور في عصره ،  
مع مقدمة حسنة في النقد . وهو مطبوع في القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .

(٩) - تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون (الجدية) : صدرها بترجمة مطوأة  
لابن زيدون ومراسلاته ، مع انتقادات شعرية ، ونوادير تاريخية ، عن الملوك  
والقواد يليه الشرح . وهو مطبوع .

(١٠) - توشيح الترشيح : وقد أورده ابن حجر في الدرر الكامنة ٨٧/٣ فحسب .

(١١) - جلاوة المذاكرة في خلاوة المحاضرة : وهو مخطوط في الحزاة التيمورية ،

---

(١) طبقات الشافعية ٦ / ٩٥

(٢) انظر ( لحن العامة والتطور اللغوي ) للدكتور رمضان عبد التواب ٢٦٨ - ٢٧٣

وصفه محمد كردعلي في مجلة المجمع ٣٨/١٦ ، ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢  
والأعلام ٣٦٤/٢ .

(١٢) - جر الذيل في وصف الخيل : وهو مخطوط ورد في : الدرر الكامنة ٨٧/٢  
والبدر الطالع ٢٤٣/١ .

(١٣) - جنات الجناس : طبع في استانبول سنة ١٢٩٩ هـ ومنه نسخة موجزة  
بعنوان (نزهة الخلاص في علم الجناس) مخطوط في برلين ٧٣٣٣ . انظر بروكلمان  
CALSI 29

(١٤) - الحمن الصريح في مائة مليمح : مجموعة أشعار في الغلمان ، وهو مخطوط ،  
منه نسخة في دار الكتب الظاهرية رقم عام ١٥٧ هـ وأورده بروكلمان في  
GAL II 22 المتحف البريطاني ١١١٢ وأيا صوفيا ٣١٧٧ .

(١٥) - حلي النواهد على ما في الصحاح من الشواهد : مفقود ذكره البغدادي في  
هدية العارفين ٣٥١/١ .

(١٦) - ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء : وهو منتخبات من الشعر والنثر ، ألفه  
للسلطان الأشرف الأيوبي ، وهو مخطوط ، ويشير بروكلمان الى أنه بخط  
المؤلف GAL II 32 في فينا ٣٨٩ .

(١٧) - الروض الناعم والثغر الباسم : وهو مخطوط ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢  
والأعلام ٣٦٤/٢ ويشير بروكلمان الى أن منه نسخة في الأسكوريال ١٨٤٨  
انظر GAL II 33 .

(١٨) - رصف الزلال في وصف الهلال : وهو مطبوع . ورد عند بروكلمان باسم  
(كشف الزلال) وعند زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (رشف الزلال) ،  
والرشف والرصف أكثر قبولاً . كما يشير بروكلمان GAL II 33 الى أن  
منه قصيدة الحصكفي في معاني كلمة الهلال . برلين ٧٠٦٤ .



(١٩) - وصف الرحيق في وصف الحريق : وهو مقامة لا يزال مخطوطاً . أورده بروكلمان بعنوان ( كشف الرحيق ) وزيدان ( رشف ) ، وكلاهما أقرب الى حسن الأداء من ( كشف ) في الاسكوريال ٥٦٣ . انظر بروكلمان GAL II 33

(٢٠) - رموز الشجرة النعمانية : وهو مخطوط . ذكر في هدية العارفين ٣٥١/١ وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق ورد باسم ( شرح الشجرة النعمانية ) رقم عام ٨٧٣١ و ٦٢٣٢ و ٧٣٣٠ .

(٢١) - الشعور بالعمور : كتاب في الأدب ، فيه تراجم العمور وأخبارهم ، وهو مخطوط . ذكره بروكلمان في GAL II 32 برلين ٩٨٦٧ منه نسخة في المكتبة الخالدية في ١٩٠ صفحة وصفها سامح الخالدي في الرسالة ( مصر ) ١٩٤٠/٨ : ١٤٠١ .

(٢٢) - صرف العين عن صرف العين في وصف العين : وهو مخطوط ورد في طبقات الشافعية ٩٦/٦ وهدية العارفين ٣٥١/١ وقال بروكلمان إن بعض أوراقه بخط الصفدي . انظر GAL II 33 في برلين ٣٨٠٦

(٢٣) - طوق الحمامة : مختصر شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ، وقد أورده بروكلمان في كتابه GAL II 33 .

(٢٤) - طود السبع عن سرد السبع . ورد في : هدية العارفين ٣٥١/١ وعند بروكلمان GAL II 29 في كوبروللي ١٣٣٧ .

(٢٥) - العرف الندي في شرح قصيدة ابن الوردي : مخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم عام ٥٨١٩ .

(٢٦) - عبرة اللبيب بعثرة الكئيب : وهو عند بروكلمان : عبرة اللبيب بمصرع الكئيب أو ( المقامة الأيبكية ) في كتابه GAL II 29 الفاتح ٤٠٢٧ .

- (٢٧) - الفيث المسجم في شرح لامية العجم : أثبت فيه تمكنه من علوم العربية ، وقد أورد فيه شيئاً من المجون ، وفيه فوائد تاريخية هامة . طبع في مجلدين .
- (٢٨) - غوامض الصحاح في اللغة : في هدية العارفين .
- (٢٩) - فض الختام عن التورية والاستخدام : مخطوط ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢ والبدر الطالع ٢٤٣/١ وعند بروكلمان في SII 29 ، GAL II 33 في الأسكوريال ٢١٩ وكوبروالي ١٣٥١ وغير ذلك . ومنه نسخة مصورة في معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية بلاغة ٤٨ .
- (٣٠) - قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة : مطبوع .
- (٣١) - القصيدة اللامية : عند بروكلمان GALSII 29 في برلين ٧٩٧٢ .
- (٣٢) - قصيدة تائية : ليزج ٤٧٥ في بروكلمان GALS II 29 .
- (٣٣) - قصيدة . برلين ٨٧٦٠ GAL II 33 .
- (٣٤) - كشف الحال في وصف الخال : مجموعة شعرية وهو مخطوط ورد في : الدرر الكامنة ٨٧/٢ والبدر الطالع ٢٤٣/١ وعند بروكلمان GAL II 33 في هافانا ٢٩٣ ومنه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم عام ٦٩٢٧ .
- (٣٥) - كشف السر المبهم في لزوم مالا يلزم : وهو مخطوط . منه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم ٧١٥١ .
- (٣٦) - الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه : وهو مخطوط . وورد بعنوان التنبيه على التشبيه في الدرر الكامنة ٨٧/٢ وبالعنوان : الوصف والتشبيه في طبقات الشافعية ٩٦/٦ .
- (٣٧) - لوعة الشاكي ودمعة الباكي : مطبوع . انظر سزكين ١٢١٢/٢ ومنه نسخة خطية في مخطوطات جامعة الرياض ، الرقم المتسلسل ٣٢٩ و الرقم العام ١٤٣٦ .

٣٨) - منشآت الصفدي : مجموعة مقالات ورسائل وتواقيع وتقارير رسمية . وهي عند بروكلمان GAL II 32 ، SII 28 . في القاهرة ( أول ) ٣٣٤/٤ وموشح جوتا ٢٦ GAL II 33 وفي مكتبة الحزب الوطني بالموصل ، وصفه الدكتور داود الحلبي في مجلة الجمع ١٥٠/٩ .

٣٩) - المنتقى من المجازاة والمجازاة : مخطوط . ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢ باسم المجازاة والمجازاة في ما جريات الشعراء . وهو عند بروكلمان GALS II 29 في طوب قبو سراي ٢٦١٧ .

٤٠) - المحاوراة الصلاحية في الاحاجي الاصطلاحية : بروكلمان GALS II 29 في الاسكوريال ٤٣٢ .

٤١) - نككت الهميان في نككت العميان : تراجم فضلاء العميان وأخبارهم . وهو منسق ، ويتحلى بمقدمة حسنة في موضوعه . مطبوع .

٤٢) - نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهري من الوهم : في اللغة . وهو مخطوط ورد في هدية العارفين ٣٥١/١ .

٤٣) - نجد الفلاح في مختصر الصحاح : وهو مخطوط في اللغة أيضاً ، ورد في هدية العارفين ٣٥١/١ .

٤٤) - نصررة الثائر على المثل السائر . مطبوع بتحقيق المؤلف .

٤٥) - الهول المعجب في القول الموجب : عند بروكلمان GALS II 29 في القاهرة ( ثاني ) ٢٢٨/٢ .

٤٦) - الوافي بالوفيات : ولعله أكبر المعاجم التاريخية المعروفة من نوعه « جمع فيه تراجم الأعيان ، ونجباء الزمان ، ممن وقع عليه اختياره . فلا يغادر أحداً من أعيان الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والعلماء والقراء والمحدثين والفقهاء والمشايخ والصلحاء والأولياء والنحاة والأدباء والشعراء

والأطباء والحكماء وأصحاب النحل والبدع والآراء وأعيان كل فن ؛ ممن  
اشتهر أو أتقن إلا ذكره :

« وذكر كل من فتح فتحاً يسره ، أو خيراً قرره ، أو جوداً أرسله ، أو  
رأياً أعمله ، أو حسنة أسداها ، أو سيئة أبداها ، أو بدعة سنّها وزخرفها ،  
أو كتاباً وضعه ، أو تأليفاً جمعه ، أو شعراً نظمه ، أو ثراً أحكمه  
فازداد النفع به للمحدث والأديب <sup>(١)</sup> . »

دخل الكتاب في ثلاثين مجلداً <sup>(٢)</sup> وفيه نحو أربعة عشر ألف ترجمة ، وساعده  
على الظفر بالمواد اللازمة له تنقله في ربوع مصر والشام ، وخزائن الكتب  
يومئذ موفورة ، والملوك وأهل الخير من العلماء والأعيان بمدون المدارس  
والجوامع وغيرها بالكتب ، ويوقفونها لوجه الله ، سعياً إلى الخير لهم  
وللناس ، حتى استطاع أن يقدم لنا أعلام ثمانية قرون من رجال الإسلام .  
« ومقدمة هذا الكتاب العظيم من أمتع ما كتب مؤرخ ، تدل على سعة  
اطلاعه وسمو أدبه ، وعلى تدقيقه واستقصاءاته <sup>(٣)</sup> . »

« وقد طبعت هذه المقدمة في المجلة الآسيوية الفرنسية سنة ١٩١١ - ١٩١٢  
وتشرت في كتاب على حدة <sup>(٤)</sup> ، وقد افتتحه بن اسمه محمد ، فبدأ  
بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وثني بن اسمه محمد من الأعيان ، ثم عاد  
ففاق التراجم على حروف المعجم بأسلوب مرسل رقيق . ومن موجبات  
الأسف أن هذا الكتاب النفيس لا يوجد كاملاً في مكان واحد ، وربما

---

(١) انظر كشف الظنون ٢ / ٤١٠

(٢) معظمها مخطوط . وقد ذكرها بروكلمان في SII 28 ، GALII 32

(٣) كنوز الأجداد لمحمد كرد علي ٣٨٠ وما بعدها .

(٤) تاريخ الأدب العربي - زيدان ٣ / ١٧٤

لأ يتيسر جمع نسخة كاملة من الأجزاء المتفرقة في المكاتب التي بلغنا خبرها ،  
ولا يبعد وجود نسخة كاملة من هذا الكتاب في المكتبات الخاصة (١) .

هذا ما وصل إلينا من كتب الصفدي ، وهي ليست كل ما ألفه كما رأيت .  
وإن نظرة الى هذه المؤلفات وموضوعاتها ؛ تدلنا بوضوح على مدى ولوع الصفدي  
بالأدب شعوره وثره ، كتابةً ونظماً وشرحاً ونقداً ، إضافة الى إتقانه للتراجم وفن  
كتابتها ، من ذلك ما أورده في كتابه الوافي ، بعد أن أشار إلى أخذه ذلك عن  
قاضي القضاة تاج الدين السبكي . فقال :

« يشترط في المؤرخ الصدق ، وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن  
لا يكون ذلك الذي نقله أخذه في المذاكرة وكتبه بعد ذلك ، وأن يسمي المنقول  
عنه . فهذه شروط أربعة فيما ينقله .

« ويشترط فيه أيضاً لما يترجمه من عند نفسه ، ولما عساه يطول في التراجم  
من النقول ويقصر ؛ أن يكون عارفاً بحال صاحب الترجمة ؛ علماً ودينياً وغيرهما  
من الصفات ، وهذا عزيز جداً ، وأن يكون حسن العبارة عارفاً بدلولات الألفاظ ،  
وأن يكون حسن التصور ؛ حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ،  
ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه ، وأن لا يغلبه الهوى فيخيل إليه  
هواه الإطناب في مدح من يحبه ، والتقصير في غيره ، بل إما أن يكون مجرداً  
عن الهوى وهو عزيز ، وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ،  
ويسلك طريق الإنصاف . فهذه أربعة شروط أخرى ولك أن تجعلها خمسة ، لأن  
حسن تصوره وعلمه ؛ قد لا يحصل معها الاستحضار حين التصنيف ، فيجعل حضور  
التصور زائداً على حسن التصور والعلم .

---

(١) علمت أخيراً أن الكتاب كاملاً في طريقه الى الظهور في بيروت - المعهد الألماني  
للأبحاث الشرقية .



« فُهذه تسعة شروط في المؤرخ ، وأصعبها الاطلاع على حال الشخص في العلم ، فإنه يحتاج إلى المشاركة في علمه ، والقرب منه ، حتى يعرف مرقبته (١) .. »

وهكذا ؛ فقد أحسن الصفدي صنفاً حين نأى بموهبته وذاكرته عن التعمق في أبحاث المنطق والعلوم العقلية ، فطلبها يسيراً ، واندفع مع ميله الأدبي ينهل ويعمل ، فلقد كان هذا الإحساس بتأثير هذه العلوم يعيش في نفسه ، حتى غدا ملاحظة تجد لها في كل يوم دليلاً ، الى أن عبر عن هذه الفكرة فيما بعد في كتابه (الغيث المسجّم) حين قال : « وكل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون ، مال به الى ذلك الفن ، وغلبت عليه قواعده ، واستعمله في مقاصده الشعرية وتحليلات معانيه ، وظهر على ما يرومه اصطلاح ذلك الفن وأحكامه . »

« ألا ترى إلى أبي الفتح البستي ومقاطيعه المشهورة في الآداب والحكم ، كيف غلب عليها ألفاظ المنجمين . ! (٢) » .

وانطلق الصفدي مع رأيه هذا ، يغذيه بالأدلة والشواهد ، وقد حفل بها شعر عصره ، حتى أفنع قارئه بأنه غير متجن ولا متمحل فيما ذهب إليه . وبذلك صان الصفدي ذوقه ، ومنح مؤلفاته أصالة ترقى بها عن أن تكون مجرد نسخ وتصنيف ، بل إن وجوده فيها واضح بارز ، يخضعها لذوقه ، ويسبرها بحسه ، ويبدو وجوده وصائب نظراته بخاصة ، في مقدمات كتبه ، كما تتناثر في تضاعيفها .

كل هذا جعله مؤلفاً متمكناً ، يأتي في طليعة من كتب في الأدب والنقد في عصره . لذلك لا نغلو إذا عددناه ، مثلاً ممتازاً لما كان عليه فن الأدب في تلك الفترة من عمر الأدب العربي الوسيط ، كما تسحب هذه القيمة لكتبه إلى ما

---

(١) الوالي بالوليات ١ / ٤٦

(٢) الغيث المسجّم ١ / ١٢٤

ألفه في التراجم ، وخاصة في كتابه ( الوافي بالوفيات ) ، دعت العلامة كرينكو ليقول : « إننا نجد في كتاب الوافي تراجم كثيرة ، نحاول عبثاً الظفر بثلمها في الكتب التي تماثل الوافي بموضوعها . والفهرس التام لأسماء الأشخاص الذين وردت تراجمهم في الأجزاء المعروفة من هذا الكتاب ، يتألف منها مجلد ضخمة (١) . »

إضافة الى ما اتبعه الصفدي في ذكر الأسماء ، تسهياً للاقتداء الى ترجمتها في خضم هذا الكتاب الكبير ، يأتيانه في آخر ترجمة كل اسم بأسماء الذين اشتهروا بذلك الاسم ولهم أسماء أخرى ، فيشير الى أماكن تراجمهم من الكتاب ، وبأي اسم ترجم لهم فيه . وقد اقتبس الزركلي هذه الطريقة حديثاً وسلكها في ( أعلامه ) .

### أضرفه :

لم يجمع المؤرخون على أمر ، إجماعهم على الاشارة بما تحلى به الصفدي من خلق جميل ، وخصال حميدة ، فأحبه كل من عرفه .

فقد وصفه ابن حجر بأنه « كان محبباً الى الناس ، حسن المعاشرة ، جميل المودة - وأورد فيه قول الحسيني وهو أحد شيوخه بأنه - كان إليه المنتهى في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وأنه من بقايا الرؤساء الأخيار كما قال ابن سعد (٢) ، حتى إن تاج الدين السبكي وهو يصغره بثلاثين سنة ، شعر بصداقة تربطه بالصفدي ، حين كان يتردد الى والده تقي الدين ليأخذ عنه . » ولم يزل مصاحباً لي الى أن قضى نحبه » ودفعه حبه للصفدي الى أن يقدم له المساعدة لدى الحكام ؛ حين أضحى قاضياً ، ليأخذ مكانه في مناصب الدولة . كما كان من حسن خلقه أنه كان عطر

---

(١) كنوز الأجداد ص ٣٨٠

(٢) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧

السمعة طيب الذكر ، في كل ما تولاه من مناصب ، رغم ما كان يصيب أمثاله من المصادرة والافتراء .

وقد لمسنا جانباً من حسن خلقه في تواضعه العلمي ، حين عاد إلى تحصيل ما فاته من الفقه والأصول ، بعد أن كبرت سنه ، وأضحى له المقام المبجل المرموق في مجتمه ، فعاد ليقراً « على الشيخ الإمام جميع (شفاء السقام في زيارة خير الأنام) . وأكثر من هذا ؛ عودته ليحضر حلقة صديقه تاج الدين ، ويقراً عليه كتابه (جمع الجوامع) ويكتبه بخطه .

كما وصلت بينه وبين أصدقائه مكاتبات أدبية وودية ، يلفها الشوق والحنين كلما فرقت بينهم أسباب النوى . وقد ذكر تاج الدين في طبقاته طرفاً من هذه المكاتبات<sup>(١)</sup> وكم من مجلس علم وأدب ضمّه وأصدقائه من القضاة والأدباء ، يتداولون مسائل علمية أو أدبية بروح الود والمحبة . وقد نقل الينا ابن كثير جانباً من هذه المجالس سنة ٧٦٣ هـ فقال : « دعيت إلى بستان الشيخ العلامة كمال الدين الشريشي شيخ الشافعية . وحضر جماعة من الأعيان منهم الشيخ العلامة شمس الدين بن الموصلي الشافعي ، والشيخ الإمام العلامة صلاح الدين الصفدي وكيل بيت المال ، والشيخ .. وأحضروا نيفاً وأربعين مجلداً من كتاب (المنتهى في اللغة) للتميمي البرمكي وقف الناصرية ... (٢) .

كما كان من دلائل حبه للناس ، وابتعاده عما يسيء إليهم ؛ أنه في كل ما ترجم وأرخ لم يستهدف لغضب المترجم له ، ولا أثار حفائظ الملوك والأمراء ، ولم

---

(١) طبقات الشافعية ٦ / ٩٤

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦ سنة ٧٦٣ .

يكن ذلك على حساب الحقيقة ؛ بل لعدم اعتناؤه كثيراً بتاريخ السياسة ، أو تدوين وقائع الملوك .

ويبدو أن ما حمدناه فيه من لين العريكة وإيثاره محبة الناس ؛ سيترك للمجتمع تأثيراً واضحاً في أحكامه النقدية عند تصديه لذلك ، بما سيأتي في حينه إن شاء الله .

### أعماله :

كان أول عمل تولاه خليل بعد أن كملت أدواته ؛ هو كتابة الدرج في ديوان الإنشاء في صفد ، إذ أن ديوان الإنشاء ، كان يتألف من ناظر الديوان ويسمى كذلك كاتب السر ، وتحت كتاب الدست وعددهم أربعة ، ويسمون كذلك الموقعين ، لأنه يحق لأحدهم التوقيع على الكتب الواردة في غياب ناظر الديوان ، ويأتي بعد ذلك كتاب الدرج ويغلب أن يكونوا أربعة (١) .

ثم نقل الى القاهرة للعمل نفسه ؛ كاتباً للدرج في ديوان الإنشاء هناك ، ولكنه بطبيعة الحال وهو في حاضرة البلاد ، أسمى مكانة منه في أي مملكة من ممالك الدولة . ويبدو أن المقام طال به في القاهرة في عمله هذا ، الذي استمر به حتى حوالي سنة ٧٦٠ هـ وكان قد بلغ الصفدي الرابعة والستين من عمره .

وهنا يتقدم اليه صديقه الحميم تاج الدين السبكي ، وهو قاضي قضاة الشام ، ليحدثنا بقوله : « وقد ساعدته آخر عمره فولي كتابة الدست بدمشق ، ثم ساعدته

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٥

فولي كتابة السر (١) ، يتولى بعدها أبو الصفا كتابة السر أو ناظر ديوان الأثناء بالرحبة ، ثم يتقدم تاج الدين ليقول : « ثم ساعدته فحضر الى دمشق على وكالة بيت المال وكتابة الدست . . وكان لا يلي نظر بيت المال إلا من هو من ذوي العدالة المبرزة (٢) .

وهكذا تسلم الصفدي في نهاية عمره منصبين كبيرين من مناصب الدولة المدنية ، وكان ذلك قبل وفاته بعامين أي سنة ٥٧٦٢ هـ (٣) .

وثقل سمعه في آخر حياته « وكان قد تصدى للإفادة بالجامع ، وسمع منه من أشياخه الذهبي وابن كثير والحسيني وغيرهم (٤) » ، كما استمر قائماً على عمله الرسمي في منصبه المذكورين ، الى أن مات بالطاعون في دمشق ليلة عاشر شوال سنة ٥٧٦٤ هـ



---

(١) هو صاحب ديوان الانشاء ويسمى كذلك كاتب السر « ومتولي رتبة كتابة السر

أعظم أهل الدولة » خطط المقرئزي ٣ / ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٢) خطط المقرئزي ٣ / ٣٦٥

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٥

(٤) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧



## الفصل الثالث

### الخصومة حول « المثل السائر »

( ١ )

#### بين ابن أبي الحديد وابن الأثير

قام ابن الأثير بتأليف كتابه ( المثل السائر في أدب السالكين والشاعر ) بعد سنة ٦١٧ هجرية ، وذلك بعد استقراره في الموصل ، تعرض فيه لكل ما يتعلق بالأدب والأديب ، ونشر خلاله الشيء الكثير من إنشائه ، عارضاً إياه في كثير من الزهو والإعجاب بما يقول ، والأمثلة على ذلك لا تحصى كثرة ، فمن تعقيباته قوله بعد الإشادة بشرحه للأبيات « وهن من الحسن على غاية يكون كمد حودها من جملة شهودها<sup>(١)</sup> » . أو قوله في مكان آخر : « وفي هذا من الحسن ما لا خفاء به ، فمن شاء أن ينثر شعراً فليثر هكذا وإلا فليترك<sup>(٢)</sup> » .

أو قوله في مكان ثالث « وقد قال الشعراء في ذلك كثيراً ، الا أنني أنا تصرفت في هذا المعنى تصرفاً لم يتصرف فيه أحد غيري<sup>(٣)</sup> » وغير ذلك كثير .

---

(١) المثل السائر ١ / ١٣٥

(٢) المصدر السابق

(٣) « « ١ / ١٤١

كما كان يشير في بعض الأحيان الى أديب من أدباء العربية الكبار ، فإذا وضع يده - كما يرى - على مأخذ وجدده عند أحدهم ، أنحى عليه باللائمة ، وصب عليه ما شاء من ألفاظ التجريح والسخرية بما لا ضرورة له بحال .

فمن ذلك ما قاله في حق المعري عند الإشارة الى اعجابه بأبي الطيب ، وتسميته إياه بالشاعر وتسمية غيره باسمه . فقال ضياء الدين : « فياليت شعري ، أما وقف على هذا البيت المشار اليه ، لكن المهوى كما يقال أعمى ، وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة ، وأعمها عصبية ، فاجتمع له العمى من جهتين (١) » .

كما عارض القاضي الفاضل في رسائله ومكاتبته (٢) ليظهر تفوقه . وقد كانت شهرة الفاضل حينذاك فوق كل نقد أو تقليد .

واشتهر المثل السائر ، وذاع صيته ، وكثر الحديث حوله ، بما حدا بابن أبي الحديد الى التماس نسخة له ، وما أن وردت عليه في غرة ذي الحجة سنة ٦٣٣ حتى راحت عيناه تطويان سطوره وصفحاته ، وقلمه يندفع في الرد عليه ، حتى أتم ذلك في ثلاثة عشر يوماً مع أشغاله الديوانية كما يقول .

وقد حرص ابن أبي الحديد على رد ما في ( المثل السائر ) واظهار انخلط فيه ما وسعه . حتى قال في ذلك : « وقد سميت هذا الكتاب الفلك الدائر على المثل السائر » لأنه شاع من كلامهم ، وكثر في استعمالهم أن يقولوا لما باد ودثر : قد دار عليه الفلك كأنهم يريدون أنه قد طحنه ومحا صورته . من ذلك قول أبي العتاهية :

إِنْ كُنْتَ تَنْشُدُهُمْ فَإِنَّهُمْ هَمَدُوا وَدَارَ عَلَيْهِمُ الْفَلَكُ (٣) «

(١) المثل السائر ١ / ٤١١

(٢) « « ٢ / ٣٧٤

(٣) الفلك الدائر ٣٥ ( مطبوع مع الجزء الرابع من المثل السائر )

إذن فابن أبي الحديد شديد الحرص ، ليس على نقد ما في الكتاب والتاس وجه الصواب له ، بل يريد طحنه ومحوه . ترى ما هي الأسباب التي وصلت بأبي حامد الى هذه المرحلة من الحق على هذا الكتاب ؟

ويقطع علينا بنفسه طريق التساؤل والتأويل ليقول في مقدمة كتابه : « وقفت على كتاب نصير الدين بن محمد الموصلي ، المعروف بابن اثير الجزيرة ، المسمى ( المثل السائر في أدب السالك والشاعر ) فوجدت فيه المحمود والمقبول ، والمردود والمرذول . « أما المحمود منه فإنشاؤه وصناعته ، فإنه لا بأس بذلك إلا في الأقل النادر . . وأما المرذود فيه فنظره وجدله ، واحتجاجه واعتراضه ، فإنه لم يأت في ذلك في الأكثر الأغلب بما يلتفت اليه مما يعتمد عليه (١) » .

وهكذا يدلنا ابن أبي الحديد منذ البداية ، إلى الميدان الذي سيجول فيه مع ابن الأثير ، انه جدله واحتجاجه واعتراضه . . بعيداً عن الفن وقضايا الأدب . وبعد هذه المقدمة ، يبدأ بسرد أسباب حملته على هذا الكتاب فيقول : « فحداني على تتبعه ومناقضته في المواضع النظرية أمور :

- « منها ازراءه على الفضلاء ، وغضه منهم ، وعيبه لهم ، وطعنه عليهم ، فإن في ذلك ما يدعو الى الغيرة عليهم والانتصار لهم .
- « ومنها افراطه في الاعجاب بنفسه ، والتبجح برأيه ، والتقريظ لمعرفته وصناعته ، وهذا عيب قبيح يحبط عمل الانسان والاجتهاد ، ويوجب المقت من الله والعباد .
- « ومنها أنه قد أوماً مراراً في كتابه الى عتاب دهره ، إذ لم يعطه على قدر استحقاقه ، فأردنا أن نعرفه أن الأرزاق ليست على مقادير الاستحقاق ، وأن الرزق مقسوم لا يجلبه الفضل ، ولا يردده النقص .

---

(١) في المثل ٤ / ٣٢

« ومنها أن جماعة من أكابر الموصل ، قد حسن ظنهم في هذا الكتاب جداً ، وتعصبوا له حتى فضلوه على أكثر الكتب المصنفة في هذا الفن ، وأوصلوا منه نسخاً معدودة الى مدينة السلام وأشاعوه ، وتداوله كثير من أهلها (١) . فاعتزمت عليه بهذا الكتاب ، وتقربت به الى الخزانة الشريفة المقدسة النبوية الإمامية المستنصرية (٢) ، عمر الله بعمارتها أندية الفضل ورباعه ، وأطال بطول بقاء مالكيها يد العلم وباعه (٣) » .

ولا ينتهي من تعداد ما رأى من أسباب قبل أن يشير كذلك الى نفسه حتى فاق خصمه إذ يقول :

« وكان أكثر قصدي في ذلك ، أن يعلم مصنف هذا الكتاب ورؤساء بلادته ، أن من أصغر خول هذه الدولة الشريفة - فالعُجب مبير ولا أنبيء عني فمثلي كثير - من إذا ألغز أدري ، وإذا ضرب أفرى ، وإذا رشق أسمى ، وإذا نكأ أدمى . وأن دار السلام ، وحضرة الإمام ماخلت كما تزعم المواصلة بمن إذا سوبق خلتي ، وإذا يوسر فاز بالقدح المعلى ، وإذا خطب خضعت لبراعته المناصل ، وإذا كتب سجدت لبراعته الذوابل ، وإذا شاء علم الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل » .

« وأن في الأغفال المغمورين من رعاياها من لو هدر لقرت (٤) له الشقاشق ، ولو نطق لتجلت بشموسه المهارق (٥) ، ولو جرد حسام قلمه لقال الملك لل سيف أغرب فأنت طالق . فكيف بسدنة كعبتها ، والخافئين بشريف سُدنتها ، فحول البلاغة الذين إذا ركض أحدهم في حلبة البيان أخجل البروق وسخر بالرياح ، وإذا ضرب الاعداء بصارم اللسان قد الساوقي المضاعف حتى توقد نار الجباب في الصُّفَّاح (٦) » .

- 
- (١) صورة من الرقي الثقافي وملاحقة المؤلفات في القرن السابع الهجري .  
(٢) كان ذلك أيام الخليفة المستنصر بالله ٦٢٣ - ٦٤٠ هـ منشوه المدرسة المستنصرية ببغداد .  
(٣) المثل السائر ٤ / ٣٣ وما بعدها .  
(٤) سكنت . ويقال للفصيح : هدرت شفشفته .  
(٥) الصحائف . فارسي معرب .  
(٦) حجارة عريضة رقيقة .

هذه هي اذن أسباب تأليف (الفلك الدائر) عند ابن أبي الحديد . وكانت على التوالي :

— أسباب اجتماعية من تناول ابن الأثير على الفضلاء .  
— أسباب نفسية من إعجاب ابن الأثير بنفسه بألفاظ صريحة ، أو في عتاب الدهر لغمطه حقه .

— أسباب إقليمية ، من التنافس الذي يقوم عادة بين المدن .  
فهل هذه هي كل الأسباب التي دعت ابن أبي الحديد لتصنيف فلكه ؟ إن صح هذا فقد افتقد الدافع الأهم في مثل هذه الشؤون ، ذلك هو الدافع العلمي أو الفني . هذا الدافع الذي كان من نزاهة المقصد ، ونبيل الغاية ، أن يتفرد وحده حافزاً الى مثل هذا العمل .

ولكن ابن أبي الحديد لم يكن يحمل مثل هذا الشعور على الإطلاق عند إقدامه على الرد والنقض ، هذا الشعور الذي يصل بكل فكرة الى سدادها ، وكل رأى الى مستقره الصحيح ، فتكون الحقيقة في النهاية هي الثمرة الشبيهة المنشودة . وهو لم يخف ذلك على أية حال ، فقد صرح بأنه يبغى نحو (المثل السائر) وطحنه وابتدته ، ولم يكن يسعى للوصول مع خصمه الى حقيقة علمية أو فنية ، ولدينا من كتابه ما يوضح قولنا ويؤكد .

فقد بدأ ابن أبي الحديد المسألة الستين بقوله : « قال المصنف في الكلام عن الصناعة المعنوية : وصاحب هذا الفن ، لا يحتاج الى ما ذكره الحكماء في علم المنطق في الشعر ، وقد قرأت كلام أبي علي بن سينا في المنطق ، وتأملت ما قاله في الشعر ، فوجدته يقول : يورد على مقدمتين ونتيجة . قال : وقد كان ابن سينا ينظم الشعر ، ولا يرتبه عند إفاضة في صوغه بالأصالة ، لأنه لم تخطر المقدمتان والنتيجة له ببال ، ولو أنه استحضر المقدمتين والنتيجة ، ثم أتى بالنظم والنثر بعدها ، لم يأت بشيء يُنتفع به ، وإنما هذه فقايع وألفاظ طول القوم بها كتبهم (١) »

---

(١) ملخص من المثل السائر ٢ / ٥



« أقول : هذه جناية عجب الإنسان بنفسه ، وذلك أن الانسان يدعو فرط اعتقاده في نفسه ، وشغفه بما يخطر له ؛ أن يتكلم على قوم لا يعرف أقوالهم ، ولا يحصل معنى اصطلاحاتهم فضلاً عن أن يبلغ رتبهم ويترقى درجاتهم ، الى أن ينقض عليهم فيقع هذا الموقع .

« وليس مراد القوم بالشعر ما يتوهمه ، والذي يريدونه بالشعر يأتي في كل قياس مختلف يعلم العاقل كذبه ، لكنه يحدث له مع ذلك نوع قبض أو بسط ، أو إقدام أو احجام ، كما يقال : لا تأكلوا العسل فإنه ثمرة مقيئة ، أو يقال للحلواء الرطبة المزعفرة : لا تأكلها فإنها غائط . فالعقل والحس يكذبان هذا الكلام الذي هو في قوة قياس ، صورته هكذا : كل غائط فهو غير مأكلة . ومع علمه بكذبه ينقبض عن الأكل . وأكثر اقدام الناس وإحجامهم بسبب هذه التخيلات والأوهام . وهي الأقيسة الشعرية التي يذكرونها ، وإنما سميت شعرية لمشايتها مقاصد الشعراء في تخيلاتهم وتزويقاتهم .

وأما توهمه أن الشاعر يحتاج وقت نظم الشعر الى استعمال مقدمتين ونتيجة ، وقوله إن ابن سينا كان ينظم شعراً ولا يرتب المقدمتين وقت نظمه ؛ فتوهم بعيد وإن كان القوم عنده بهذه الصورة ؛ ويراهم بهذه العين ، فإنه لم يعرفهم (١) .

وفي إصرار ابن أبي الحديد على رده هذا ؛ رغم وضوح وجه السداد في قول ابن الأثير أحد تفسيرين :

— إما أنه لا يهتم الا بالجدل للجدل ، حتى لا يدع لابن الأثير ما يدعي الصواب المطلق فيه .

— أو على ضعف إحساس ابن أبي الحديد ، بما يتصل بالشعر وحال الشاعر أوقات الخلق الفني عنده .

---

(١) في المثل السائر ٤ / ١٩٠

وهكذا فإذا افتقر ابن أبي الحديد الى الدافع العلمي النبيل ، فإنه لم يفتقر - وان لم يصرح بذلك - الى الدافع المنهبي المتعصب .

فابن الأثير سني شافعي ، وصل الى منصب الوزارة الحظير لدى الأيوبيين ، ونال الحظوة والتكريم لدى ملوك الموصل ، وانتشار كتابه بهذه الشهرة الطاغية ، التي تسبقه وترافقه وتتبعه ؛ لا شك يسوء شيعياً معتزلياً مثل ابن أبي الحديد ، خاصة وأنها متعاصران ، والمعركة حينذاك على أشدها بين الفئتين ، وقد امتد لهيبتها ، حتى أتت على بغداد ومحت الخلافة منها . فكيف لا تكون سبباً لابن أبي الحديد لمحو كتاب يعارضه .

نقول هذا ونحن لا نزال في مقدمة الكتاب ، فإذا اجتزنا ذلك إلى مجلس الرد الذي تصدره ابن أبي الحديد ، لوجدنا أن الحجة هي التي تتردد بينها ، ، والحقيقة المجردة هي وحدها التي تفوز في النهاية ، وإن تجاهلها ابن أبي الحديد ، وتجاوز وضوحها أحياناً ؛ فإن ذلك لا يسري على كثير من الحضور ، الذين ييزون رؤوسهم في عدم اقتناع ورضى .

يلف ذلك كله ، روح ابن أبي الحديد الجدلية الكلامية ، وهي لا تصلح مجال للفصل في شؤون الأدب وجوانبه الفنية .

## ( ٢ )

### بين الصفدي وابن الأثير

إذا كان من أسباب الخصومة بين ابن أبي الحديد وابن الأثير ؛ المذهبية ثم الاقليمية ، وكذلك التنافس الشخصي بين متعاصرين ؛ فاننا سنفتقد ذلك عند الصفدي في خصومته لابن الأثير .

فالصفدي كما يعلن ذلك عنوان كتابه ( نصره الثائر على المثل السائر ) يناصر

ابن أبي الحديد ، مع أنه يخالفه في المذهب ، وهو يشير الى ذلك في المقدمة ، بعد أن يشيد بعلم ابن أبي الحديد وقدرته الجدلية « ولكن أدته مواده الغزيرة الى أن اعتزل وتشيع ، وأهمل جانب السنة وضئع (١) » مما يدل على نزاهة الصفدي وبعده عن الهوى ، وسعيه للوصول الى الصواب المجرد .

أما الأسباب التي دعت الى نقد المثل السائر ، والرد على صاحبه ، فلم تخرج عما يلي :

( ١ ) أسباب نفسية مما بدا عند ابن الأثير ، من زهو وكبر وإعجاب بالنفس لا حد له « عامله الله بلطفه ، وسامحه بما هزت به نسبات الحياء من غصن عطفه . . . فقد توهم أن بدر فضله قد تم وكمل ، وتخيّل أن جيد الإنشاء بعده قد عطل وفنه قد خمل . . . ووصف نفسه ولا وصف امرئ القيس لأفراسه ، ومدحها ولا مدح أبي نواس سلافة كاسه وكرر ذلك فغشى النفوس بذلك الغث ، وزاد حتى رثّ القلق ثوب الصبر لما رث . »

( ٢ ) أسباب اجتماعية من تناول ابن الأثير على أعلام الأدب والإزراء بهم . فقد « ظن أن الله قد حرّم الفصاحة على من يأتي من بعده ، وأن الذين من قبله ، إما شيخ قد خرف في هرمه ، وإما طفل يعبت في مهده . . . خصوصاً القاضي الفاضل . . . رحمه الله تعالى - فإنه قد عارضه في بعض ما أنشاه ، وعاب عليه ما دبحه ووشّاه . »

( ٣ ) أسباب فنية تتعلق بما حواه الكتاب من نصوص ، ومن نظرات في انشائها وتذوقها ونقدها ، « هذا إلى ما في الكتاب من فلتات عديدة ، واختيارات غير موفقة ولا سديدة ، ونصر باطل وتحليه عاطل ، وترجيح ما ضعف ووهى ، وتوهين ما تحرر وانتهى . . . وإذا ناقشته في بحث أوردته ، ونافسته في صالح أفسده ، لا أكاد أخلي ذلك الموطن من محاسن أرباب هذا الفن . »

---

(١) نصره الثائر ص ٥٥ بتحقيق المؤلف

هذا مع اعتراف الصفدي الصريح ، بما في الكتاب من حسنات ، وبما كان يتمتع به من الشهرة الواسعة ، فهو « من الكتب التي خفقت له في الاشتهار عذبات أوراقه .. واشتهر بين أهل الانشاء .. وأولع به أهل الأدب في الآفاق ، ولع الكرمين بالإتفاق لا بل ولع الرقباء بالعشاق ، كما كان من حسناته « أن واضعه رحمه الله - قد جمع فيه بين العلم والعمل » .

ولكن ماذا يقول الصفدي ، بعد أن سبقه ابن أبي الحديد الى مطالعة الكتاب ، والرد على ما جاء فيه « وأي قوادم ينهض بها من جاء بعد هذا المتكلم ، وأي سيف يفري فريه وهو مثلم .. والمعزلة فرسان المباحث ، ومن توفرت لهم الهمم على الجدل وطاوعتها الدواعي والبواعث .. »

ويجيب نفسه بقوله « وقد ترك الأول للآخر أكثر مما جاء به ، وتفاوتت الأذهان في انتقادها الحسن وكواعبها .. » .

فقد أدرك الصفدي أن ابن أبي الحديد ، ابتعد في مناقشته لابن الأثير عن الأدب وقضاياه الأصلية ، وعن النصوص ونقدها ، وغاص معه في جدل ينسجم مع ما يحمله في فكره وتمواه نفسه « والمعزلة فرسان المباحث ، ومن توفرت لهم الهمم على الجدل » . لذا فإن الصفدي سيجد الميدان خالياً ، وما يهوى الحديث فيه متروكاً ينتظره ، ولا غرو في ذلك فقد « تفاوتت الأذهان في انتقادها الحسن وكواعبها » .

أما طريقته في نقد ابن الأثير ومناقشته ، فهي من خير ما يتبع في نقد النصوص وكشف مزاياها ، بيئتها بقوله :

« فإذا ناقشته في بحث أوردته ، وناقشته في صالح أفسده ، لا أكاد أخلي ذلك الموطن من محاسن أرباب هذا الفن .. » ، بما يبصر القارئ ، ويفتح ذهنه ونفسه ، ويجعله - بهذا النقد التطبيقي ومقارنة النصوص - يضع يده على أسرار الجمال ، كما تلوح له نقاط التخلف والضعف .

فألا مجال إذن للمقارنة بين الصفدي وابن أبي الحديد ، فالفارق بينها كبير في الروح والثقافة وزاوية النظر واسلوب تناول النتيجة ، إنه باختصار الفرق بين عالم في الشرعيات ، يعتمد المنطق أساساً للمناقشة واسلوباً لها ، وبين أديب بالفطرة ثم بالتكوين ، يعتمد النصوص أساساً ، والنقد الفني منطلقاً ، والذوق ودقة الحس وسيلة لإدراك الأسرار وتذوقها والانفعال بها ومعها .

وهكذا فإن لدينا في الرد على المثل السائر كتابين منفصلين ، لا يلتقيان الا عند اسم ضياء الدين في مثله السائر .

وأخيراً لا بد من الإشارة الى الاسلوب الذي اتبعه الصفدي في مقدمته هذه ، فقد اعتمد فيها اسلوب النثر الفني المسجوع في تلك العصور . بيد أنه سرعان ما يتكبد ذلك الى أسلوبه المرسل الرقراق ، عندما يغادر هذا المدخل الى بهو الكتاب ولبابه . كما نلمس في هذه المقدمة كذلك ، ميل الصفدي للتعبير بالصور ، عما يريد من مشاعر ومعان .

★ ★ ★





الباب الثاني

الناقد الصفي



## تقديم

مر بنا عند الحديث في ترجمة الصلاح الصفدي أن مؤلفانه زادت على المائتين ، وأن ما وصل إلينا منها جاوز الأربعين ، قام أكثرها على موضوعات أدبية استقطبت حولها الغزير من النصوص ، وإن غلب القريض على منشورها ، يتطلب ذلك كاه ما يعرض له أثناء بحثه من نهج القول وشئون الكلام ، كما حفل بعض هذه الكتب بالآراء والنظرات النقدية ، في مقدماتها وفي ثنايا صفحاتها وسطورها ، وكان لا بد لتكوين صورة كاملة للصفدي الناقد ؛ من العودة الى أكبر عدد من هذه المؤلفات ، والتاس ما جاء فيها من نقد ، سواء أكان قواعد نظرية أم نظرات تطبيقية .

وقد رأيت من تمام العمل الا أقصر نظري على ( نصره الثائر ) في رسم ملامح الشخصية الناقدة ، فكان لا بد من الاستئناس ببعض كتبه الأخرى ، تؤكد ما بدأه فيه ، وتوسع ما اكتفى بالإشارة إليه ، فكان أبرز هذه المظان كتابه ( الغيث المسجوم في شرح لامية العجم ) ومقدمة كتابه الموسوم ( بتشنيف السمع بانسكاب الدمع ) .

ورب متسائل عن سبب اقتصاري على هذه الكتب ، في رسم صورة الصفدي الناقد ، رغم وجود كتب أخرى من مؤلفاته ، مما تشي عنواناتها بأن ما فيها يخدم غرضنا ؛ لكن ذلك لن يؤثر في وضوح شخصية الصفدي ، التي ستبرز أمامنا من خلال كتبه الثلاثة المعتمدة لأسباب عدة :

— أولها ما ثبت لي من أن كتاب ( الغيث ) هذا ؛ قد استأثر بقلم المؤلف في أخبار أيام حياته ، إذ ورد في مطاوي صفحاته العديدة من أسماء كتبه الأخرى ، و ( النصره ) كذلك من بينها .

— ثانيها ما لمسته في هذا الكتاب من جرأة ؛ لم تكن عند الصفدي في نصرته ، في تعليقاته ونظراته ، فقد بدا فيه ذوقه وقد صقل وتحدد ، وآراؤه وقد استحصت وتكاملت ، كما بدا اعتداده بنفسه لا يقبل الشك ، بعد أن غنيت تجاربه ، وفاض من ذلك رصيده ، وغدوت أسمع جهره مخالفاً علماء العروض ، في بعض قواعدهم وقيودهم ، أو أئمة اللغة في أذواقهم ونظراتهم ، بعد أن كان في ( نصرته ) يشدّ أزره بما يقولون ، ويستشهد بأقوالهم ليطمئن الي سداد ما يعرضه ويبيديه .

— ثالثها ما تميز به حجمها الكبير ؛ من تركيز في الغرض ، وغزارة في المادة الأدبية ، وخاصة كتابه الغيث في صفحاته المشرفة على الثمانئة .

وبذلك أغنت هذه الكتب عما سواها ، وأخذت الخطوط الأساسية للشخصية الناقدة ؛ تظهر من خلالها وتتوضح وتتحدد ، الي أن نرى الصفدي آخر المطاف في شخصيته المنشودة ، قائماً سويًا ماثلاً للعيان ، بحدوده الواضحة وقسماته المتميزة .

أما ( نصرته الثائر ) ، فقد قام الصفدي بتأليفه لارد على ابن الأثير ، ومناقشته في كثير مما ذكره في كتابه ، من قواعد ورسائل وآراء ، وصل مجموع ما أورده منها وناقش خصمه فيها ؛ سبعة وسبعين موضعاً ، واتبع في عمله هذا منهجاً واضحاً بادي التنسيق ، مما عرف به مؤلفو تلك العصور .

فقد بدأ الكتاب بمقدمة يشير فيها الي دوافع تأليفه ، والي من سبقه الي الرد على ابن الأثير ، مما يستدرجه للتعريف بابن أبي الحديد و ( فلكه الدائر ) ثم عمن رد عليه من تلامذة ضياء الدين . فقد أحدث « المثل السائر » في عصره جلبة ، كان فيها أشبه بجهر ألقى في بركة راكدة ، نجم عنها عدد من المؤلفات ، عرفنا منها سبعة ، مما ذكره مؤرخو الأدب في ذلك الحين (١) .

---

(١) انظر تفصيل ذلك على الصفحة ٢٥ وما بعدها من « نصرته الثائر » .



يدخل بعد ذلك في لب الكتاب ، حيث كان يورد قول ابن الأثير مأخوذاً من المثل السائر ، ويردده برده عليه ، مضمناً ذلك بالأشعار وغيرها ، حسبما تدعو الحاجة إلى ذلك . . وهكذا حتى نقرأ خاتمة الكتاب .

. وجدير بالذكر ؛ أن الصفدي تناول من آراء ابن الأثير ، ما هو من قضايا الأدب الأصيلة ، شعره ونثره ، وناقشها بروح الأديب ذي الذوق النامي ، والتجربة الطويلة ، بيد أنه لا يغادر ما كان عليه ذوق عصره ، من الاهتمام بجمال الشكل ومراعاة امتاع الحواس ، إلا أن هذا التقيد بالاتجاه الفني الشكلي ؛ لم يبلغ الدور الذي نهض به ذوقه المتطلع ، وحسه اللغوي الدقيق ، في إملاء العديد من آرائه وأحكامه وتعليقاته .

وقبل أن نسلم للصفدي ليكون المرآة التي تعكس لنا صورة النقد في عصره ، يحق لنا أن نسأل عن الصفات التي تؤهله لمثل هذا ، بما يسلمنا إلى فصول الدراسة التالية ، التي أرجو أن أوفق فيها إلى اعطاء هذه الصورة المنشودة ، من خلال الصفدي الأديب .

## الفصل الأول

### الصفدي الناقد بين معاصريه

لقد كان للصفدي في عصره وجود واضح من الناحية الأدبية ، ونحن هنا لن نبحث فيما قاله فيه مصنفو كتب التراجم ، بل سنتجه أكثر إلى الدقة ؛ لنلتقط شيئاً مما تناثر من الأخبار ، التي ترد عفواً في ثنايا كتابات المعاصرين ، لنذكر فيها بأن الصفدي كان أحد كبار النقاد ، الذين تعرض عليهم الآثار الأدبية ، والكتب المصنفة ، ليقولوا فيها كلمتهم الفصل ، فيكون لها أوسع الصدى في صفوف القراء والمتأديين .

فهذا فتح الدين محمد بن سيد الناس ، أحد شيوخ الأدب في عصره ، وقد أخذ عنه الصفدي بنفسه ، ثم ترجم له في كتابه الوافي ، فكان بما قاله فيه « وشعره رقيق ، سهل التركيب ، منسجم الألفاظ ، عذب النظم ، وترسله جيد . وكان النظم عليه بلا كلفة ، يكاد لا يتكلم إلا بالوزن »<sup>(١)</sup> . إلى هذا الحد من الإجابة ، وصلت موهبة ابن سيد الناس كما وصفه تلميذه القديم ، دون أن نلمس فيما قاله الصفدي هنا مبالغة ما ، بل إن عباراته هذه تميزت بالدقة ووضوح القصد ، يؤكد ذلك انسجام هذه الصفات فيما بينها وتكاملها ، فإن إنساناً يملك الأذن الموسيقية الرهيلة حتى لا يكاد يتكلم إلا بالوزن ، وعنده القدرة على البيان ما يجعله ينظم بلا كلفة ، لا بد أن

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي ٢٨٩ / ١

يأتي قريضه عذباً في نظمه ، منسجماً في ألفاظه ، سهلاً في تراكيبه ، ثم تكون رقة شعره صادرة عن بساطة طبعه ورهافة حسه .

إن ابن سيد الناس هذا ، وهو من اتصف أدبه بما سلف ؛ كتب إلى الصفدي يميزه في رواية ماله من آثار فيقول :

« وأذنت لك في إصلاح ما تعثر عليه من الزلل والوهم ، والحلل الصادر عن غفلة اعترت النقل أو وهلة اعترضت الفهم ، فيما صدر عن قريحتي القريحة من النثر والنظم ، وفيما تراه من استبدال لفظ بغيره ، بما لعله أنجى من المرهوب ، أو أنجع في نيل المطلوب ، أو أجرى في سنن الفصاحة على الأسلوب (١) » .

إذن فابن سيد الناس هنا ، لا يكتفي بأن يميز تلميذه السابق برواية آثاره ، على عادة أمثاله من العلماء والأدباء ، بل يعترف له بالمقدرة وسلامة الذوق ، ما يؤهله لمثل هذه التعديلات في كتاباته ، في عبارات دقيقة المعنى ، محددة القصد والغاية .

وهكذا سعد الصفدي ، إلى المنزلة التي رفعه إليها الأدباء آنذاك ، فكان له في ميدان النقد نشاط ملحوظ ، تحدث فيه أصحاب المصنفات في عصره وما تلاه ، أمثال شمس الدين الذهبي ، وابن حجة الحموي ، والقلقشندي الذي قدم لنا من خلال ذلك ، صورة عن النقد وأسلوبه المتبع فقال :

« قد جرت العادة ، أنه إذا صنف في فن من الفنون ، أو نظم شاعر قصيدة فاجاد فيها . أو نحو ذلك ، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته ، بالتقريض والمدح ، ويأتي كل منهم بما وسعه من البلاغة في ذلك .

« فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي ، على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي الشافعي ، في الاستدلال على أن البسمة من أول الفاتحة وهي : وقفت على هذا التصنيف ، الذي وضعه هذا العلامة ، ونشر

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي ٢٨٩/١

به في المذهب الشافعي أعلامه ، وأصبح ونسبته اليه أشهر علم وأبهر علامه . فأتى  
ماسام الروض حدائقه ، ولاشام أبو شامة بوارقه . كل الأئمة تعترف بما فيه من  
الأدلة ، وكل التصانيف تقول أمامه بسم الله ، كم فيه من دليل لا يعارض . . .

أَكْرَمَ بِهِ مُصَنَّفًا      فَاقَ تَصَانِيفَ الْوَرَى  
لَيْلُ الْمُدَامِ فِيهِ بِالْ      مَعْنَى الْمُنِيرِ أَقْمَرًا  
كَمْ فِيهِ بُرْدٌ حُجَّةٍ      قَدْ حَاكَهُ مُحَرَّرًا  
وَكَمْ دَلِيلِ سَيْفُهُ      إِذَا التَّقَى خَصِمًا فَرَى  
فَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِهِ      مُخَالَفٌ قَطُّ يَرَى<sup>(١)</sup>

ولن نعلق على ما قد يثير في هذا النص ، لأن لذلك مكاناً يبسط القول  
فيه ، بل نكتفي بالإشارة إلى ما أوردنا الخبر من أجله ، في إبراز الدور الذي  
كان الصفدي يؤديه في ميدان النقد الفسيح .

\* \* \*

---

(١) صبح الأعشى ١٤ / ٣٣٥

## الفصل الثاني

### الصفدي الناقد من خلال مكتبه

سنعكف في هذا الفصل على ما خلفه لنا الصفدي من آثار ، نطل منها على الناقد فيه ، بتوجيه الأضواء من نوافذ متعددة ، فنتعاون الحطوط وتتكامل السمات لتنجلي الصورة بعد ذلك واضحة للعيان ما أمكن ذلك .  
وتحقيقاً لهذا نجعل الحديث موزعاً على الجوانب المتعددة ، التي تؤهل الأديب ليكون ناقداً جديراً ، وأول هذه الجوانب هو :

#### موهبة :

وفي الكلام تحت هذا العنوان نحاول الإجابة عما اذا كان الصفدي موهوباً حقاً ، ليكون ناقداً يتصدى للنصوص بالدرس والتحليل ، والكشف عن نقاط الضعف ومواطن الجمال ، والتعليل ما أمكن لما يقول ويحكم .

والحق إن الصفدي تمتع بالموهبة ، فما أن يعرض له نص حتى ترى نفسه تسبقه للتعبير عن إعجاب آثاره ، أو قبح يصدح حسه وذوقه ، أو اقتراح تعديل يضمن فيه للنص سحره . . ولا تظالعه في الأدب ظاهرة ؛ حتى يهتم لها ويبقى معها يقلبها ويدور حولها ، إلى أن يجد لها التعليل الذي تسكن إليه نفسه ، ويستقر له خاطره وفكره . وقد تعهد الصفدي موهبته هذه بالتدريب والممارسة ، حتى قضى حياته كلها مع الأدب يعالجه بالدرس والمقارنة والتصنيف .

وهالك بعضاً من النماذج الدالة على توفر الموهبة لديه . . .

فمنها قوله بعد أن أورد قول المعري من أبيات يدافع بها عن الكهولة فيقول :

واذ كُري لي فَضْلَ الشَّبَابِ وما يَجِبُ      سَمِعُ من مَنظَرِ يَرُوقُ وطِيبِ  
غَدْرُهُ بالخَلِيلِ أم حُبُّهُ للَغَفِّ      هي أم أَنَّهُ كَدَّهْرِ الأَدِيبِ

« وهذا هو تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو أعلى مراتب التشبيه طبقة ، لأنه ينشأ عن لطف ذوق ، وسلامة فطرة ، وصحة تخيل ، فهو صعب على من يرومه ، متقاعس عمن جذب زمامه ، لأن العلوم العقلية تستفاد من الحواس ، في المقادير والألوان والطعوم والرائحة وطيب النغم ونعومة اللمس وخشونته . ولهذا قالوا من فقد حاسة فقد علماً . . . وإذا كان كذلك فالمحسوس أصل والمعقول فرع ، وتشبيه المعقول بالمحسوس من باب رد الفرع أصلاً ، وأحسن ما جاء فيه قول القائل :

وكانَّ النُّجُومَ بين دُجَاهِها      سُننٌ لاحَ يَدِينُنَّ ابْتِداغُ

وقول الآخر :

كانَّ القَلْبَ والسُّلوانَ ذِهْنُ      يَحُومُ عليه مَعْنَى مستحيلُ

وقول الآخر :

كانَّ انتِضاءَ البَدْرِ تحتَ غَمَامِهِ      نَجاةً من البَأْساءِ بعد وَقوعِ<sup>(١)</sup>

وهكذا نرى كيف أفصح لنا هذا النص ، عن ادراك الصفدي لهذا النوع الرفيع من التشبيه ، الذي لا يستطيعه إلا المطبوعون ، أصحاب الذوق اللطيف والإحساس

(١) النقيض المسجوم ٢١٠/١ - ٢١١



الصادق والتخيل السامي الدقيق ، بينما يمتنع على المتكلمين ، ممن يقصد إليه قصداً ويجهد لجره بالزمام . فهذا النوع قبل أن يكون تشبيهاً ؛ ما هو إلا إرضاء لإحساس صادق غلاب جاشت به النفس الشاعرة . كما لمس الصفدي بالتالي دور الخواس في تكوين المعقولات والصور ، وأن المحسوسات البسيطة هي الأصول الأولى لتلك . ثم دل على نضج هذا الإدراك لديه ؛ بما أورده من النماذج الوفيرة ، التي اجتازت منها بإيراد ما يفي بالمطلوب .

وقال الصفدي بعد أن أورد بيتي الطغرائي في لاميته :

والدَّهْرُ يَعْكِسُ آمَالِي وَيُقْنِعُنِي      من الغنيمَةِ بَعْدَ الْكَدِّ بِالْقَفْلِ  
وذي شِطَاطٍ كَصَدْرِ الرَّمْحِ مُعْتَقِلٍ      بمثله غير هَيَّابٍ وَلَا وَكَلٍ

« ألا ترى أن الطغرائي لما أخذ في وصف حاله ، وما هو فيه من النكد وضيق الحال ، كأنه أطال على المخاطب في ذلك وأحس منه الملل ، فالتفت الى وصف هذا الصاحب الذي رافقه ، فانشأ للامع معنى غير الأول بعث له نشاطاً جديداً ، وأستأنف له إصغاء آخر ، وجدد له تطلعاً يتشوق معه الى الوقوف على هذا الخبر الثاني ، وهذا غير خاف .

« وقوله كصدر الرمح معتقل بمثله ، من الإيجاز والاختصار لأنه استغنى ( بمثله ) عن أن يقول : برمح طويل قويم معتدل . وما أحسن المثل المشهور ( ويكفيك من القلادة ما أحاط بالعتق ) . وقال البحري :

وَأَشْعَرُ لَمَحٍ كَفَتْ إِشَارَتُهُ      وليس بالهذَرِ طَوَّلَتْ خُطْبَتُهُ<sup>(١)</sup>

فاذا نظر الصفدي في بيتي المعري الى التشبيه ، وأدرك سمو الفن فيه في

(١) الغيث المسجم ١ / ١٥٨

إدراك العلاقة بين الصور الحسية والحالات المعنوية ؛ فإنه في هذا النص اتجه في نقده الى الأثر النفسي الذي أحدثه النص ، في انتقال الشاعر من الحديث عن نفسه الى وصف صاحبه ، مما يوقظ انتباه السامع وينبه ذهنه لهذا الجديد . كما أشار الى صفة هامة من صفات الشعر ، في لمحاته المثيرة التي تطلق الخيال ، لدى مصافحة كلمات هذا الشعر المكتنزة بالإيماءات والأصداغ أذن السامع المتذوق .

ويعمق الصفدي إحساسنا بهذه الإشارة ، إلى الإيجاز الغني في التعبير ، دالاً بهذا على تأصل ذلك لديه فيقول :

« وأحسن ما ورد في الإيجاز قوله تعالى : ( وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين ) .

« وهذه الآية مشهورة بين أرباب البلاغة بالإبداع ، وأعظم ما فيها شرح شأن نوح عليه السلام في الطوفان ، من أوله الى آخره في هذه الألفاظ القلائل ، ومن جملة إعجاز القرآن إيجازه ، وهو مشحون بذلك (١) . »

ولا يتوقف الصفدي عند هذا ؛ بل يعود ثانية الى حديقة الشعر يتنقل بين نماذجه ، ويتخير منها ما يكشف عما ينطوي عليه هذا الإيجاز الموحى من إثارة ومتعة وإبداع .

وكما يطرب الصفدي للإبداع ويهتز للجمال ، فإنه لا يخفي انفعاله وتفوره في مواطن الضعف أو الركة والإسفاف ، من ذلك ما أورده في كتابه فقال : « وما أحسن قول ابن التعاويذي :

بينَ السُّيوفِ وعينيه مُشاكَّةٌ      من أجْلِها قِيلَ للأعمادِ أجفانُ

---

(١) الغيث ١ / ١٥٨

« وإن كان أخذه من أبي الطيب في قوله :

ولذا اسمُ أَعْطِيَةِ الْعُيُونِ جَفُونُهَا من أنها عملُ السيفِ عواملُ

« فإنه تناوله خبث حديد وأعاده قلادة جيد . ولم يكف أبا الطيب بشاعة اللفظ في قوله (أعطية العيون) حتى هجته بتقديم ترتيبه وتأخيره . والتقدير : من أنها عوامل عمل السيف (١) » .

ولن نناقش الصفدي هنا في سر إعجابه ببيت ابن التعاويذي ، بل ننظر في رده لبيت المتنبي بالرغم من شدة إعجابه بالمتنبي ، ورضاه عما قاله فيه أبو العلاء وغيره ، ولكنها في الناقد الفني من مبررات وجوده وإحدى بدهيات سماته .

وحين يسمع ابن الأثير ، يحمل على الحريري ويضع من قدره ، لعجزه عما كلف به في الديوان ، وهو العلم المشهور صاحب المقامات ؛ ينبري الصفدي للكلام ويسير في تعليل هذه الظاهرة ، حتى يضع أيدينا على الأسباب ، ويطمئن الى حسن وصولنا الى شاطئ الوضوح والاقتناع إذ يقول :

« أما عجب الناس من واقعة الحريري ، فهي موضع العجب في بادئ الرأي ، لأن من يصدر عنه مثل هذا الكتاب الذي لا نظير له في بابهِ . . ثم يتوقف في كتاب يطلب منه ، فإن ذلك غريب ، وأما إذا فكر الانسان وعلم أن الانشاء من باب الفتوح على الانسان ، لم يكن ذلك بعجيب . لأن الله تعالى قد يفتح بذلك في وقت دون وقت . وقد عد الشيخ محيي الدين بن العربي النظم وحسن الكتابة من الفتوح ، وما زال الناس كذلك تارة يفتح عليهم وتارة لم يفتح ، والحريري في ذلك الوقت لم يفتح عليه .

« على أن الحريري في وقت عمل المقامات كان في بيته مخلى ونفسه ، يصوغ

---

(١) الغيث ١ / ١٧

ويكسر ويهدم ويبني . فاذا نبأ به مقام تحول الى غيره ، واذا تقاعس عليه معنى تركه وجذب ما هو أسلس قياداً منه . وقد ذكر أن مسودات المقامات كانت حمل جمل . وذلك غير جلوسه في الديوان وأول قدومه وهو بين جماعة من أرباب الفن ، ويقترح عليه معنى لا يحيد له عنه ، ولا فسحة له في مضيقه ، ولا نجاة له من زلله ، ولم يكن استعد له .

« لا جرم أنه أفحم ورتف عشونه (١) » .

وهكذا يذهب الصفدي كل منذهب ، باحثاً عن علة عجز الحريري عن تحرير كتاب في ديوان الانشاء ببغداد . لأن منصفاً لا يمكن أن يصب أديباً كالحريري لأمرٍ هين الشأن كهذا ، بما كاله له ابن الأثير وغيره ، فكان أن جمع الأسباب في أمور ثلاثة :

- أولها : الحالة النفسية التي يكون عليها الكاتب وسماها الفتوح .
  - وثانيها : ضائقة الزمن التي أحاطت به وفرضت عليه ، بينما اتسع له الوقت في بيته وهو يكتب المقامات . حتى بلغت مسوداته حمل جمل .
  - وثالثها : ضائقة الموضوع ، أو المعنى الذي لا عهد له به ولا يحيد له عنه .
- ولكن هذه العلل مجتمعة لم تقنع صاحبها نفسه ، فعندما وصل في تعليقه الى هذه النقطة ، بقي ذهنه يضطرب لتساؤل جديد ، لأن الكاتب القدير لا يعجزه تحرير كتاب مها ضاق الزمن ، وتحدد الموضوع ، وكانت الحالة النفسية غير موالية . فراح حاسته القلقة تبحث دائبة الى أن قال :

« وقد ظلم المقامات من جعلها من باب الترسل والترسل جزء منها ، بل هي كتاب علم في بابها » . وبذلك وضع الصفدي يده على السر ، فالمقامات تأليف في

---

(١) نصره الثائر ص ٥٦

الأدب من نوع جديد ، فهو فن مستقل من فنونه ، له خصائصه ومزاياه « وما ذلك إلا أن هذا الكتاب أحد مظاهره تلك الحكايات المضحكة ، التي إذا شرع الانسان في الوقوف عليها ، تطلعت نفسه الى ما تنتهي اليه ، وتشوقت نفسه الى الوقوف على آخر تلك القصة (١) . »

إذن فقد زال العجب من عجز الحريري عن تحرير كتاب ديواني ، بما يلزمه فيه من مراعاة قيود وتقاليد تتعلق بالألقاب والمقدمات ، واسلوب في المخاطبات لا يعرفها إلا الموظفون في دواوين الدولة .

وليس هذا فحسب ، بل إن هؤلاء الكتاب ليعجزون أن يأتوا بمثل ما أتى به الحريري ، لما تتطلبه المقامات من ملاحظة دقيقة ، وخيال مجنح حي ، وروح فنية ، مما يفتقر اليه كبار كتاب الدواوين . وقد « قيل لابن عميرة كاتب الأندلس : لأي شيء ما تصنع مثل المقامات ؟ فقال : أما الألفاظ فما أغلب عنها ، وأما تلك الأكاذيب التي تكذبها ، فما أحسن أن أضع مثلها (٢) » بهذا فسر ابن عميرة موهبة الحريري في صدقه الفني إذن .

أما الصفدي فقد استمر مع هذا الأمر كما رأيت ، حتى وصل في التعليل الى قرار اطمأن فيه ، وساطىء ارتاحت نفسه اليه .

وينتبه الصفدي على صوت ابن الأثير ، وهو يدعي ان أبا نواس ومسلم بن الوليد وأبا تمام والبحثري وأبا الطيب وغيرهم كعبد الحميد وابن العميد والصابي ، لم يتعلموا من كتب اليونان شيئاً وجاءوا بما جاءوا به (٣) . فيتصدى الصفدي ليثبت غير ذلك مبتدئاً بالتوجه نحو شعر هؤلاء يستدرجه ليثبي بالحقيقة ، متلطفاً للحصول عليها من أفواه أصحابها ، والبحث عن الحقيقة رائد فيبدأ « بقول أبي نواس :

---

(١) نصره الناشر ص ٦١

(٢) « « ص ٦٠

(٣) المثل السائر ٢ / ٤

أَبَاحَ الْعِرَاقِيُّ النَّبِيذَ وَشُرْبَهُ      وَقَالَ حَرَامَانَ الْمُدَامَةَ وَالسُّكْرُ  
وَقَالَ الْحِجَازِيُّ الشَّرَابَانَ وَاحِدًا      فَحَلَّتْ لَنَا مِنْ بَيْنِ قَوْلَيْهِمَا الْحَمْرُ  
سَأَخِذُ مِنْ قَوْلَيْهِمَا طَرَفَيْهِمَا      وَأَشْرِبُهَا لَا فَارِقَ الْوَازِرَ الْوِزْرُ

« فمن أنعم النظر في هذه الأبيات علم أن أبانواس كان منطقياً ، فإن استنتاجه حل الحمر من مقدمتي كلام الفقيه العراقي والحجازي يدل على ذلك . وهذا على عادة مجاز الشعر ، وإلا فالصحيح حرمة الحمر .

« وأما أبو الطيب فقد قال : أنا وأبو تمام حكيمان وإنما الشاعر البحثري . وكلام هذين الشعارين يدل على أنها ما عتريا عن شيء من علوم الفلسفة خصوصاً المتنبى ، والحاتمة تدل على أنه كان ينظر في كلام القوم .

« ألا ترى قوله يمدح ابن العميد :

مَنْ مُبْلِغُ الْأَعْرَابِ أَنِي بَعْدَهَا      جَالِسْتُ رِشْطًا لَيْسَ وَالْإِسْكَندَرَا  
وَسَمِعْتُ بَطْلَيْمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ      مُتَبَدِّئًا      مُتَمَلِّكًا      مُتَحَضِّرًا  
وهذا بعيد أن يصد من لم ينظر في كتب القوم .

« وأما ابن العميد فقد قال ابن خلكان رحمه الله تعالى في ترجمته : وكان متوسعا في علوم الفلسفة والنجوم . قلت : والبيتان الرائيان المذكوران لأبي الطيب في مدحه يؤيد ما قاله ابن خلكان . وأقول : أليس هو بصاحب الصاحب بن عباد ، وقد كان من رجال المعتزلة ، وله في أصولهم مصنف . ومن المستحيل أن معتزليا لا ينظر في كتب الفلسفة (١) .

---

(١) نصره النائر ص ١٨٥ وما بعدها



وبذلك يقرر الصفدي الحقائق الأدبية ، بعد أن يسعى إليها في سبيلها السليمة  
عن طريق النصوص ، يبصر نافذ وخطي وثيدة ثابتة .

وعندما يصل الصفدي الى بيت الطغرائي :

إِنَّ الْعَلَّا حَدَّثَنِي - وَهِيَ صَادِقَةٌ - فَمَا تُحَدِّثُ أَنَّ الْعِزَّ فِي النُّقْلِ

يبرزه ما يرى فيه من صدق وابداع ، ولكن حاسته الناقدة لا يرضيها الاكتفاء  
بالاستمتاع قبل أن يذهب في التعليل كل مذهب ، ليكشف عن سر هذا الإبداع  
ما وسعه ذلك فيقول : « وقد استعار الحديث للـعـلا ، لأن العلاء أمور معنوية لا  
تتصف بالكلام ، ولكنه لما جرب وجود العز بالنقلة والحركة ، صارت التجربة عنده  
علماً استفاده ، فصار كأنه حدثه العلاء بذلك ، فاسند ذلك الى العلاء ، تعظيماً  
للرواية في إسنادها الى العلاء ، ليتلقاها السمع بالقبول . وقوله : ( وهي صادقة ) جملة  
اعتراضية اعترض بها ، وقد زاد الكلام حسناً لتأكيد الصدق عند المخاطب ، وهذا  
أبلغ من قوله : ان العلاء حدثني فيما تحدث أن العز في النقل (٢) . ولكي يطيل  
تذوقنا لهذا النوع من الاعتراض ، يذهب بنا في جولة بين النصوص الرفيعة فيقول :  
ومن اجل الاعتراضية قوله تعالى « فلا أقسم بمواقع النجوم - وإنه لقسم لو تعلمون -  
عظيم ، إنه لقرآن كريم . »

فاعترض اعتراضين : احدهما أصل والثاني فرع . الأول اعتراضه بقوله : ( وإنه  
لقسم ) بين قوله بمواقع وبين قوله إنه لقرآن كريم . الثاني أنه اعترض بقوله :  
( لو تعلمون ) بين قوله وإنه لقسم وبين قوله عظيم .

وقد رأيت ما أفادت الجملتان في الاعتراض من الجزالة والبلاغة . ومثل هذا  
الاعتراض يسميه البلاغون حشو اللوزينج . كقول عوف بن محلم :

---

(١) الغيث المسجم ٥٦/٢ - ٥٧

إِنَّ الثَّمَانِينَ - وَبُلَّغْتَهُمَا - قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانٍ

فقوله (وبلغتها) حشو يتم المعنى بدونه . وقول كثير عزة :

وَلَوْ أَنَّ عَزَّةَ حَاكَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْحُسْنِ - عِنْدَ مُوَفَّقِي - لَقَضَى لَهَا<sup>(١)</sup>

ونكتفي بما مر من نصوص ، رأينا فيها موهبة النقد عند الصفدي ، لننقل الكلام الى ذوقه فتعرف اليه من خلال آثاره .

وبعدُ فهذا نموذج بما تسرع بالصفدي حاسته للاستدراك على الأديب ما يراه في أداء معني ، أو اتقان صياغة ، ليم النص ما يراه من الاجادة والتأثير . من ذلك ما قاله في بيتي ابن سناء الملك :

لَهَا نَاطِرٌ يَاحْسِرَةَ الظُّبِيِّ إِذْ رَنَا بِهِ كَحَلِّ نَادَاهُ يَا خَجَلَةَ الكَحْلِ  
وَأَثَقَلَهَا الحُسْنُ الَّذِي قَدْ تَكَاثَرَتْ مَلَاحِظُهُ حَتَّى تَشَدَّتْ مِنَ الثَّقَلِ

« ولو كان لي في البيت الأول حكم لقلت : لها ناظر يا حيرة الظبي عنده ، ونخلصت من إذ وعدم وضعها للمجازاه .

« وأما قوله : وأثقلها الحسن : فابن جبارة<sup>(٢)</sup> معذور فيه ، لأن حُسناً يثقل صاحبه سمح بارد غث ، لأن الحسن إنما يفيد الخفة والحركة والنشاط ، وما مدح بالثقل غير الأرداف ، وما يتركها الشعراء بل يقرنونها بخفة الحصر ورشاقة القد .  
« ومنه قول شمسة الموصلية :

هَيْفَاءُ إِنْ قَالَ الشَّبَابُ لَهَا انْهَضِي قَالَتْ رَوَادِفُهَا اقْعُدِي وَتَمَهَّلِي<sup>(٣)</sup>

(١) الغيث المسجم ٥٨ / ٢

(٢) قال ابن جبارة في تعليقه على الأبيات : « كان الصواب أن يقول : أثقلته الملاحه التي قد تكاثرت حسنها . . [ ثم قال : ] وقد وكلت شرح هذا البيت - لعجزني عن معناه - الى عريف الجمالين فعساه يعرف معناه « الغيث ١ / ٢٤٣ .

(٣) المصدر السابق .

ونكتفي بما مر من نماذج تم عما توفر للصفدي من موهبة فطرية في النقد ،  
تعهدا بالمران والإغناء والصقل ، باطلاعه الواسع على تراث العرب الادبي الغزير ،  
وما حفظه من نصوصه الرفيعة ، فكانت له خير مورد يمتح منه ويعود اليه ،  
ليؤصل به اسلوبه الفني في النقد ، الذي يقوم على لقاء النصوص في المعنى الواحد  
أو الشعور المتقارب ، والمقارنة فيما بينها على هذا الأساس الفني المجرد الرفيع .

### ذوقه :

وفي الحديث عن ذوق الصفدي ؛ أنهج ما كان مني في طريق الكشف عن  
موهبة في النقد ، وذلك بتوك النصوص تتحدث بما فيها ، فنخرج بالحقيقة بعد ذلك .

وإن كان لا بد من كلمة سريعة أقولها هنا ، فهي أن الذوق المتمرس المدرب ،  
هو أول ما يرسب في نفوسنا عن الأديب الصفدي لدى مطالعة كتبه ، لما نراه من  
سمو مختاراته من ناحية ، وفي نظره ببعضها بما يدل على بصره بالنصوص من ناحية  
أخرى . ومن الطبيعي أن يكون هذا عند من عايش القريض والكتابة ، وعاناهما قارئاً  
وقائلاً ، ولازمته النصوص في كل ما يتعلق بالأدب والحديث فيه ، فقلما تحدث  
الصفدي في ميدان النقد حديثاً نظرياً ، لأنه أبعد ما يكون عن الغاية التعليمية  
ورصف القواعد النظرية ، التي كانت تحدو ابن الأثير في مولفاته .

فمن نظرات الصفدي المتذوقة ، رده على ابن الأثير في تعليقه وقد أورد  
قول أبي نواس :

أقنأ بها يوماً ويوماً وثالثاً      ويوماً له يوم الترحل خامس

بقوله : « مراده من ذلك أنهم أقاموا أربعة أيام . ويا عجباً له يأتي بمثل  
هذا البيت السخيف الدال على العي الفاحش في ضمن تلك الأبيات ... »

ويعجب الصفدي من وصف أمثال هذا الأداء بالسخف والعي فيقول : « ليس الأمر كما ادعاه من أنه أراد أنهم أقاموا أربعة أيام ، بل قد ذهب بعض المتأدبين إلى أن المقام كان سبعة أيام ، بدليل أنه أقام يوماً ويوماً وثالثاً فهذه ثلاثة أيام ، ثم قال ويوماً له يوم الترحل خامس فزاد الثلاثة أربعة آخر خامسها يوم الرحيل . وما يشك صاحب الذوق أن هذه العبارة أحسن من قوله أقمنا بها اسبوعاً ، وإن كان هذا أخصر في اللفظ ، ولكن ذلك له موقع (وبستطرد الصفدي فيقول ) :

« سلمنا أن المقام أربعة أيام ، لكنه كرر ذلك لعنى لم يوجد إلا في هذا التكرار ، وهو أن المقام في هذه الحالة مقام وصف لأيام قطعها في لذة ، فأخذ يعددها أفراداً غير جملة ويقول : أقمنا بها يوماً ويوماً ويوماً كالمثلذ بيئة كل يوم ، استحضرها في ذهنه وما مر لهم فيها من أنواع اللذات والمسرات . وهذا أمر متعارف في الخير والشر فيقال :

« واصلني يوماً في يوم في يوم في يوم ، وهجرني يوماً في يوم في يوم في يوم .

« ومن هذا قول مروان الأصغر :

سَقَى اللهُ نَجْدًا وَسَلَامًا عَلَى نَجْدٍ وَيَا حَبْدًا نَجْدٌ عَلَى النَّأْيِ وَالْبُعْدِ

« كرر ذلك تلذذاً بذكرها وتحرقاً بالشوق إليها ...

« والله در المتني حيث قال :

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضِدِ الدِّ . . دَوْلَةٍ فَنَّا خُسْرَوْ شِهِنْشَاهَا

أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةٌ ذَكَرْنَاهَا « (١)

هكذا يعيش الصفدي مع التجربة ، وينفذ بذوقه الى أغوار الأداء ، ليدرك

---

(١) نصره الناشر ص ٣١٥ وما بعدها .

موطن السحر في هذا التكرار ، بيد أنه وقع كما أرى في بعض التناقض لأن الأيام لا يمكن أن تكون سبعة بعد أن أدرك سر هذا التكرار ، وإلا فكيف يطوي أبو نواس الأيام الأخيرة طياً وهو يريد - د الاستعراض المتأني المصحوب بالتهنيدات كما رأيت ...

ومن ذلك قول الصفي بعد أن أورد بيتي الطغرائي :

وَرَدْنَا سُحَيْرًا بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ      وَقَدْ عُلِّقَتْ بِالْغَرْبِ أَيْدِي الرُّكَّابِ  
عَلَى حِينِ عَرَى مَنْكِبِ الشَّرْقِ جَذْبُهُ      مِنْ الصُّبْحِ وَاسْتَرَّخَى عِنَانَ الْغِيَاهِبِ

« ما أحسن هذه الاستعارة في ( عرى منكب الشرق ) وفي ( استرخاء عنان الليل ) يعني أن الصبح ظهر وانكشف ، والليل أسرع ذاهباً .

« والاستعارة الأولى من قول ذي الرمة :

وَقَدْ لَاحَ لِلسَّارِي الَّذِي كَمَلَ الشَّرَى      عَلَى أُخْرِيَاتِ اللَّيْلِ فَتَقُّ مُشَهَّرُ  
كَمَلِ الحِصَانِ الْأَنْبِطِ البَطْنِ قَائِمًا      تَمَائِلَ عَنْهُ الْجُلُ وَاللَّوْنُ أَشْقَرُ  
« فأخذه ابن المعتز فقال :

وَسَاقٍ يَجْعَلُ المَنْدِيلَ مِنْهُ      مَكَانَ حَمَائِلِ السَّيْفِ الطُّوَالِ  
غَدَا وَالصَّبْحُ تَحْتَ اللَّيْلِ بَادٍ      كَطَرْفِ أَشْقَرٍ مُلْقَى الجِلَالِ

« والاستعارة الثانية تشبه قول ابن عمار الاندلسي :

أَدْرِ الزُّجَاجَةَ فَالنَّسِيمُ قَدْ انْبَرَى      وَاللَّيْلُ قَدْ صَرَفَ العِنَانَ عَنِ الشَّرَى

« لكن ابن عمار كنى عن ذهاب الليل بصرف العنان ، والطغرائي كنى

عن ذهابه بارخاء العنان كأنه أسرع وولى هارباً (١) .

فلم يكتب الصفدي بلمس مواطن الحسن في الأبيات ؛ بل ذهب بعيداً - وهو الناقد الفني - في إغناء نفوسنا وتوسيع افق تذوقنا عن طريق المقارنة . فإيراده لأقوال الشعراء الآخرين لم تكن للإشارة الى أن هذا الشاعر سرق المعنى من ذلك ، وإنما يدفعه الى هذا امتاع تذوقه بالنظر الى المعنى أو الشعور وقد ترجمت عنه نفوس متعددة . ولامراء في أن هذا الأسلوب هو أحلى ما يتفتح له الذوق ويأنس به صاحبه .

وعلى هذا الأسلوب قال بعد ذكره بيتي مسلم بن الوليد :

يقولُ صَحْبِي وَقَدْ بَجَدُوا عَلَيَّ عَجَلٍ وَالْحَيْلُ تَسْتَنُّ بِالرُّكْبَانِ فِي اللَّجْمِ  
أَمْطَلِعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَوْمَّ بِنَا فَقُلْتُ كَلًّا وَلَكِنْ مَطْلِعَ الْكَرَمِ

« وهذا في غاية الحسن التي تكبو الفحول دون بلوغها ، ويعجز الشعراء عن الظفر بمصونها والتحلي بمصوغها . فإن عين السها تطيل النظر الى رفعتها وتأمل ، ومطايا التخيل تكل عن النهوض بعثها فتتحمل وما تتجمل .

« وقد أحسن أبو العلاء المعري كل الاحسان حيث قال :

مُواصِلَةٌ بِهَا رَحَلِي كَأَنِّي مِنْ الدُّنْيَا أُرِيدُ بِهَا انْفِصَالًا  
سَأَلَنْ فَقُلْتُ مَقْصِدُنَا سَعِيدٌ فَكَانَ اسْمُ الْأَمِيرِ لَهْنًا فَالَا

« هذا مما يطلب لحاقه فما تحمل الجواد قوائمه ، ويسبى له من كل حسن كرائه ، ويفتح له في البديع نور والقلوب كئائه ، ويُجلي الأسماع من الدر بسط لم يثقه ناظمه (٢) . »

(١) الغيث المسجم ٢٣ / ١

(٢) « « ١١٦ / ١ - ١١٨



ونلاحظ هنا أن الصفدي لم يدلنا بدقة ، على ما أعجبه في قول مسلم وكذلك في قول المعري ، بل سار في تعليقه على القولين على طريقة عصره في النقد ، القائمة على المبالغة في التكريظ ، مع التزام السجع والقصد اليه .

وإني إذ أبن أن هذا قلما لجأ إليه الصفدي مع النصوص ؛ أعتقد بأن شدة إعجابه بتعبير كل من الشاعرين ، دفعته الى أن يفسد على نفسه نشوتها ، بالتنقيب المتأني والتعليل الدقيق . ولا بأس من الاستمرار مع الصفدي ، في التعرف الى مدى ما يمتد اليه ذوقه . فنسمعه وهو يقول :

« ولا زلنا نستحسن الحكاية المروية عن المنث ، الذي أنشد أبو بكر الخالدي بحضرة قصيدته في سيف الدولة ، وقد تأتق في معانيها وروق ألفاظها وممكنها بقوافيها . من جملتها قوله :

وَأَنْكَرَتْ شَيْبَةً فِي الرَّأْسِ وَاحِدَةً      فَعَادَ يُسْخِطُهَا مَا كَانَ يُرْضِيهَا

« فقال المنث : أما تستحي تخاطب الأمير أن تقول ( في الرأس واحدة ) فجن الخالدي والحاضرون تعجباً ، فقال الخالدي : فما أقول ؟ قال : قل لائحة أو واضحة .

« وكذلك قول مهيار يتغزل :

فِي صَدْرِهَا حَجْرٌ وَتَحْتِ صَدْرِهَا      مَاءٌ يَشِيفُ وَبَانَةٌ تَتَعَطَّفُ

« فقله في صدرها حجر من أبشع لفظ ، لما فيه من إيحاء الدعاء (١) » .

ففي النص الأول ، ينفر الصفدي من الحشو الذي لا يضيف الى المعنى جديداً ، وقد ردد الصفدي مثل هذا في مواطن متعددة من كتابه ، منها قوله بعد أن أورد قول أبي الغيث الهذلي :

---

(١) الغث المسجم ١ / ١١٤ - ١١٥

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوِدَنِي صُدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصْبُ

« فذكر الرأس بعد الصداع حشو يستغنى عنه . وكذلك قول ديك الجن :

فَتَنَفَّسْتُ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُزِحْتُ بِالْمَاءِ وَاسْتَنْتَ سَنَى اللَّهَبِ  
كَتَنَفْسِ الرِّيحَانِ خَالَطَهُ مِنْ وَرْدٍ جَوْرِ نَاضِرِ الشَّعْبِ

فذكر الماء بعد المزج فضل يستغنى عنه ، والبيتان يكفي عنها قول أبي نواس :

فَتَنَفَّسْتُ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُزِحْتُ كَتَنَفْسِ الرِّيحَانِ فِي الْأَنْفِ « (١)

وبذا نرى تمسك الصفدي بإغناء المعنى ، ونفي كل لفظ لا يكون له وجود  
مكين في التعبير عن المعنى أو إغنائه .

أما في تعليقه على بيت مهباز ، فلقد أصاب الصفدي موطن الاثارة ، واستحق  
الشاعر منه كلمة أبشع التي عبر بها ، لكن « أيام الدعاء » أسبق ما وصل الى لسانه ،  
والحقيقة أن الجو الذي تنقلنا اليه لفظة ( الحجر ) بوحشته وقسوته ويبوسة ملمسه  
يبين كلية ما أراد الشاعر اطلاقه من شعوره ، وفي مثل هذا يستحب التفصيل  
وتشر الجزئيات ، لتستوعب الموقف وتستنفد الشعور .

ويطل على نفوره من الحشو ما عبر به الصفدي بعد ذكره خبر « الأمير بدر  
الدين بيليك الخازندار ، وقد أحضره الى القاهرة تاجر كان يحسن اليه وهو في رقه ،  
فلما باعه تنقلت به الأيام الى ما صار اليه . وافتقر التاجر فيما بعد ، فحضر إليه  
بالديار المصرية وكتب له رقعة فيها هذان البيتان :

كُنَّا جَمِيعَيْنِ فِي بُوْسٍ نُكَابِدُهُ وَالْقَلْبُ وَالطَّرْفُ مَنَافِي أَدَى وَقْدَى

(١) الغيث ١ / ١١٢

والآن أقبلت الدنيا عليك بما تهوى فلا تنسني إن الكرام إذا

إشارة الى البيت المتقدم :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الحشن

« قلت : وهذا عندي أشرف من التضمين الكامل ، وأطرب للفهم وأعذب للسمع . وفيه من البلاغة حسن التضمين مع ما في ذلك من الاختصار الذي هو من أشرف أنواع البلاغة ، لأنه يرفع عن المخاطب مؤنة الإصغاء وقرع السمع بما هو محفوظ مقرر في الذهن (١) » .

وهكذا يرى الصفدي في مثل هذه الاشارات المعبرة واللمحات المؤدية طرباً للفهم ، لا أحدثه من إثارته وإطلاق كوامن قدرته ، وعذوبة للسمع بما أوحاه لصاحبه من احترام له واعتراف بحسن فهمه وتذوقه وادراكه .

وكما يرتع ذوق الصفدي في رياض الشعر ؛ فانه كما رأينا لا يرى بأساً من تسم عبير ما راق من زهرات النثر بمثل قوله :

« وما أطرب لشيء كطربي لاستعارات القاضي الفاضل رحمه الله في مثل قوله : وتلك الجبهة وإن كانت غربية ، فإنها مستودع الأنوار وكنز دبنار الشمس ومصب أنهار النهار » وقوله « في ليلة جمد خمرها وخمد جمرها ، الى يوم تود البصلة لو ازدادت قميصاً الى قمصها والشمس لو جرت النار الى قرصها (٢) » .

كما يبدي اعجابه في كل مناسبة بسمو التعبير القرآني وغنى ألفاظه بما تعنيه وتوحيه وتخلفه من الأصداء الرحبة . فمنها « وقوله تعالى : ( وإنا وإبناكم لعلى هدى

(١) الغيث المسجم ١ / ١٣٥

(٢) « « ١ / ١٨٤

أو في ضلال مبین ) وفيه لطيفة ، وذلك أنه أتى بعلى للهدى وبفي للضلال ، لأن صاحب الهدى والحق كأنه مستعل على ما هو عليه ، كالجواد يركض كيف شاء ، وصاحب الضلال والباطل كأنه منغمس فيما هو فيه ، ورأسه منخفض لا يدري أين يتوجه . وهذا من لطائف القرآن وغوامض معانيه (١) .

لكن جولته بعيداً عن الشعر لا تعدو أن تكون التفاتة سريعة ، يعود بعدها الى القريض الذي يعيش به مرجعاً وقارئاً ، ويتنفس في أجوائه متذوقاً وناقداً ليقول :

« وما أحسن الفاء التي تكررت في قول الشنفرى :

بِعَيْنِي مَنْ أَمَسَتْ فَبَاتَتْ فَأَصْبَحَتْ فَقَضَّتْ أُمُوراً فَاسْتَقَلَّتْ فَوَلَّتْ » (٢)

وليت الصفدي لم يكتف بهذا الاستحسان وحده ، ولو أنه مثير يطلق التذوق في آفاق الخيال الرحبة ، بل ليته تغلغل أكثر ليقول إن هذه الفاء روح المشهد كله ، بعثت دفقة الحياة فيه ، فكأنها خطوات فاتنة الشنفرى هذه ولفتاتها وحركات كل جارحة فيها في كل ما صنعت ، فهي بحق نبضة الحياة تسري في كل حركة من حركاتها ، وترافقها منذ أن أمست الى أن تولت وغابت عن الأنظار . كما تدل هذه الفاء كذلك على ملازمة تتبعه لأدق حركاتها ، بقلب واجب ، ونفس تقيض بالحسرة والإعجاب .

« وقال ابن صردر :

قَوْمٌ إِذَا حَيَّ الضُّيُوفُ جَفَانَهُمْ رَدَّتْ عَلَيْهِمُ السُّنُّ النَّيِّرَانِ

(١) الغيث ٢١٢/١

(٢) « ١٩٤/١

« وهذه استعارة اخرى هي أكمل ، لأن في النار من اللسان شيئين وهما :  
الشكل الشبيه باللسان ، والزفير الشبيه بالتصويت (١) » .

وسمى هذا الذوق عند الصفدي لم يكن يأبى عليه استساغة أدب عصره ، شعره  
ونثره ، بما اكتسى من أثواب الصنعة والتكلف والبديع ، تلك الأثواب الصفيقة  
المزركشة على حساب المعاني ، ليختق تحتها في غالب الأحيان كل معنى أو شعور .

بيد أن للصفدي في شعر عصره هذا موقفاً واضحاً ، يقوم على تحقيق اللذة  
الحسية ، لكنه لا يقبل أن يكون ذلك على حساب المعنى ، بل إنه ليطالب بأن  
يكون تحقيق وجه من وجوه البديع مثلاً بغية خدمة المعنى أو الشعور ، في إغناء  
أو زيادة تأثير مع انتفاء ما يدل على التكلف . والنص الآتي للصفدي ، يحدثنا في  
هذا بما يكشف لنا عن ذوقه حيال نتاج عصره الأدبي فيقول :

« والجناس وإن كان من أنواع البديع لكن بعض صورته مستثقل . كقول  
ابن الفارض من قصيدة :

أَمَّا لَكَ عَنْ صَدِّ أَمَّا لَكَ عَنْ صَدِّ      لَظْلَمِكَ ظَاهِماً مِنْكَ مَيْلٌ لِعَطْفَةٍ  
فَرِحْنَ بِحُزْنٍ جَازَعَاتٍ بُعِيدَماً      فَرِحْنَ بِحُزْنِ الْجِزْعِ بِي لَشَيْبَتِي

« فانظر الى استئصال البيت الأول لما فيه من جناس التحريف في صد وصد ،  
الأول من الصدود والثاني صد أي عطشان . وفي ظلم وظلم ، الأول الظلم بالفتح  
وهو الريق ، والثاني بالضم وهو الجور ، مع التقديم والتأخير الذي يحتاج الى  
اقليدس حتى يستخرج ترتيبه على خط مستقيم . والتقدير فيه : أمالك ميل لعطفة  
عن صد ، أما لك ظلماً منك عن صد لظلمك .

« فأمالك الأولى مركبة من همزة الاستفهام وما النافية ولام الجر وكاف الخطاب ، وأمالك الثانية مركبة من فعل ماض من الإمالة وكاف الخطاب .

«وأما البيت الثاني ففيه فرحن مرتين . الأولى الفاء فاء العطف ، ورحن فعل ماض من الرواح لجماعة الاناث ، والثانية فعل ماض من الفرح لجماعة الاناث أيضاً . والراء في الأولى مضمومة وفي الثانية مكسورة .

« وفيه الحزن مرتين . الأولى بضم الحاء ضد الفرح ، والثانية بفتح الحاء من الارض ضد السهل .

« ولهذه الألفاظ التي عقدها عقد الميزان لأجل الجناس ، صار كلامه وحشياً من العوام بل من بعض الحواص الذين لم يتمهروا في الأدب ، وهذه الأشياء لا يخفى على ذي الذوق السليم ما فيها من الاستثقال ، ولم أقل هذا الكلام جهلاً بمقدار الشيخ شرف الدين بن الفارض رحمه الله ، وأنه لم يكن من الفصحاء .

« ألا ترى قصائده التي أخلاها من الجناس ، مثل الميميتين والجيمية واللامية والمهموزة وغيرها فما أرقها وأحلاها . »

« والجناس إذا كثر في الكلام ملٌّ ، اللهم إلا أن يكون سهل التركيب ليس على المتكلم فيه كلفة ، كما حكى عن بعض جواري المعتمد بن عباد ، أنها قالت وهما في سجن أغمات يا مولاي لقد هُنَّا هُنَّا . فقال المعتمد :

قَالَتْ لَقَدْ هُنَّا هُنَّا      مَوْلَايَ أَيْنَ جَاهُنَا  
قُلْتُ لَهَا إِهْنَا      صَيَّرْنَا إِلَى هُنَا <sup>(١)</sup>

وواضح من هذا النص أن شروط الصفدي لتقبل صنعة ما في الشعر ، لا يستطيعها إلا شاعر موهوب قدير ، قد غلب عليه طبعه فتأتي وجوه البديع لا لتزين الكلام ، بل لتقوم بدورها في أداء ما قصد الشاعر للتعبير عنه .

(١) الفيت ٢ / ٣٦ - ٣٧



لذا فان الصفدي عندما احتاج الى مثال يجسد فيه كلامه ، لم يجده إلا عند أمثال المعتمد بن عباد ، وهو في حال من البؤس ، تغمره فيها أمواج عاتية من الألم والشقاء ، لا تسمح له بالتظرف في قوله ، أو التكلف فيما يترجم به عما جاش في نفسه من شعور .

وإذا أردنا أخيراً أن نتعرف الى ذوق الصفدي من خلال مختاراته ، فلن نبتعد كثيراً وقد مر بنا - فيما عرضت له من نصوص - مختارات كثيرة دالة ؛ إضافة الى أنه كان يشير في ثنايا كتبه الى ما يستحسنه من شعر الشعراء .

من ذلك قوله في اشارة سريعة « ويعجبني أبيات الخطيئة وإن كان فيها طول وطاوى ثلاث (١) . . . » وهذه القصيدة إن هي إلا مجموعة من المشاهد النابضة بالحياة ، تتحرك فيها شخصياتها ماثلة للعيان ، وقد أخذ كل منهم سمته المميزة له ، عبر عنها فيما ألقاه الخطيئة على لسانه ، فكانت في النهاية قصة من واقع الحياة والصحراء .

والحق إن اعجاب الصفدي بتصوير المشاهد الحية لم يكن بدعاً في اشارته هذه ، بل لقد ردد ذلك أكثر من مرة ، قرنه هناك بما يظهر إعجابه بقدرة الشاعر على تصوير الحركة بما سيرد في حينه .

كما كان من مختاراته التي طرب لها قول ابن خفاجه في معرض حديثه عن استخدام الأدباء للالوان فقال :

« والعلم المشهور في هذا قول الحريري في المقامة الثالثة عشرة : فمذ اغبر العيش الأخضر ، وازور المحبوب الأصفر ، اسود يومي الأبيض ، وابيض فتودي الأسود ، حتى رثى لي العدو الأزرق ، فحبذا الموت الأحمر (٢) . »

---

(١) الغيث ١ / ٢٥٣

(٢) « ١ / ٢٢٦

وقول ابن خفاجة :

لقد جُبتُ دونَ الحيِّ كلَّ تنوِّفةٍ      وَخُضْتُ ظِلَامَ اللَّيْلِ يَسُودُ فَحْمَةً  
وَجِئْتُ دِيَارَ الْحَيِّ وَاللَّيْلُ مُطْرِفٌ      أَشِيمُ بِهَا بَرَقَ الْحَدِيدِ وَرُبَّمَا  
فَلَمْ أَلْقَ إِلَّا صَعْدَةً فَوْقَ لَأْمَةٍ      وَلَا سِمْتٌ إِلَّا غُرَّةٌ فَوْقَ أَشْقَرٍ  
فَسِرْتُ وَقَلْبُ الْبَرَقِ يَخْفِقُ غَيْرَةً      هُنَاكَ وَعَيْنُ النَّجْمِ تَنْظُرُ عَنْ شَرِّهِ (١)

ونختم الكلام حول ذوقه ومحاولة الكشف عن مختلف جوانبه ، بما كان من مختاراته الشعرية في الرد على ابن الأثير بقوله :

« قال ( ابن الأثير ) ومن ذلك ما ذكرته في ذم الدنيا . وهو :

« أنكاد الدنيا مشوبة بالأشياء التي جبلت النفوس على حبها ، وكل ما تستلذه الأبدان من مأكلا فانه يضرها من جهة طباها ، ولهذا تنمُّ من منفعة الهليلج ومضرة اللوزينج ، وأعجب من ذلك أنه لا ينتفع الإنسان بشيء من انتها إلا ضرته من جهة ثوابه ، فهو كالذي ينتفع باصطلاء النار وهي محرقة لأثوابه . . . وقد ضرب لذلك مثل من الأمثال وقيل : إن كل ما ينفع الكبد مضر بالطحال . »

( ويعلق الصفيدي على هذا فيقول ) :

(١) الغيث المسجُم ١ / ٢٣٣

« أنظر الى هذه الركة والعامية ، ألا تراه أشبه شيء بكلام العجائز قوابل النساء اذا أخذن يعظن ويضربن الأمثال ، أكذا توصف الدنيا في حالة الذم . . . أتراه ما سمع بشيء من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ قال له رجل : صف لنا الدنيا . فقال ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، حلالها حساب وحرامها عذاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر حزن .

« ولا بشيء من أقوال الحكماء فيها كقول بعضهم : الدنيا أمل بين يديك ، وأجل مطل عليك ، وشيطان فتان ، وأمانى جرارة العنان ، تدعوك فتستجيب ، وتدعوها فتخيب .

« أما سمع بزهديات أبي نواس التي منها :

وما النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وابنُ هَالِكٍ      وذو نَسَبٍ في الهَالِكِينَ عَرِيقِ  
إذا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكشَفَتْ      لَهُ عَنْ عُدُوِّ في ثِيَابِ صَدِيقِ

« حتى إن الرشيد أو المأمون قال : لو وصفت الدنيا نفسها ما وصفت بأكثر من قول أبي نواس . أما سمع بشيء من أقوال أبي العتاهية وصالح بن القدوس ومحمود الوراق ومن تعرض لدمها من الشعراء كالمتنبى وأبي تمام وغيرها . أما سمع بقول الزمخشري . . . أما وقف على رسائل المعري في ذم الدنيا . . . وبقول ابن السبل البغدادي . . . أما وقف على الخطب النبائية ورأى كلامه فيها . . . حتى يقول الهليلج واللوزينج والكبد والطحال . . . (١) .

وجدير بالذكر أن الصفدي هنا تناول نماذجه من أرفع مصادرها وأسمى نصوصها ، فلم يعرج على شيء من إنتاج عصره على غزارته ، بجارة لذوقه ، وادراكاً منه لما كان عليه هذا الانتاج من التخلف والتقصير .

---

(١) لصرة الثائر ص ١١٦

## غزارة محفوظ الأدبي :

قد يتبادر الى الذهن أن من نافلة القول الكلام في المحفوظ الأدبي عند ناقد ما ، وليس الاطلاع الأدبي فحسب ، فاذا تذكرنا أن المقاييس النقدية في أمة من الأمم انما تستقى من آثارها الأدبية الرفيعة ، أدركنا أهمية اطلاع الناقد على أدب أمته ، وإتقانه لما سما من نصوصها وآثارها ، ليقم بذلك أحد الركائز الأساسية التي تؤهله للتصدي لأدبها بالدراسة والنقد وملاحظة الظواهر المتجددة .

ولو أردنا بالتالي أن نختصر الجهد لاستطعنا أن نتعرف الى ما يحفظه الصفدي من تراث الأدب العربي الغزير ، من خلال معرفتنا لجوانب ثقافته التي صرح فيها بالعلوم التي يوصي المتأديين باتقانها أو الإلمام بها . ومنها ما يتعلق بالنصوص « حفظ جانب جيد من شعر العرب والمخضرمين والمحدثين وفحول المتأخرين ، وحفظ جيد الحماسة ومختار المفضليات وبعض قصائد منتهى الطلب جمع ابن ميمون ، وحفظ جانب جيد من المقامات والخطب النشباتية ، وبعض ديوان المتنبي وأبي تمام والبحثري وسقط الزند وغير ذلك »<sup>(٢)</sup>

لكن ما سنحصيه من المعرفة عن هذا السبيل ستكون قاصرة لأن الادعاء غير الواقع من جهة ، ولأن غايتنا أبعد من ذلك من جهة اخرى . فغايتنا هي الكشف عن محفوظه ذاك ، من نواحي النوع والمستوى الفني بالكم ، ثم مدى استفادته من هذا المحفوظ وتحريكه في مجال نشاطه في دراسة الأدب ونقده .

ولم نمتلكاً في هذا والنصوص الدالة لا تحصى في كتبه كثيرة ، وهذه بعض نماذج منها مما نلّس فيها ما قصدنا اليه .

« قال ( ابن الأثير ) وكذلك جاء قول بعض المغاربة في الخمر وكأسها وهو :

---

(١) نصره الناشر ص ٦٤

تُقَلَّتْ زُجَاجَاتُ أَتْنَا فُرْعَاً      حَتَّى إِذَا مُلِئَتْ بِبِصْرِفِ الرَّاحِ  
خَفَّتْ فَكَادَتْ أَنْ تَطِيرَ بِمَا حَوَتْ      وَكَذَا الْجُسُومُ تَخِفُّ بِالْأَرْوَاحِ

« وهذا معنى مبتدع أشهد أنه يفعل بالعقول فعل الخمر سكرًا ، ويرق كما رقت لطفًا ويفوح كما فاحت نشرًا » .

ويعقب الصفدي على هذا نثرًا أمامنا مجموعة من الأشعار من صوب محفوظه مما قيل في هذا المعنى فيقول :

« هما لأبي علي ادريس الباني وأصل المعنى لابن المعتز حيث قال :

وَزَنَا الْكُأْسَ فَارِغَةً وَمَلَأَى      فَكَانَ الْوِزْنُ بَيْنَهُمَا سَوَاءً

« ولكنه زاده مبالغة وهي أن الكؤوس استفادت بالخمر خفة ، ثم إنه أراد لذلك مثالاً في الخارج فلم يجده إلا في الروح والجسم .

« ولابن حمديس هذا المعنى بعينه فإنه قال :

وَكَأْسٍ نَشْوَانٍ فِيهَا الشَّمْسُ بِازِغَةٍ      بَاتَتْ تُدِيمُ إِلَى الْإِصْبَاحِ لَثْمَ فَمَةٍ  
تَخِفُّ مَلَأَى وَتَعْطِي الثَّقَلَ فَارِغَةً      كَالْجِسْمِ عِنْدَ وُجُودِ الرُّوحِ أَوْ عَدَمِهِ

« وقال أيضاً :

بِجَامٍ تُجْمَعُ شُرْبُهُ لَدَاتِنَا      وَعُقُولُنَا بِالسُّكْرِ مِنْهُ تَبَدُّدُ  
وَيَخِفُّ مَلَانًا وَيَثْقُلُ فَارِغًا      كَالْجِسْمِ يُعَدَمُ رُوحَهُ أَوْ يُوْجَدُ

« على أن ابن حمديس أتى بالمعنى كاملاً في بيت واحد ، وادريس الباني إنما أتى به في بيتين ولكن نظم ادريس أعلق بالقلب وأوقع في النفس وأعذب في السمع .

« وقريب من هذا المعنى قول أبي العلاء المعري في اللزوميات :  
 لم يَكُنِ الدَّنُّ غَيْرَ نُكْرٍ سُلَاقَةُ الرَّاحِ عَرَفَتْهُ  
 كَأَدَمٍ صَيْغَ مِنْ تُرَابٍ وَنَفَخَةُ الرُّوحِ شَرَفَتْهُ  
 وكلاهما تسلق على هذا المعنى ونقله الى الثقل والحفة والافو هو (١) » .

وننتقل مع الصفدي في محفوظه الى وصف الأزهار ، إذ يثيره ابن الأثير بما كتبه في وصف اللينوفر ، فينبري له الصفدي تحف به نصوصه في هذا المعنى ، ليتدفق بما يجيا في ذاكرته منها ، وأغلبه هذه المرة من شعر المتأخرين ، لأن وصف اللينوفر والأزهار بعامة مما لم يطرقه شعراء العصور المتقدمة فيقول :

« ومن طريف ما جاء للشعراء في اللينوفر قول الخبز أرزي :

خَافَ الْمَلَالَ إِذَا طَالَتْ إِقَامَتُهُ فَصَارَ يَظْهَرُ أَحْيَانًا وَيَحْتَجِبُ  
 كَأَنَّهُ حِينَ يَبْدُو مِنْ مَطَالِعِهِ صَبٌّ يُقْبَلُ حَبًّا وَهُوَ يَرْتَقِبُ

« وما أحسن قول مجير الدين محمد بن تميم :

غَدَا اللَّيْنَوَفْرُ الْمُصْفَرُّ يَحْكِي النُّجُومَ فَلَا يُغَادِرُهَا شَيْبًا  
 تَغُوصُ الْعَيْنُ فِيهِ إِذَا تَجَلَّى النَّهَارُ وَفِي الظَّلَامِ يَغُوصُ فِيهَا

« وقد استخدم العين هنا في معنيين : أولهما العين الباصرة ، والثاني العين الجارحة .

« وقول ابن حمديس الصقلي :

إِشْرَبْ عَلَى بَرَكَةِ لَيْنَوَفْرِ مُصْفَرَّةِ الْأَوْزَاقِ خَضْرَاءِ

(١) نصره الثائر ص ٢٢٤ وما بعدها



كَأَنَّمَا أَزْهَارُهَا أَخْرَجَتْهُ أَلْسِنَةُ النَّارِ مِنَ الْمَاءِ

« وما أطف قول التنوخي من أبيات :

أَلْفَ الْمِيَاهِ مُشَاكِلًا بِلَطَافَةٍ      حَتَّى يُفَارِقَ شَكْلَهُ لَمْ يَصْبِرِ  
فَيَقُومُ طَوْرًا ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ      بَتَخْتٍ وَتَأْوُدٍ وَتَكْسِرِ  
وَكَأَنَّهُ فِي الْمَاءِ صَاحِبُ مَذْهَبٍ      أَغْرَاهُ وَسَوَّاسٌ بَأْنُ لَمْ يَطْهَرِ

« وقول الآخر :

كَأَنَّ أَيْنُوفَهَا عَاشِقٌ      نَهَارَهُ يَرْقُبُ وَجْهَ الْحَبِيبِ  
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ بَدَأَ سِجْفُهُ      وَانْصَرَفَ الْمَحْبُوبُ نَحْوَ الْكَيْبِ  
غَمَّضَ عَيْنَيْهِ عَسَى أَنْ يَرَى      فِي النَّوْمِ مَنْ فَازَ بِهِ عَنْ قَرِيبِ

« وبالغ الآخر في الظرف حين قال :

وَكَأَنَّهُ إِذْ غَابَ وَقْتَ مَسَائِهِ      فِي الْمَاءِ وَاحْتَجَبَتْ نَضَارَةُ قَدِّهِ  
صَبٌّ يَهْدُهُ الْحَبِيبُ بِهَجْرِهِ      ظُلْمًا فَغَرَّقَ نَفْسَهُ مِنْ وَجْدِهِ

« وقال الوجيه بن الندوي يهجو اللينوفر المصري :

وَأَيْنُوفِي أَبْدَى لَنَا بَاطِنًا لَهُ      مَعَ الظَّاهِرِ الْمُخْضَرِّ جَمْرَةَ عَنْدَمِ  
فَشَبَّهْتُهُ لَمَّا قَصَدْتُ هِجَاعَهُ      بِكَاسَاتِ حَجَّامِ بِهَا لَوْثَةُ الدَّمِ « (١)

(١) نصره الشاعر ص ٢٣٠ وما بعدها

ونُدع حديث الخمر ووصف الأزهار الى دوحة الغزل . ، نستمع في ظلها الى ما يرويه لنا الصفدي ، من أرق ما قيل في هذا المجال منذ العصر الجاهلي الى زمنه ، فهذا باب ووجه كل أحد من الشعراء .

وينطلق الصفدي في ايراده لهذه النماذج ، من مناقشته كلام ابن الأثير وقد ذكر أنه أملى رسالة من عاشق الى معشوق كلفه بها أحد أصدقائه ، وانتالت الأشعار على لسان الصفدي ، تتحدث في المعاني التي وردت في رسالة ابن الأثير ، تتبين من خلال ذلك ، سوء استخدام ابن الأثير لمعاني الشعراء في الغزل عبر العصور الأدبية المتطاولة .

وسأجتزئ هنا بعبارة يسيرة بما قاله الصفدي في الرسالة ، نلم منها بجو هذه الرسالة عندما قال يصفها :

« هذه العبارة والتهديد تصلح أن تكون في حق عدو خرج عن الصداقة الى العداوة ، أو مسؤول أكثر الظلم والفساد في البلاد والعباد ، ولم يفده الإنذار ولا التحذير ، أو عبد خرج عن طاعة مولاه ولم يخف سلطانه .

« أما وقف هذا على شعر المتيمين من العرب ، الذين خاطبوا أحبائهم وتوسلوا في طلب الوصال ، وتلطفوا في طلب الرضا والمساعدة على الهوى .

« أكذا قال قيس بن ذريح ، وعبد الله بن العجلان النهدي ، وعروة بن حزام ، وأبو ذؤيب ، وقيس المجنون ، وجميل بثينة ، وكثير عزة .

أكذا تغزل عمر بن أبي ربيعة ، والحارث بن خالد ، والعباس بن الأحنف .

« أما سمع بقول أبي الطيب :

زَيْدِي أَذَى مَهْجَتِي أَزِدُكَ هَوَى  
فَأَجْمَلُ النَّاسِ عَاشِقُ حَاقِدُ

« وقول أبي فراس :

أَسَاءَ فَزَادَتْهُ الْإِسَاءَةُ حُظُوتُهُ      حَبِيبٌ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ حَبِيبٌ  
يَعُدُّ عَلَيَّ الْوَاشِيَانِ ذُنُوبَهُ      وَمِنْ أَيْنَ لِلوَجْهِ الْجَمِيلِ ذُنُوبٌ  
« وقول الآخر :

لَئِنْ سَاءَنِي أَنْ نَلْتَنِي بِمَسَاءَةٍ      لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكَ  
« وقول الآخر :

وَيَدُلُّ هَجْرُكُمْ عَلَيَّ      أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكُمْ  
« أما سمع قول المعري :

لِغَيْرِي زَكَاةٌ مِنْ جَمَالٍ فَإِنْ تَكُنْ      زَكَاةُ جَمَالٍ فَاذْكُرِي ابْنَ سَبِيلِ

« ما أحلى قوله فاذكري ابن سبيل إن اخرجت زكاة جمالك ، لم يأمرها  
بصرفها اليه ولا أوجبها عليها (صنيع ابن الأثير في رسالته) بل قال : ان كان  
شيء فاذكري ابن السبيل المستحق .

« ومن هذا قول كثير عزة :

لَئِنْ كَانَ يُهْدَى بَرْدُ أَنْبِيَائِهَا الْعَلَا      لِأَفْقَرِ مِنِّي إِنَّنِي لَفَقِيرٌ

« على أن معناه مشكل إذا تأملته حق التأمل ، وليس هذا مكان الكلام عليه .

« وما أطف بن سناء الملك في قوله :

وِغَانِيَةٍ لَمْ تَعُدْ عَشْرِينَ حِجَّةً      أَقُولُ لَهَا قَوْلًا لَدَيْهِ صَوَابٌ  
عَلَيْكَ زَكَاةٌ فَاجْعَلِيهَا وَصَالَنَا      فَعُمْرُكَ فِي الْعَشْرِينَ وَهِيَ نِصَابٌ

« وقول ناصر الدين بن النقيب :

لَقَدْ وَجِبَتْ عَلَيْكَ زَكَاةُ حُسْنٍ      وفيه كمثل ما في المالِ حَقُّ  
فلا تعدلُ به عني فإني      لمصرفه الفقيرُ المُستحقُّ

« أما سمع بقول جميل بن معمر العذري :

لا خيرَ في الحبِّ وقفاً لا تُحرِّكه      عوارضُ اليأسِ أو يعتاده الطَّمَعُ  
لو كان لي صبرُها أو عندها جزعي      لَكُنْتُ أَعْرِفُ مَا آتَى وما أَدَعُ

« وقول أبي الطيب :

وأحلى الهوى ما شكَّ في الوصلِ رَبُّهُ      وفي الهجرِ فهو الدَّهرُ يخشى ويتقي

« وقول كشاجم :

لولا اطَّرادُ الصَّيدِ لم تكُ لَذَّةٌ      فتطاردي لي بالوصالِ قليلا  
هذا الشَّرابُ أخو الحياةِ وماله      من لَذَّةٍ حتى يُصيبَ غليلا

« وقول العباس بن الأحنف :

وأحسنُ أيامِ الهوى يومك الذي      تُروِّعُ بالهجرانِ فيه وبالعتبِ  
إذا لم يكن في الحبِّ سُخطٌ ولا رضى      فأين حلاواتُ الرِّسائلِ والكتبِ

« وقول علية بنت المهدي :

وَضِعَ الحُبُّ على الجَوْرِ فلو      أنصفَ المَعشوقُ فيه لَسَمِحَ  
ليس يُستَحسنُ في شرعِ الهوى      عاشقٌ يُحسِنُ تأليفَ الحُججِ

« أما سمع بقول محمد بن بشير الخارجي :

ولقد أردتُ الصبرَ عنك فعاقني      حلقُ بقلبي من هوائِكَ قديمُ

يَبْقَى عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ وَصِرْفِهِ وَعَلَى جَفَائِكَ إِنَّهُ لَكَرِيمٌ

« وما أحسن قول العباس بن الأحنف حين عنف أحبابه على المطل بالوصل :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ هَوَى  
وَلَمْ يَكْ مَوْصُولًا بِجَبَلِكُمْ حَبْلِي  
وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي لَكُمْ مِنْ مُحَدِّثِ  
يُحَدِّثُ عَنْكُمْ بِالْمَلَالَةِ وَالْمَطْلِ

« وما قلت أنا :

وَإِذَا تَهَّتْكَ فِي الْهَوَى سِرِّي غَدَا  
وَتَحَدَّثْتُ بِصَبَابَتِي السَّمَارُ  
أَوْ قِيلَ ذَا الْمِسْكِينَ أَصْلُ جُنُونِهِ  
سِحْرُ الْعُيُونِ وَمَا لَهُ أَنْصَارُ  
أَيُّجَلُّ فِي شَرْعِ الْهَوَى هَذَا؟ وَمَنْ  
أَفْتَى بَأَنَّ دَمَ الْمُحِبِّ جُبَارُ  
وَعَلِمْتُ أَنَّ هَوَاكَ أَصْلُ بَلِيَّتِي  
فَعَلَى صُدُودِكَ لَا عَلَيَّ الْعَارُ

« أما سمع بما قنع به المحبون مثل جميل حيث يقول :

وَإِنِّي لِرَاضٍ مِنْكَ يَا بَثْنُ بِالَّذِي  
لَوْ أَيقَنَهُ الْوَاشِي لَقَرَّتْ بِلَابِلُهُ  
بِلا وَبِأَنَّ لَا أَسْتَطِيعَ وَبِالْمُنَى  
وَبِالْوَعْدِ حَتَّى يَسْأَمَ الْوَعْدَ مَاطِلُهُ  
وَبِالنَّظَرَةِ الْعَجَلَى وَبِالْحَوْلِ تَنْقِضِي  
أَوْ آخِرُهُ لَا نَلْتَقِي وَأَوَائِلُهُ

« وجهدر حيث يقول :

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو  
وَإِيَّانَا فَذَاكَ بِنَا تَدَانِ  
وَتَنْظُرُ لِلْمِلَالِ كَمَا أَرَاهُ  
وَيَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَانِي

« والآخر حيث يقول :

ألى الطائر النَّسْرَ أَنْظُرِي كُلَّ لَيْلَةٍ      فَأِنِّي إِلَيْهِ بِالْعَشِيَّةِ نَاطِرُ  
عسى يَلْتَقِي طَرْفِي وَطَرْفَكَ عِنْدَهُ      فَتَشْكُو جَمِيعاً مَا تُجِنُّ الضَّمَائِرُ

« وأبي العلاء المعري حيث يقول :

لَاقَاكَ فِي أَعَامِ الَّذِي وَتَى وَلَمْ      يَسْأَلْكَ إِلَّا قُبْلَةَ فِي الْقَابِلِ  
إِنَّ الْبَخِيلَ إِذَا تَمَدُّهُ الْمَدَى      فِي الْجُودِ هَانَ عَلَيْهِ بَدَلُ النَّائِلِ»<sup>(١)</sup>

والصفدي لم يأت بهذه النماذج كلها لمجرد أنها في الغزل فحسب ، ولكنه أتى بها ليدلنا على المصدر الذي انتزع منه ابن الأثير ما ساقه في رسالته من معان مرصوفة ، بعد أن جرده من الإيجاز الموحى والمجاز المعبر .

كما كان من غاية الصفدي كذلك أن يترك لنا الفرصة للمقارنة وإدراك البون بين أداء الشاعر للمعنى - وقد نفخ فيه من شعوره وحرارة وجدده ورشاقة عبارته - وبين استخدام ابن الأثير لهذا المعنى ، بعد أن حوله إلى جسد هامد وعبارات جافة .

وجدير بالذكر أن الصفدي في مختاراته ونقده خير منه في شعره . وقد يكون من أسباب ذلك ما ذكره ابن حجة<sup>(٢)</sup> حيث قال فيه : « إن الشيخ صلاح الدين - سأل الله - كان من المكثرين ، وكان هو والشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة يرضيان لرغبتها في الكثرة بالأشياء الرخيصة » .

وإني وإن رأيت الالتفات إلى هذا أشير فأقول بأن مثل هذا لا يعض البتة من منزلة الناقد ؛ إذ لا يشترط في ناقد الفن أن يحسن أدائه . علماً بأن عناصر الشعرية لم تعزب عن الأديب الصفدي مما لا مجال هنا للكلام فيه .

(١) نصره الثائر ص ٢٤٧ وما بعدها

(٢) خزانة الأدب ص ٣٠٩



وهنا أجد من المناسب الاكتفاء بما عرضت دليلاً على غزارة ما زخرت به  
حافضة الصفدي ، من مختارات أدبية في القريض والنثر ، لأن وفرة هذا المحفوظ  
تتبدى للقاصد في كل النصوص التي عرضتها وأتعرض إليها فيما يلي ، ليس تحت هذا  
العنوان فحسب ، بل في كل فصول الدراسة القائمة .

### تواضع :

إذا كان العُجب والكِبْر بما أساء ابن الأثير ، ووصم الكثير من أقواله وآرائه  
بالهوى والانحياز إلى النفس إعجاباً بها ، ومجانبة الصواب في عدم استعداده الاصغاء  
إلى غيره ، أو الالتفات إلى قوله أو الاعتراف له بحسن أو اجادة مع اقتباسه  
الدائم ، وادعائه الكثير ؛ فإن الصفدي كان على النقيض من ذلك . وكان يعبر في  
كل مناسبة عن نفوره من التيه والعجب وثنائه على التواضع ، وأورد لذلك بعضاً  
من الأحاديث النبوية والقدسية ، كما استشهد بقول بعض الحكماء بأن « البلية التي  
لا يؤجر المرء عليها العجب ، والنعمة التي لا يحسد عليها التواضع . وبما قيل : لا شيء  
أكرم للمحاسن من التيه والعجب (١) » .

حتى إن الصفدي كان يعترف لخصمه بالفضل ، رغم الاختلاف المنهجي العميق  
الذي كان في ذلك الحين شيئاً كبيراً ، إذ يقول في ابن أبي الحديد وقله الدائر  
بتواضعه المعهود وعلى أنني بعد ابن أبي الحديد ، كمن جاء بعد اجتفاف سيل ،  
وأصبح بعد قاطف النهار حاطب ليل (٢) . هذا مع يقينه التام بأن ابن أبي الحديد  
بروحه الجدلية الثقيلة بعيد كلية عن رياض الشعر وتذوقه والانفعال به . وقد صرح

---

(١) نصره الثائر ص ٤٤

(٢) المصدر السابق

بذلك حين قال فيه : « والمعتزلة فرسان المبحث ومن توفرت لهم الهمم على الجدل (١) »  
كما أشار الى هذا حين قال : « فلما وقفت على الفلك الدائر وجدته قد أغفل كثيراً  
وأخذ قليلاً وترك أثيراً (٢) » .

ولم يكن القليل سوى ما غلب على الفلك الدائر من مسائل الفقه والنحو والمنطق ،  
كما كان هذا الأثير الذي عناه ؛ إنما هو مسائل الأدب والشعر وصوره وعناصره  
وأساليب أدائه فالشعر في نظر ابن أبي الحديد إنما « بني على الاجتهاد والطلب (٣) »  
وأن الشاعر « يرتب المقدمتين والنتيجة وقت نظمه (٤) » ، ويعلق الصفيدي على هذه  
الأقوال بهدوء بأن « من جهل شيئاً عاداه (٥) » ، ومع كل هذا نرى الصفيدي  
لا يتردد في تفضيل شرح ابن أبي الحديد على شرحه هو لبيت المتنبي :

يا بَدْرُ يا بَحْرُ يا غَمَامَةٌ يا  
لَيْثَ الشَّرَى يا حِمَامُ يا رَجُلُ

بقوله : « على أن هذا التأويل ليس في قوة ما ذكره ابن أبي الحديد ولا في حسنه (٦) »  
وبلغ من تواضعه ، أنه قال مرة بعد أن أدرك الصواب في مناقشته مع ابن  
الأثير في ثقة العالم « وما أظن بابن الأثير - رحمه الله - أنه جهل هذا ، ولكنها غفلة  
ليس إلا (٧) » .

والحق إن صفة التواضع والمرونة لما يحمده في الناقد الأدبي ، فليس في

- 
- (١) نصره الثائر ص ٥١
  - (٢) « « ص ٤٤
  - (٣) في المثل السائر ٤ / ٣٠٨
  - (٤) « « ٤ / ١٩٢
  - (٥) نصره الثائر ص ١٨٧
  - (٦) « « ص ٢٨٨
  - (٧) « « ص ١٣٨

مسائل الأدب وتذوقه حدود قاسية ، وقواعد ثابتة ، وأحكام لا تقبل الرد ، فما أكثر ما تتغير الحقائق الأدبية التي يظن لها الخلود مع اكتشاف قول أو العثور على قصيدة أخفاها غبار السنين . كما أن في إصغاء الناقد لما يصل إليه غيره قد يوقفه على أمر طال فيه تردده . أو تفسير حقيقة أدبية أدنى إلى الصواب بما رأى .

### تجربه الفني :

وتأتي صفة التجرد الفني عند الصفدي ملازمة لطبيعة التواضع الآتفة ، وتواضع المرء لا يسمح له بتكبر الصواب جرياً وراء الهوى وسعياً لفرضه ، هذا مع الاعتراف بتباين الأذواق ودورها في اختلاف الأحكام على النصوص ، وهذا لا ينفي القدر المشترك من الذوق العام من جهة ، ووجود عناصر ملهوسة في النصوص . للعقل دوره في مناقشتها وتقويمها من جهة أخرى .

والأمثلة كثيرة على ما تمتع به الصفدي من نزاهة وتجرد في ممارسة النصوص والحكم فيها . من ذلك ما قاله عند حديثه عن المثل السائر بأنه « من الكتب التي خفقت له في الاشتهار عذبات أوراقه ، وسعى القلم في خدمته على رأسه إذا سمع الخادم على ساقه . واشتهر بين أهل الانشاء ، اشتهار الليل بالكتان والنهار بالإفشاء ، لا بل اشتهار بني عذرة في الحب بتحرق الأحشاء . وأولع به أهل الأدب في الآفاق ، ولع الكرمين بالإنفاق ، لا بل ولع الرقباء بالعشاق (١) » .

وربما لا يكون النص السالف كافياً للدلالة على التجرد الفني ، لأنه إنما يتحدث عن كتاب اشتهر في عصره وخاصة بين الأوساط الأدبية ، وتصدر العقل للحكم

---

(١) نصره الناشر ص ٤١

عليه مستفيداً من العناصر الحسية التي تؤلف الرأي في هذا الكتاب ، وليس من الضروري أن يكون المرء في هذه الحال ناقداً .

ومها يكن من أمر فان رأي الصفدي هذا لا يخلو من دلالة ناصعة على بعده عن التعصب في أحكامه عامة .

فلا بد على أية حال من نص أدبي نختاره ، بما كتب ابن الأثير نفسه . من ذلك قوله في وصف كلام بالفصاحة « وإذا اختصر واصفه قال : إنه يستميل سمع الطروب ، ويستخف وقار القلوب . ويعلق الصفدي قائلاً « إذا كان يستميل سمع الطروب فما في هذا كبير مدح ، وذلك أن صيغة فعول مبالغة فيمن يطرب ، ولا يقال طروب إلا لمن يميل لأدنى لذة ، ويتحرك لأقل نعمة ، مثل أكول وشروب لكثير الأكل والشرب لما يمر به .

« وإذا كان الذي يميل إلى الطرب ويتكرر منه ذلك يطرب لهذا الكلام فما في هذا مزية توجب مدحه . ولهذا قيل : المستعد للشيء يكفيه أدنى سبب . وإنما المدح أن يقال : يستميل من لا يرتاح للطرب » .

إلى هنا والصفدي كما ترى يفصل القول في بيان خطأ المعنى ، وسوء مدلوله في المديح ، فاذا انتقل مع ابن الأثير إلى العبارة الثانية ؛ سارع الرضا إلى حياها فكأنما عثر على ضالته ، فعبر عن ذلك بقوله : « كما قال في الثانية ( ويستخف وقار القلوب ) فان هذا هو المدح المعهود » .

ولم يكتب برضاه عن العبارة فحسب ؛ بل دفعه طربه لها إلى الاستمرار في الحديث عليها والدفاع عنها بقوله « فان قلت هذا يرد على البحثري في قوله :

مُسْتَمِيلٌ سَمِعَ الطَّرُوبِ الْمُعْنَى عَنْ أَغَانِيٍّ مَعْبُدٍ وَعَقِيدٍ

قلت : هذا بما يؤيد ما قلته ، لأنه قال : يستميل سمع الطروب المعنى عن

سماع ألحان معبد وعقيد اللذين هما أصل الغناء ، وإذا كان يلفت من بهذه الصفة عن لذته الى سماعه كان ذلك مدحاً . فهو من باب يستخف الحلیم ويصي الناسك . « وما خالص هذا للبحثري إلا بقوله عن أغاني معبد . ولو قال ابن الأثير يستميل الطروب عن أغانيه بفصاحته لما أوردت عليه هذا الايراد (١) » .

ولا أجد ضرورة للاستزادة من عرض النماذج ، إثباتاً لما عرف به الصفدي من بعد عن التعصب ، لأنه إذا كان على هذا المستوى السامي من النزاهة والتجرد ، وهو حيال نص لخصمه الذي وضع كتابه من أجله ، فما بالك حينما يعالج غيرها ، أعتقد جازماً أنه لا يتغير ، لأن حاسته المميزة المتذوقة لا يتغير موقفها بتغيير صاحب النص ، والنموذج المعروض أعلاه أوضح ما يمكن أن يتدل به على تجرد الصفدي الناقد ؛ لوجه الفن وحده .

### منهجه في النقد :

لقد أدرك الصفدي أهمية النقد في الأدب وانتاجه ، وأدرك كذلك أن الذوق هو أول ، ما يجب توفره عند من يدخل هذا الميدان ، يلي ذلك بالضرورة الدراية والمران والرياضة ، حتى يغدو صاحب الذوق هذا قديراً في تعمق النصوص ، والوصول الى أغوارها ، وإدراك أسرارها ، مدفوعاً الى ذلك بميل لا يقاوم ، وهوى الى ممارسة النصوص لا يعوقه عائق .

وقد عبر الصفدي عن هذه الحقائق الأولية في خطبة كتابه بقوله « أحمدته على نعمه التي أوضحت ما أبهم وألبس ، وأبدت نار الهدى التي لم تكن بسوى أنامل الذوق تقبس ، وراضت جواد الانتقاد الذي إذا أم غايه لم يُثن عنانه ولم يجبس (٢) » .

---

(١) نصره الثائر ص ١٢٤ وما بعدها

(٢) « « ص ٤١

## اعتماده النصوص والمقارنة بينها :

وقد قلنا في مناسبة مضت ، إن الصفدي قلما تحدث في النقد حديثاً نظرياً ، فروحه تأبى القواعد وتنفر منها ، وإنما يتحدث من خلال النصوص المختارة في المعنى الواحد أو الشعور المشترك ، فيجمعها على تباين عصورها ، ويقوم التمييز على المقارنة فيما بينها ، وهذا لعمرى منهج رائع ؛ بل إنه المنهج الفني السليم في اكتناه النصوص وتدوقها وملاحظة خط التطور فيها من جهة ، وتقريبها إلى أفهام الآخرين وأذواقهم ووضعها في محيط تجاربهم الاجتماعية والشعورية الخاصة من جهة أخرى .

وقد قام الصفدي بالتقديم لمنهجه هذا في أول كتابه كذلك ، فقال مشيراً إلى ابن الأثير « وإذا ناقشته في بحث أوردته ، وناقشته في صالح أفسده ، لا أكاد أخلي ذلك الموطن من محاسن أرباب هذا الفن الذين عابهم ، وتردد إلى مواقف ذمهم وانتابهم (١) » ، وقد قام فعلاً بتطبيق منهجه هذا تطبيقاً دقيقاً ، فلم يشذ فيه مرة واحدة ، والسبب في هذا ليس يقظته وحرصه على تحقيق ما وعد به لولا أن هذا المنهج يعيش في نفسه فطرياً طليقاً ، ولم يصل إليه بطريق العقل والقاعدة .

فالنصوص عنده هي التي تتحدث ، تتلاقى وتتجاوز ، فيبرز الحسن من تلاقيا ، وسر الجمال من جوارها ، وسحر البيان من هذه المقارنة التي تقوم بينها ، من غير قصد إليها ، ولا عناء يتجشمه القارئ في ذلك .

وأكثر ما يسوء الصفدي ، أن يقرأ عند ابن الأثير تفصيلاً وانتقاداً لاذعاً في منأى عن النص محور الكلام .

من ذلك استنكار ابن الأثير لعبارة وردت عند الكاتب ابن زيادة البغدادي ،

---

(١) نصره الثائر ص ٤٦



دون أن يقرن حكمه بملاحظة وجود العبارة في نسيج النص . وسمع الصفدي بهذا فخف مسرعاً ليقول : « وأما قول ابن زيادة ( وكل ما يستصلحه المولى على العبد حرام ) فإنه مناسب ، ولعله أتى به في صورة أحسن من هذه ، وجاء في أثناء كلامه مطبوعاً .

وينبه ابن الأثير إلى خطئه فيقول : ولم يذكر ابن الأثير ما أتى به (الكاتب) ليعلم حسنه من قبجه ، ولم يحضرنى عند تعليق هذا الفصل كلام ابن زيادة ، ولعلي أظفر به فيما بعد فأثبته في الحاشية .

« وقفت على كلام ابن زيادة فيما بعد ، وكان ما ختم به فصل الإنكار على اللقب .. (١) » .

وننتقل الى نص آخر للصفدي يتضح فيه ما فات ذكره ، كما نلمح من خلال ذلك روح كل من الأديبين الصفدي وابن الأثير ، ومنهجيه في دراسة الأدب ومعالجة قضاياها . وهاك هو : « قال ( ابن الأثير ) في النوع الثامن من التشبيه :

« وقد قيل إن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم ، ومن هنا غلط بعض كتاب أهل مصر ، في ذكر حصن من حصون الجبال مشبهاً له : « هامة عليها من الغمامة عمامة ، وأنملة خضبها الأصيل وكان الهلال لها قلامة » .

« ثم إنه أخذ يعيب هذا ويقول : أي مقدار للأنملة أن تشبه الحصن ! وأطال باعتراض وجواب ، أقول : إن ابن أبي الحديد ناقشه في ذلك وقد بقي شيء من مؤاخذته على هذا » .

وهنا لا يدخل معه الصفدي في جدال نظري ، ليثبت له خطأ ما قرره وقعد له ؛ بل يسأله لأرفع النصوص المناسبة فيقول : « فعلى هذا تبطل غلبة الفرع على الأصل في التشبيه ونخطيء مثل ذي الرمة في مثل قوله :

---

(١) نصره الثالث ص ٧٧

ورملٍ كأوراقِ العذارى قطعتهُ إذا ألبسته المظلمات الحنادسُ

فانه شبه كثران الرمل بما هو أقل منها وأحقر ، لأن أوراق العذارى دون الكثران .

« ولا نستحسن مثل قول أبي بكر محمد بن هاشم :

والمُشْتَرِي وَسَطَ السَّمَاءِ تَخَالُهُ وَسَنَاهُ مِثْلَ الزُّبُقِ الْمُتَرَجِّجِ  
مِسْمَارَ تَبْرِ أَصْفَرٍ رَكَبْتَهُ فِي خَاتَمِ وَالْفَصِّ مِنْ فَيْرُوزِجِ

فان كرة السماء والمشتري أكبر من الفص والمسار .

« ومثل هذا كثير ؛ وكل ما كان في العالم العلوي لا يشبه بشيء من العالم الأرضي لأنه أحقر وأقل ؛ كما تشبه الثريا بالنرجس الذابل ، والهلال بالقلامة والنعل . والبرق بالسيف ، والشمس بالمرآة ، والنجوم بالسراج ، وقوس قزح بأذيال العروس . وجميع ما هو من هذا الباب لا يجوز تشبيهه ، وإن كان فلا يكون بليغاً على هذا التقرير ! وهيات هذا سد لباب الحسن .

« وأما الحصون فقد شبهها الشعراء بالأنامل ، منهم الغزي حيث يقول :

سَدَّ البَسِيْطَةَ نَازِلًا مِنْ قُلَّةِ الـ جَبَلِ الأَشْمِّ إِلَى قَرَارِ الوَادِي  
حَتَّى غَدَا الحِصْنَ المُبَارَكِ خِنْصَرًا فِي خَاتَمِ مِنْ بَهْمَةٍ وَجَوَادِ

« وقد استعمل ابن الأثير ذلك فقال في فصل تقدم : ( فنزلنا منه برأى ومسمع ، واستدرنا به استدارة الخاتم بالإصبع ) .

« وقول القاضي الفاضل يشبه قول ابن خفاجة :

فِي خَصْرِ غَوْرٍ بِالأَرَاكِ مُوشِحِ أَوْ رَأْسِ طَوْدٍ بِالغَمَامِ مُعَمَّمِ

« وقال كعب الأشقر يصف حصناً :

مُحَلَّقَةٌ دُونَ السَّمَاءِ كَأَنَّهَا      غَمَامَةٌ صَيْفٍ زَالَ عَنْهَا سَحَابُهَا  
فَلَا يَبْلُغُ الْأَرْضَ شِمَارِيخَهَا الْعُلَا      وَلَا الطَّيْرُ إِلَّا نَسْرُهَا وَعُقَابُهَا  
وَلَا تُخَوِّفُ بِالذُّبِّ وِلْدَانُ أَهْلِهَا      وَلَا تَبْحَثُ إِلَّا النُّجُومَ كَلَابِهَا

( وأورد للخالدين ولغيرهما في وصف القلاع ، ولم يهمل النماذج الثرية في

هذا الباب )

« وقال أيضاً في ذلك :

وَحَلَقَاءُ قَد تَّاهَتْ عَلَى مَنْ يَرَوْنَهَا      بِمَرْقَبِهَا الْعَالِي وَمَرَكِبِهَا الصَّعْبِ  
يَزُرُّ عَلَيْهَا الْجَوُّ جَيْبَ غَمَامِهِ      وَيَلْبِسُهَا عِقْدًا بِأَنْجُمِهِ الشُّهْبِ  
إِذَا مَا سَرَى بَرَقٌ بَدَتْ مِنْ خِلَالِهِ      كَمَا لَاحَتْ الْعَذْرَاءُ مِنْ خَلَلِ السُّحْبِ<sup>(١)</sup>

وبذا ترى أن الصفدي ينغمس في منهجه من حيث اعتماد النصوص الغزيرة ،  
لتقوم المقارنة على أوسع مدى ، فتتوسع نظرة المرء الى المعنى ، الذي يغنى في  
النفس وتتزاحم أحواله وتفصيلاته مما يسمح بوضع النص المدروس ، في مكانه  
الصحيح بين هذه النصوص الكثيرة ، السابقة منها واللاحقة .

ومن الملاحظ أن الصفدي لا يعلق بالضرورة على كل نص يورده ، فقد يذكر  
شيئاً أو يورد النص ثم ينتقل الى غيره ، تاركاً المجال رحباً أمام القارئ لينبه حواسه ،  
ويوقظ نفسه ، ويعمل فكره ، ويحكّم بالتالي ذوقه .

---

(١) نصره الثائر ص ٢٩٧ وما بعدها

ولا أجد بأساً من إيراد صورة أخرى من صور تطبيق الصفدي لمنهجه في النقد ، بما زخر به كتابه نصره الناثر ، دالاً على أصالة هذا المنهج عنده ، حتى إن شطراً من الشعر أو جملة من النثر ، كافية لجعل النصوص في المعنى نفسه تنثال على لسان الصفدي ، إلى أن يشعر أنه قد حقق الغاية وبلغ المطلوب .

### إعادة المعاني إلى مصادرها :

وألفت النظر هنا إلى أن الصفدي ، سيضيف إلى منهجه هذا مبدأ آخر يسائر منهجه في اعتماد النصوص ، وذلك في إعادة معاني النص المدروس إلى مظانها الأولى ، إشارة منه إلى أن أدباء عصره لم يأتوا بمجديد من حيث المعاني ولو ادعوا ذلك ، وإنما هي معاني السابقين من الشعراء ، نقلها المتأخرون إلى النثر من جهة ، وإلى أغراض أخرى من جهة ثانية .

« قال ( ابن الأثير ) : ومن ذلك ما ذكرته في ذم الشيب فقلت :

والشيب إعدام لا يسار ، وظلم لا أنوار ، وهو الموت الأول الذي يُضلي ناراً من أهم أشد وقوداً من النار . ولئن قال قوم إنه جلالة فانهم دقوا به وماجلوا ، وأفتوا في وصفه بغير علم فضلوا وأضلوا ، وما أراه إلا محراثاً للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلوا ، ومن عجائب شأنه أنه المملول الذي لا يستطيع فراقه ، والحلّق الذي يكره نزع برده ، ولما فقد الشباب كان عنه عوضاً ولا عوض عنه في فقده .

« أقول : إنه أخذ بعد فراغه من هذا الفصل في الدندنة على العادة ، وأن

المعنى الذي ابتدعه هو تشبيه الشيب بآلة الحرث .

« وقد شبه الناس الشيب بأشياء ، منها اشتعال النار ، وقد نطق القرآن

العظيم به في قوله تعالى « واشتعل الرأس شيباً » .

« وقال الأرجباني :

قد أشعل الشيبُ رأسي لليلي عَجَلًا  
فإن يكن راعها من لونه يققُ

« ومنها تشبيهه بالصباح قال :

وقالوا انتبه من رقة اللهو والصبا  
فقلت : أخلاني دعوني ولذتي

« ومنها تشبيهه بالنجوم قال : . . .

« ومنها تشبيهه بالتبسم ، قال أبو تمام :

رأت تبسمه فاهتاج هائجها  
فلا يؤرقك إياض القتير به

« ومنها تشبيهه بالحب ، قال . . .

« ومنها تشبيهه بالغبار ، قال ابن المعتز :

صدت شرير وأزمت هجري  
قالت كبرت وشبت قلت لها

« ومنها تشبيهه بالسيف ، قال :

أنا إن نزع عن الغواية والصبا  
أصبو وسيف المشيب مجرد

« ومنها تشبيهه بالزهر ، قال الغزي :

تَأَلَّقَ الشَّيْبُ فَاعْتَذَرْتُ لَهُ      وَقُلْتُ نُورٌ بَدَأَ عَلَى قُضْبِهِ  
كَأَنَّ ثَغَرَ الحَبِيبِ رُكِّبَ فِي      مَفَارِقِي فَأَضَاءَ مِنْ شَنْبِهِ

« ومنها تشبيهه باليوم والقطاة ، كقول الشافعي رضي الله عنه في أبياته التي منها :

أَيَا بَوْمَةً قَدْ عَشَّشْتَ فَوْقَ هَامَتِي      عَلَى الرُّغْمِ مِنِّي حِينَ طَارَ غُرَابُهَا

« وقال الغزي :

قَطَاةٌ فِي الهِدَايَةِ كَانَتْ شَيْبِي      وَإِنْ سَمَّتهُ نُقْبَتُهُ غُرَابَا

« وشبهه السِّراج الوراق بالقرطم ، وإنما حسن ذلك لأنه رحمه الله كان

أشقر فقال :

ذَهَبَ العُصْفُرُ مِنِّي      وَبَدَأَ قِرْطَمُ شَيْبِي  
وَالَّتِي قَدْ مَلَكَتْ رِقِّي      قِي رَدَّتْني بِعَيْسِي

« وقيل لأعرابي عن الشيب : ما هذا البياض الذي في رأسك ؟ فقال : زبدة

مخضها الأيام ، وفضة سبكتها التجارب .

« وما أحسن قول القاضي الفاضل رحمه الله :

إِلَيْكَ بَعْدَ انْقِضَاءِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ      عَنِّي فَلَمْ أَرَ بِي مَا يَقْتَضِي أَرْبِي  
وَالعُمُرُ كَالكَأْسِ وَالْأَيَّامُ تَمْرُجُهُ      وَالشَّيْبُ فِيهِ قَدَى فِي مَوْضِعِ الحَبِيبِ

« وشبهه بأشياء مناسبة غير هذه . . .

« ولم أر تشبيهه بآلة الحرث ، وأي مناسبة بين آلة الحرث والشيب ، وما وجهه



الشبه وليس هذا من باب تشبيه المحسوس بالمحسوس ، ولا من باب المحسوس بالمعقول  
وما أدري ما هو ، وأما تشبيه الهرم بالحرث نفسه فجائز .

« وأما قوله : إعدام لا يسار فماخوذ من قول المتنبّي :

وَقَدْ أَرَانِي الشَّبَابُ الرُّوحَ فِي بَدَنِي      وَقَدْ أَرَانِي المَشِيبُ الرُّوحَ فِي بَدَلِي

« وأما قوله : ظلام لا أنوار ، فماخوذ من قول أبي تمام :

لَهُ مَنظَرٌ فِي العَيْنِ أبيضٌ ناصعٌ      وَلَكِنَّهُ فِي القَلْبِ أسودٌ أسفعٌ

« وقول أبي الطيب :

إِبْعَدُ بَعِدَتَ بَيَاضاً لَا بَيَاضَ لَهُ      لَأَنْتَ أسودٌ فِي عَيْنِي مِنَ الظُّلْمِ

« وما أحسن قول الغزي :

كَيْفَ لَا يَنْفُرُ الظُّبَاءُ مِنَ الشَّيْءِ      بٍ وَمِنْ عَادَةِ الظُّبَاءِ النُّفُورُ

أَبْيَضٌ مُظْلِمٌ وَكُلُّ بَيَاضٍ      فِي سِوَى العَيْنِ وَالْمَفَارِقِ نُورٌ

« وأما قوله ( وهو الموت الأول ) السجعة .

« قال محمود الوراق : الشيب إحدى الميتين . وقال غيره : الشيب غمام قطر  
الغمام ، وأما قوله : ( ولئن قال قوم إنه جلالة ) السجعة ، فذكرت به قول  
بعض المتأخرين :

وَقَالُوا شَبَابُ المَرءِ هُوَ وَغِرَّةٌ      وَمِنْ خَلْفِهِ شَيْبُ الوَقَارِ وَلَا رَيْبُ

وَأَيُّ وَقَارٍ لِمَرِيءٍ عَرِّي الصَّبَا      وَقُدَامَهُ شَيْبٌ وَمِنْ خَلْفِهِ شَيْبُ

« وأما قوله ( وهو المملول الذي يُشَفَّق من بعده ) فأخوذ من قول مسلم بن الوليد . وقول مسلم في غاية الحسن :

الشَّيْبُ كُرْهُهُ وَكُرْهُهُ أَنْ يُفَارِقَنِي  
أَعْجَبُ بِشَيْءٍ عَلَى الْبَعْضَاءِ مَوْدُودُ  
يَمُضِي الشَّبَابُ فَيَأْتِي بَعْدَهُ بَدَلُ  
وَالشَّيْبُ يَذْهَبُ مَفْقُوداً بِمَفْقُودِ

« قيل : إن المنذر بن أبي سبرة نظر الى أبي الأسود الدؤلي وعليه قميص مرقوع . فقال له : ما أصبرك على هذا القميص ؟ فقال : رب مملول لا يستطيع فراقه ، فبعث اليه تحتاً من ثياب .

« ونظر سليمان بن وهب في المرآة فرأى الشيب فقال : عيب لا عدمناه .

« وقد جاء في ترسل الفاضل ذكر الشيب فقال : فمن يطلع شرف السبعين يهبط الى الحضيض ، ومن يعمر العمر الطويل يقع في الطويل العريض ، وأيام المشيب كلها بيض ، وما نحن ممن يصوم الأيام البيض .

« وما أطف قول ابن المعتز :

أَيَا نَفْسٍ قَدْ أَثْقَلْتَنِي بِذُنُوبِي  
أَيَا نَفْسٍ كُنْتُ عَنْ هَوَاكِ وَتُوبِي  
وَكَيْفَ التَّصَابِي بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ الصَّبَا  
وَقَدْ مَلَّ مِقْرَاضِي عِتَابَ مَشِيبي

« وما أحلى قول ( ابن خلكان ) :

أَلَا يَأْسَارِيَا فِي بَطْنِ قَفْرِ  
لِيَقْطَعَ فِي الْفَلَا وَعَرَا وَسَهْلَا  
قَطَعْتَ نَقَى الْمَشِيْبِ وَبُنْتَ عَنْهُ  
وَمَا بَعْدَ النَّقَا إِلَّا الْمُصَلِّي

« ولبعض الشعراء :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّيْبَ رَاءَ بَعَارِضِي  
تَيَقَّنْتُ أَنَّ الْوَصْلَ لِي مِنْكَ وَاصِلُ

ربما يفهم من هذا البيت غير ما قصده الناظم ، فيتوهم أنه يظن أن الشيب سبب لوصاله وهو على خلاف المعهود من كلام الشعراء ، فإنهم ما زالوا يقولون : إن الشيب سبب نفاذ الغواني عن المحبين .

« وما أحسن قول خالد الكاتب في هذا :

لَمَّا رَأَتْ شَيْباً أَلَمَّ بِمَفْرِقِي      صَدَّتْ صُدُودَ مُفَارِقِ مُتَجَمِّلِ  
وَجَعَلَتْ أُطْلُبُ وَصَلَهَا بِتَذَلُّلِ      وَالشَّيْبُ يَغْمِزُهَا بَأَنَّ لَا تَفْعَلِي

« والشاعر إنما أراد هذا المعنى المعهود ، فإن واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة كان يلثغ في الرأء لثغة قبيحة ، وكان يتجنب الرأء في كلامه ، ولا تكاد تسمع منه كلمة فيها راء .. (١) » .

### التعريف الفني :

كما يتخذ الصفدي في نقده مبدأً ثانياً ، يكاد يلازمه في كل ما يتعرض له من النصوص تثيرها وشعرها ، ألا وهو اقتراح صياغة من عنده ، تطرب لها نفسه ، ويرضى بها ذوقه . فهذا ابن سناء الملك يقول متغزلاً :

لَهَا نَاطِرٌ يَا حَيْرَةَ الظُّبِيِّ إِذْ رَنَا      بِهِ كَحَلُّ نَادَاهُ يَا خَجَلَةَ الكُحْلِ

ويعلق الصفدي بقوله : « لو كان لي في هذا البيت حكم لقلت : لها ناظر يا حيرة الظبي عنده ، وخلصت من إذ وعدم وضعها للمجازاة (٢) » .

(١) نصره الثائر ص ٢٣٣ وما بعدها

(٢) الغيث المسجم ٢٤٣/١

كما يعتمد الى مثل هذا في نصوص النثر : « قال ( ابن الأثير ) وقد جاءني من التخلصات في الكلام المنثور أشياء كثيرة . فمن ذلك ما أوردته في كتاب الى بعض الاخوان أصف فيه الربيع ، ثم خرجت من ذلك الى ذكر الأشواق فقلت : وكما أن هذه الأوصاف في شأنها بديعة ، فكذلك شوقي في شأنه بديع ، غير أنه بجره فصل صيف وهذا فصل ربيع .

« أقول : قد أورد هذا الرجل من تخلصات الشعراء كآبي تمام وأبي الطيب والبحتري وغيرهم أمثلة ، وما تنبه للتخاص وحسنه . أتري مثل هذا يعد من التخلصات ! ولو كان قال : وشقيق شق كمامه ، ورفع أعلامه ، وملا من المدام جامه ، وجلا خده الأحمر وفيه من السواد شامة ، وأوقد ناره فحكمت جمر أشواقى وضرامه . لعد الناس هذا تخلصاً <sup>(١)</sup> .»

### الاعتذار للاربيب :

وختاماً للحديث في منهج الصفدي في النقد ؛ أشير الى مبدأ أخير اعتمده في دراسة الأدباء والحكم على قدرتهم الفنية ، ذلك هو الاعتذار للأديب إذا كبابه جواد البيان في بعض الأحيان .

من ذلك قوله في المتنبى ، بعد أن أورد ما استجاده من شعره وكله في الحكمة .

« فهذا يسير من كثير ، وقليل من غزير . ولكن هذا القدر كاف في الدلالة على ماله من الجيد . فانظر الى انحطاطه وارتقاعه . ولكن أين ارتقاعه ! ،

---

(١) نصره الثائر ص ٣٦٣

«وهذان الرجلان قد سار ذكرهما وثبت أمرهما وأسكرت الألباب خمرهما .

وفي تعبٍ من يحسدُ الشمسَ ضوءَها      ويزعمُ أنْ يأتي لها بضربٍ

«فالقاضي الفاضل رحمه الله انفرد بالترسل ، وانفرد المتنبي بالشعر مع مالهما من الانحطاط ولكن انحطاط المتنبي أوضع وأشنع .

«ولو أن الناس إذا رأوا جواداً بجمل في وقت ، أو شجاعاً فر في وقت ، أو صانعاً ماهراً قصر في وقت ، يرمونهم بالغيب ويطعنون عليهم ولا يعدون لهم إحساناً ؛ لما كان في الوجود جواد ولا شجاع ولا صانع ماهر ولا خطيب بليغ ولا شاعر مجيد .

«وانما العبرة بالأغلب والأكثر ، والقليل معفو عنه ، لأن العصمة لا تشتط إلا للمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه (١) .

وقد كرر الصفدي هذا المعنى ، واعتمد الى هذا الأساس في تعليقه لعجز الحريري عن تحبير كتاب في ديوان الإنشاء ببغداد . وختم كلامه بقوله :

وليس يُعَابُ المرءُ في جُبْنِ يَوْمِهِ      إِذَا عُرِفَتْ مِنْهُ الشَّجَاعَةُ بِالْأَمْسِ

وهكذا رأينا كيف كان للصفدي في نقده منهج واضح ثابت ، تسايره مجموعة من المبادئ الفرعية . أما المنهج الأصيل الثابت الذي يسبقه الى كل نص يتعرض له بالدرس ، فهو اعتماد النصوص ، والمقارنة بينها ، دون أن يقيم وزناً لتقدم هذه النصوص الزماني وتأخرها .

---

(١) نصره الثائر ص ١٧٦

وأما المبادئ الفرعية في منهجه ، فقد تحددت في إعادة معاني النص المدروس إلى مواطنها الأولى ومصادرها الأساسية ، وفي إقدام الصفدي على اقتراح تعديلات من عنده على عبارة النص الذي يتصدى لدراسته ، لتتوفر لهذا النص عناصر الجودة المنشودة ، والتأثير المطلوب .

ثم كان من مبادئ هذا المنهج اعتذاره للأديب في مواطن إسفائه وانحطاطه ، إذا كان له في إنتاجه الرفيع ما يشفع له ؛ بما يدعونا إلى التسامح في حالاته لأخرى .

★ ★ ★



## الفصل الثالث

### مُلَمَّعٌ مِنْ آرَائِهِ

تأكد لنا في الفصلين الماضيين ، أن صلاح الدين الصفدي كان أهلاً لما مارسه من نشاط في النقد ، وذلك بشهادة معاصريه في الفصل الأول ، ثم بما نطقت به نصوص كتبه في الفصل الثاني .

ويحق للناقد الصفدي بعد أن وصلنا به إلى هذه المرحلة ، أن يحدثنا بشيء من آرائه في مختلف جوانب الأدب والفن وما يتصل بها .

#### اللفظة المفردة :

لقد كان تحقيق الجمال في الألفاظ من الغايات الأساسية في التعبير عند الصفدي ، إذ لا يكفي أن تكون الألفاظ مؤدية للمعنى ؛ بل لابد من أن تكون سائغة في حد ذاتها ، فتوحي بالمعنى وتساعد على جلالة وتأثيره بأصداؤها وأصوات حروفها ونبراتها ؛ إضافة إلى معناها المعروف . والحق إن الصفدي يتمتع من هذه الناحية بحس لغوي دقيق ، بدأ ذلك في ترداد هذا الأمر وغزارة نماذجه فيه .

ولكي تكون فكرتنا عن رأيه في اللفظة كاملة ؛ نعود إلى تحديد ما يتطلبه فيها ليتحقق لها الجمال ؛ وتنال رضاه وقبوله .

فأول شروطه : أن تتميز اللفظة بالسهولة ووضوح المعنى ، لتكون عذبة يلذها السمع فلا تحوج قارئها إلى التوقف عندها ، بغية معرفة معناها أو تحديده ، فتقطع على القارئ انفعاله ونشوته . من ذلك قوله بعد أن عرض لبيت الطغرائي :

مَجْدِي أَخيراً وَمَجْدِي أَوَّلًا شَرَعُ      وَالشَّمْسُ رَأْدًا الضُّحَى كَالشَّمْسِ فِي الطَّفْلِ

« وقد أخذ الطغرائي هذا المعنى ، من قول أبي العلاء المعري حيث قال :

وَافَقَّتَهُمْ فِي اخْتِلَافٍ مِنْ زَمَانِكُمْ      وَالْبَدْرُ فِي الْوَهْنِ مِثْلُ الْبَدْرِ فِي السَّحْرِ

« فهذا هذا خلا أن ذلك في الشمس وهذا في القمر ، ولكن قول المعري اللفظ عبارة ، وأحسن إشارة ، لأن الطغرائي أغرب في لفظي رَأْدٍ وَالطَّفْلِ ، وعذوبة الألفاظ أمر مهم في البلاغة (١) .

وقد أكد الصفدي هذا الأمر في أكثر من موضع ، فقال يخاطب الأدباء :

مِيلُوا إِلَى سَهْلِ الْكَلَامِ فَإِنَّهُ      مَنْ خَافَ مَالَ إِلَى الطَّرِيقِ الْأَوْعَرَ (٢)»

ومن شروط اللفظة المقبولة لديه ، أن تكون شعرية لا تصدم الحس بدلولها النابي ، بما ينفّر الطبع ، ويعكّر على المتذوق لذته .

وقد رأينا كيف ازورّ عن بيت ميار في الغزل :

فِي صَدْرِهَا حَجْرٌ وَتَحْتَ صَدَارِهَا      مَاءٌ يَشِفُّ وَبَانَةٌ تَتَعَطَّفُ

---

(١) الغيث المسجم ٥١/١ وما بعدها

(٢) تشنيف السمع ١٦

وقال : « في صدرها حجر من أشع لفظه ، لما فيه من إيهاام الدعاء (١) » .

وكذا عبر عن استيائه من بيت بشار متغزلاً :

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا      غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

بقوله « لكنه هجّن المعنى بذكر البصل (٢) » .

وكذلك : يتوخى الصفدي في اللفظة حسن موقعها في الاذن ، وذلك يتأتى

من انسجام حروفها ، وجمال مخارجها عند النطق بها ، مما يطرب السمع ويلذه .

من ذلك تعليه أفراد اليمين وجمع الشمائل في قوله تعالى « أو لم يروا الى ما

خلق الله من شيء يتفياؤوا ظلالة عن اليمين والشمائل » بقوله : « فان لفظه الشمائل

أعذب في الجمع من الأفراد وأحلى ، والعرب من عاداتها مراعاة خفة الألفاظ وعذوبتها ،

مع عدم تناسب المعاني (٣) » .

كما أنه لا علاقة للمعنى في نظره في جمال اللفظة ، فالذي يمنح اللفظة

جمالها ، إنما هو عذوبتها من حيث تركيبها في انسجام حروفها ، وأصداء هذه الحروف

عند نطقها والتصويت بها ، وسهولة مخارجها ، ثم في إيجاءاتها . وليس للمعنى في

نظره أدنى علاقة في هذا الجمال زيادة أو نقصاً ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

« ولو أن المعنى يؤثر في اللفظ عذوبة ، لكانت هر كولة للمرأة المرتجة

الأطراف والأرداف عذبة ، ولو أثر المعنى في اللفظ ركة ؛ لكانت لفظه سعيير

وحيف ثقيلة في السمع .

---

(١) الغيث المسجم ١ / ١١٥

(٢) نصره الثائر ٢٢٨

(٣) « « ٣٦٤

ولما لم يكن العذوبة والثقالة يتعلقان بالمعنى ؛ علمنا أن المعنى لا عبرة له في الفصاحة (١) .

ثم فرق بعد ذلك بين مدلول الفصاحة عند الأدباء وعند اللغويين فقال : « وأئمة اللغة إذا قالوا فصيح ما يريدون به العذوبة والحسن ولا بد ، وإنما يريدون به كثرة الاستعمال ، والعذوبة قد تجيء بعد ذلك ضمناً وتبعاً ، ولهذا تسمعونهم يقولون : اللغة الفصحى في زئبق وزئبر الثوب ؛ الهمز دون التسهيل ، وإن كان أخف وأعذب من الهمز فالأفصح الهمز .

وكذا قولهم السمع بتحريك الميم أفصح من السكون ، والحس يشهد بأن التسكين أخف وأحسن . فكل عذب فصيح ولا ينعكس (٢) .

وتجلى دقة الحس اللغوي عند الصفدي بأروع مظاهرها ، في ادراكه القيم التعبيرية للحرف في اللفظة الواحدة ، وبالتالي في إحساسه بالجو الشعوري الذي تبته اللفظة من حولها ، فيهتز لها ويحيا في ايجاءاتها وتصوراتها منفعلاً بها ، فيغمره الجزع أو الرضى ، النشوة أو الحزن ، متأثراً بالحالة الشعورية التي تضمها تلك اللفظة بين جوانبها ، وتطلقها مع أصداء حروفها وحركاتها .

وهذا نص للصفدي نلمس من خلاله ما ألمحت إليه ، يرد فيه على ابن الأثير الذي أورد بيت البحري في وصف أيوان كسرى :

مَشْمَخِرٌ تَعْلُو لَه شُرْفَاتٌ رُفِعَتْ فِي رُؤُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ

ثم قال مدفوعاً بغرامه بالتقعيد ، فان لفظه مشمخر لا يحسن استعمالها في

---

(١) نصره الثائر ١٦٣

(٢) « « ١٦٤

الخطب والمكاتب ، ولا بأس بها هاهنا في الشعر ، وقد وردت في خطب الشيخ الخطيب ابن نباتة (١) ، كقوله في خطبته يذكر فيها أهوال يوم القيامة فقال : « اقمطر وبالها ، واشمخر نكالها ، فما طابت ولا ساغت (٢) » .

ورد الصفدي بقوله :

« إن الخطيب رحمه الله من البلغاء الفصحاء الذين يوردون الكلام موارده ، ويعطون كل كلام ما يستحقه ، لأن ذكر النار والقيامة أمر مهول ، ويحتاج الى ألفاظ مفخمة تهول السمع وتسيل الدمع ، وتقشعر لها الجلود ، وتنفطر لها الكبود ، ولا يليق بأوصاف النار غير هذه الألفاظ مثل : اقمطر واشمخر واسبطر وازبار واقشعر وابذعر واطلخم وادلهم واقتحم واحتدم . كما أن أوصاف الجنة لها ألفاظ تخصها ، عذبة سهلة لذيدة الى السمع مثل : لان نسيمها ، ودام نعيمها ، ورف ظلها ، وراق زلالها ، وعذب تسنيمها .

« ألا ترى أن المديح له ألفاظ تخصه ، والهجاء له ألفاظ تخصه ، فيذكر الرأس والفرق في المديح والدماغ والقذال في الهجاء . ووصف أبي زيد الطائي بحضرة الصحابة ببجلس عثمان رضي الله عنه ، بما يؤيد هذا الكلام . من جملة ذلك أنه قال :

« لبلاغه غطيظ ، ولطرفه وميض ، ولأرساغه نقيض ، كأنما يجبط هشياً أو يطا صريماً ، وإذا هامة كالجن ، وخذ كالسن ، وعينان سجروان كأنها سراجان يقدان ، وقصرة ربله ، ولهزمة رهلة ، وكتد مغبط ، وزور مفرط ، وعضد مفتول ، وساعد مجدول ، وكف شنة البرائن الى مخالِب كالمحاجن .

« فضرب يده فأرهج ، وكشر فأفرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة ،

---

(١) ليس ابن نباتة ، الشاعر المعروف .

(٢) المثل السائر ١ / ٢٨٣

وقم أشدق كالغار الأخرق ، ثم تمطى فأشرع يديه ، ثم حفز ورثه برجليه ،  
حتى صار طوله مثليه . ثم أقعى فاقشعر . ثم مثل فاكفهر ثم تجهم فازبأر ، فلا  
وذويته في السماء ما اتقيناها إلا بأول أخ لنا من فزارة ضخم الجزيرة ، فوقصه ثم  
أقعصه ، ثم نفذه نفضة فقضض منه وبقر بطنه وجعل يبلغ في دمه .

فدمرتُ أصحابي فبعد لأي ما استقدموا ، فهججنا به فكر مقشعراً بزبرة  
كأنها شيم حولي ، فاختلج من دوننا رجلاً أعجز ذا حوايا ، فنفضه نفضة تزايلت  
لها مفاصله . ثم نهم ففرقر ثم زفر فبربر ، ثم زأر فجرجر ثم لحظ فزجر ، فوالله  
نحلت البرق يتطاير من تحت جفونه ، عن شماله ويمينه ، فأرعثت الأيدي ، واصطكت  
الأرجل ، وأطت الاضلاع ، وارتجت الأسماع ، ولحقت المتون ، وشخصت العيون ،  
وساءت الظنون ، واخزالت المتون . ثم تهنس وحلق ، ثم حدق وحملق ، فاذا  
له عيناه سجران مثل وهج الشرر ، كأنما نقرا بالمناقير عن عرض حجر ، لونه ورد ،  
وزنيره رعد ، وجبهته عظيمة ، وهامته شتيمه ، إن استقبلته قلت أدرع ، وإن  
استدبرته قلت أفدع ، وإذا الليل اعرنكس تبغى وتحسس ، هوله شديد وشره عتيد ،  
فغيره بعيد ، متى قاسم ظلم ، ومتى بارز حطم ، ومتى نال غشم . ثم أنشد :

عَبُوسٌ شَمْسٌ مُطْرَحٌ مُكَابِرٌ      جَرِيٌّ عَلَى الْأَعْدَاءِ لِلْقَرْنِ قَاهِرٌ

بِرَائْتُهُ شُنُّ وَعَيْنَاهُ فِي الدُّجَى      كَجَمْرٍ غَضًّا فِي وَجْهِهِ الشَّرِّ طَائِرٌ

يُدِلُّ بِأَنْيَابِ حَدَادٍ كَأَنَّهَا      إِذَا قَلَّصَ الْأَشْدَاقَ عَنْهَا خَنَاجِرٌ

« قال الراوي : فحبق أحد الحاضرين ، فقال له عثمان رضى الله عنه : والله رضى  
الله فاك ، فلقد رعبت المسلمين .

« فانظر الى هذه الألفاظ ومواقعها في النفس ، كأنها أسود تلثم أو أساود



تلتقم . هل يحسن شيء منها أن يكون في وصف ظبي أو طاووس . كلا ، وقد عجبت منه ( من ابن الأثير ) كونه خفي مثل هذا عليه <sup>(١)</sup> .

هكذا يدرك الصفدي قدرة الألفاظ على نقل الاحساس قبل المعنى ، وشحن الجواكح بالأصداغ المعبرة التي تملأ النفس بما تحمله من الانفعالات والمشاغرة .

ولم تكن هذه الاشارة لفظة طارئة عند الصفدي ، لقد كان يحس بمثل هذا كلما صادف ألفاظاً قد سمت الى مستوى الموقف الذي تعبر عنه . من ذلك قوله بعد أن أورد بيت الطغرائي :

وَدَعُ غِمَارَ الْعَلَا لِلْمُقَدِّمِينَ عَلَى رُكُوبِهَا وَاقْتَنَعَ مِنْهُنَّ بِالْبَلَلِ

« لو كان لي في بيت الطغرائي حكم لقلت ؛ ودع غمار العلاء للمقدمين على أخطارها أو أهوالها لأن المقام مقام تهويل ، وهذا اللفظ له مهابة في السمع بخلاف « ركبها » . ألا تراه كيف استعار اللجة للمعالي ، لأن اللجة مخوفة قل من يقدم على هولها أو يركب ظهرها <sup>(٢)</sup> . »

ثم أورد الصفدي قوله هذا بقصيدة سما فيها اللفظ الى مستوى المعركة الرهيبة التي خاضها بيبرس مقتحماً لجح الفرات المتدافقة جاء فيها :

لو عَايَنْتُ عَيْنَاكَ يَوْمَ نَزَالِنَا  
وَسَنَا الْأَسِنَّةَ وَالضِّيَاءَ مِنَ الظُّبَا  
وَالخَيْلُ تَضْبَعُ فِي الْعَبَاجِ الْأَكْدَرِ  
كشفاً لِأَعْيُنِنَا قَتَامَ العَثِيرِ  
وَوَهَى الْجَبَانَ وَسَاءَ ظَنُّ الْمُجْتَرِي  
وَقَدْ إِطْلَحَمَ الْأَمْرُ وَاحْتَدَمَ الوَغَى

(١) نصره التأثر ١٣٩ وما بعدها

(٢) الغيث المسجم ٣٩/٢ - ٤٠

لَرَأَيْتَ سَدًّا مِنْ حَديدٍ مائِراً  
حَتَّى سَبَقْنَا أَسْهُماً طَاشَتْ لَنَا  
طَفَرَتْ وَقَدْ مَنَعَ الفَوَارِسُ مَدَّهَا  
لَمْ يَفْتَحُوا لِلرَّمِي مِنْهُمْ أَعْيُنَا  
مَا كَانَ أَجْرَى خَيْلِنَا فِي إِثْرِهِمْ  
فَتَسَابَقُوا هَرَباً وَلَكِنْ رَدَّهُمْ  
كَمْ قَدْ فَلَقْنَا صَخْرَةً مِنْ صَرْحَةٍ  
فَوْقَ الفُرَاتِ وَفَوْقَهُ نَاراً تُرِي  
مِنْهُمْ إِلَيْنَا بِالخِيُولِ الضَّمْرِ  
تَجْرِي وَلَوْلا خَيْلُنَا لَمْ تَطْفُرِ  
حَتَّى كَحِلْنِ بِكُلِّ لَدْنِ أَسْمَرِ  
لَوْ أَنَّهَا بِرِؤُوسِهِمْ لَمْ تَعْتُرِ  
دُونَ الهَزِيمَةِ رُمَحُ كُلِّ غَضَنْفَرِ  
وَلَكُمْ مَلَأْنَا مَحْجَراً مِنْ مَحْجَرِ

« فانظر الى هذه الألفاظ المفخمة ، التي أتى بها هذا الشاعر البليغ في وصف هذا المقام المبهول (١) . »

ونكتفي بهذا القدر في بيان نظرة الصفدي الى الالفاظ ، وإحساسه بالقيم التعبيرية والموسيقية للحروف فيها ، لنتقل الى ما يراه في التركيب ، وهل الكم وحده هو الفارق بينه وبين اللفظة أم أن وراء هذا الحجم شيئاً آخر .

### التركيب :

لقد أدرك الصفدي أن حسناً جديداً يضاف على التركيب ، لا يوجد في ألفاظه مفردة منها كانت هذه الألفاظ في ذاتها حسنة ، ورأى أن هذا الحسن بما لا يمكن تحديده أو التعبير عنه ، وشبهه بالملاحظة التي لا يعقل لها معنى ، وهذه الملاحظة أو الطلاوة بما يناله تركيب دون آخر ، وهي شيء يختلف عن بيان المعنى . فكم من

(١) الفيث انسجم ٣٩/٢ - ٤٠

تركيب حاز كل شروط الاجادة ثم قُدم عليه ما هو أدنى منه استيفاء لهذه الشروط .  
ورأى الصفدي أن هذا السحر في التركيب هو سر إعجاز القرآن الكريم . وهذا بعض  
ما توصل اليه عبد القاهر الجرجاني من نظرية النظم .

وهاك نصاً للصفدي يبسط فيه ما يراه في التركيب ، في معرض مناقشته  
ابن الأثير في بعض إنشائه . « قال ابن الأثير سأل الله تعالى : نسأل الله أن  
يبلغ بنا من الحمد ما هو أهله ، وأن يعلمنا من البيان ما تقتصر عنه مزية النطق وفضله » .  
فيقول الصفدي . . .

« أما السجعة الثانية فما أدري معنى قوله ( تقصر عنه مزية النطق ) فأني شيء  
يعلمه حتى تقصر عنه مزية النطق !

إن أراد بذلك الأشياء التي تكون على تراكيب الألفاظ من الطلاوة والروث ،  
فذلك غير البيان لأن البيان إيضاح المعاني وابدائها وإظهارها ، وذلك الذي أردته  
من الحسن واللفظ اللذين يكونان في بعض الكلام . فذلك غير البيان ، وهو  
كالملاحاة التي لا يعقل لها معنى ولا يعبر عنه ، كما قيل :

شَيْءٌ بِهِ فُتِنَ الْوَرَى غَيْرُ الَّذِي يُدْعَى الْجَمَالُ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ

« ويقال : مع المحبوب شيء آخر غير حسنه هو الذي يشفع له الى القلوب .  
ألا ترى أن بعض الصور مفردات أعضائها نهاية في الحسن وليس لها ذلك المعنى  
الذي لغيرها ! وكذا قيل في الترياق إنه بعد التركيب يفيض الله عليه خاصة لم  
تكن في قوة أجزائه حالة الأفراد . والهيئة الاجتماعية لها معنى غير الحالة التي تكون  
لأفرادها . ولا شك أن لكلام الفصحاء في حالة التركيب خواص لا يمكن التعبير  
عن ذلك الحسن الموجود فيها .

« ولهذا أفتى الفقهاء في من بدل ترتيب الفاتحة ، وقلب بعض الآيات الى

موضع بعض ، أنه لا تصح صلاته لأنه يبطل إعجاز القرآن العظيم ، وهو سياقته على هذا النمط الغريب وتأليفه على هذا النظم العجيب (١) .

ويكرر الصفدي هذا الاحساس بالحسن الذي يسمو به تركيب عن آخر دون سبب واضح في مكان آخر فيقول : «لأننا نجد في الكلام ما عري عن هذه الأشياء» (٢) وليس له طلاوة غيره ، وتلك الطلاوة غير معقولة المعنى ولا معلومة السبب .

وَكَمَّ فِي النَّاسِ مِنْ حَسَنٍ وَلَكِنْ عَلَيْكَ مِنَ الْوَرَى وَقَعَ اخْتِيَارِي» (٣)

ويذكرنا موقف الصفدي هنا حيال الجمال أو الملاحظة بما ذكره ابن سلام في طبقاته . من ذلك قوله : فتوصف الجارية فيقال : ناصعة اللون ، جيدة الشطب ، نقية الثغر ، حسنة العين والأنف ، جيدة النهود ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر ، فتكون في هذه الصفة بمائة دينار وبماتي دينار ، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر ؛ لا يجد واصفها مزيداً على هذه الصفة . يعرف ذلك العلماء عند المعاينة بلا صفة يُنتهى إليها ولا علم يوقف عليه (٤) .

---

(١) نصره الثائر ٥٥

(٢) يذكر الصفدي أن نصاً قد يحتوي شروط الاجادة الآتية كلها وإذا بغيره يعلوه ممن لم تتوفر له مثل هذه الشروط وذلك « إذا كان النظم والنثر خالياً من الألفاظ الحشوية ، والكلمات الغريبة الخارج ، أو الدالة على المعاني التي تنفر النفوس منها ، بريئاً من قلق التركيب ، غير محتاج الى تقدير ولا حذف ولا إضمار ، سالماً من الضرورة في الاعراب ، ووزن العروض منسجم النظم متمكن القوافي خفيفاً علبى القلب وروده ، سهلاً على النفوس استخراج معناه » .

« تشنيف السمع ١٧ »

(٣) المصدر السابق .

(٤) طبقات فحول الشعراء ص ٨

## الموهبة ؛

لا يكتفي الصفدي هنا بالتصريح بأن الشعر لا يكون إلا للموهوبين ؛ بل ويؤكد أن نقد الشعر وجمعه واختياره يحتاج كذلك الى الموهبة ، كما يؤكد بأن هذه المواهب لا يمكن أن تحصل عن طريق التعلم ، وأن محاولة اتقانها بالتعلم لا تعود إلا بالمشقة الحائبة والمكابدة العقيمة .

فقد لاحظ الصفدي أن قرض الشعر غاية أخذ يسعى اليها كل أحد من متعلمي عصره ، حتى غدا تعلم العروض مرحلة يجب أن تتوج بالنظم من قبل هؤلاء ، فساء الصفدي واضرا به ما رأوه من سقم نظمهم وعقم محاولاتهم ؛ وكان منهم القضاة والفقهاء . فقال يخاطبهم مصرحاً بتواضعه المعهود .

« وقال قوم لا حاجة الى العروض لأن كل من نظم بالعروض شق ذلك عليه وأتى به متكلفاً ، ولا يتأتى له وزن البيت الواحد ، بل الكلمة الواحدة يدخلها الوزن وينظر في حركاتها وسكناتها ، وهل هي من سبين وفاصلة صغرى أو لا ، الى غير ذلك من التفصيل ؛ الا بعد مكابدة مشقة عظيمة .

« وإلى أن ينظم الناظم بالعروض بيتاً ، نظم صاحب الطبع السليم قصيدة ، وما أحسن قول أبي فراس بن حمدان :

تَنَاهَضَ النَّاسُ لِلْمَعَالِي      لَمَّا رَأَوْا نَحْوَهَا نُهُوضِي  
تَكَلَّفُوا الْمَكْرُمَاتِ كَدًّا      تَكَلَّفَ النَّظْمَ بِالْعَرُوضِ<sup>(١)</sup>

هكذا خاطب الصفدي هؤلاء ووصف حالهم بطريقة لا تخلو من السخرية ازاء ما كانوا يزاولون من العبث والهند الفارغ في ميدان الشعر .

(١) الغيث ٣٠/١

ثم توجه الصفدي بخطابه نحو قوم آخرين لا يجهدون للنظم ، بل يجهدون في ميدان آخر لا يقل عمقاً عن سابقه فقال :

« وكان شيخنا الامام العلامة تقي الدين بن دقيق العيد يقول : قل لعلماء المعاني والبيان والبديع : اتحسنون أن تقولوا مثل ( أزورهم وسواد الليل يشفع لي . . البيت ) ؟ فاذا قالوا لا ، قل لهم : فأني فائدة فيما تصنعونه . . » يريد بهذا أن العلم غير العمل ، والمباشرة دون الوصف ، والظعن في الهجاء غير الظعن في الميدان (١) .

كان هذا رأي الصفدي في الشاعر وما يجب توفره من الموهبة والطبع لديه . وقد أسلفت أن الصفدي اشترط في الناقد توفر الموهبة كذلك ، من لطف الذوق وصحة التمييز بما لا يتأتى حصوله عن طريق التعلم ، وأن سعة الاطلاع في ميدان الأدب تكون ثمرة بعد توفر الموهبة ، وعندما لا يعدو هذا الاطلاع أن يكون تدريباً لهذه الموهبة وصقلها لها . وفي هذا يقول الصفدي .

« بل الذي يجمع ويختار ؛ يحتاج الى لطف ذوق وصحة تمييز ؛ قبل العلم بالأدب ومعرفة البيان والمعاني والبديع ، ورواية الشعر عن دواوين الشعراء ، وبجاميع الأدباء ، وتواليف البلغاء ، ليكون ما يختاره يرشفه جريالاً ويعده سحراً حلالاً . . . » ولطف هذا الذوق الذي أشير اليه ، ليس مما يكتسب من أفواه الرجال ، ولا مما يؤخذ عن الأستاذ ، ولا مما ينبه عليه كبار المعلمين ، لأنه ما عند المعلم ما يقول غير أنه :

« إذا كان النظم والنثر خالياً من الالفاظ الحشوية ، والكلمات الغريبة ، أو قريبة الخارج ، أو الدالة على المعاني التي تنفر النفوس منها ، بريئاً من قلق التركيب ،



غير محتاج الى تقدير ولا حذف ولا إضمار ، سالماً من الضرورة في الاعراب ، ووزن العروض منسجم النظم متمكن القوافي ، خفيفاً على القلب وروده ، سهلاً على النفوس استخراج معناه .

« وهيات لطف الذوق من وراء هذا كله . لأننا نجد في الكلام ما عري عن هذه الأشياء وليس له طلاوة غيره ، وتلك الطلاوة غير معقولة المعنى ولا معلومة السبب (١) » .

إذن فلا بد من توفر الموهبة ، ولا نجدوى ألبتة من محاولة خلق هذا الاستعداد من عدم ؛ مهما اتقن المتعلم ما يلقى اليه لتحقيق ذلك .

وقد كشف الصفدي عن نقطة هامة تتعلق بالموهبة عموماً ، تلك هي وجوب تعهدنا بالعناية والمران وعدم تقليصها بالاهمال ، وتجميدها بمزاولة الأعمال اليدوية . فكتب في ترجمة شيخه فتح الدين بن سيد الناس قوله :

« وكان سريع الكتابة ، كتب ختمة في جمعة ، وكان يكتب السيرة التي له في عشرين يوماً وهي مجلدان كبيران . وكان جيد الذهن يفهم به النكت العقلية ويسارع اليها ، ولكنه جمد ذهنه لاقتصاره على النقل (١) » .

### ثقافة الأديب :

لا أرى بأساً في الحديث عن ثقافة الأديب من أن أعرض خلافاً لرأي الصفدي ؛ آراء كل من ابن الأثير وابن أبي الحديد ، فتعرف الى اتجاهات الأدباء في هذا الموضوع آنذاك .

(١) تشنيف السمع ١٧

(٢) الوافي بالوفيات ٢٨٩ / ١

قال ابن الأثير « اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر الى آلات كثيرة ، وقد قيل : ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم .. »

« وعلى هذا فاذا ركَّب الله تعالى في الانسان طبعاً قابلاً لهذا الفن ؛ فيفتقر حينئذ الى ثمانية أنواع من الآلات .

**النوع الأول :** معرفة علم العربية من النحو والتصريف .

**النوع الثاني :** معرفة ما يحتاج إليه من اللغة وهو المتداول المؤلف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب ، ولا المستكره المعيب .

**النوع الثالث :** معرفة أمثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام ، فان ذلك جرى مجرى الأمثال أيضاً .

**النوع الرابع :** الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنشورة ، والتحفظ للكثير منه .

**النوع الخامس :** معرفة الأحكام السلطانية : الإمامة والإمارة والقضاء والحسبه وغير ذلك .

**النوع السادس :** حفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وإدراجه في مطاوي كلامه .

**النوع السابع :** حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي ﷺ ، والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال .

**النوع الثامن :** وهو مختص بالناظم دون الناثر - وذلك علم العروض والقوافي الذي يقام به ميزان الشعر<sup>(١)</sup> .

اذن فالشاعر والكاتب يحتاجان في نظر ابن الأثير الى ثقافة واحدة عدا ما يتعلق بالعروض والقوافي .

وإذ التفتنا ناحية ابن أبي الحديد نسأله عن صحة ما قاله ابن الأثير في ثقافة الأديب أجاب بقوله :

---

(١) المثل السائر ١ / ٤٣

« هذا الكلام من أبهات الكتّاب وتزويقاتهم ، ولا يعول عليه محصّل ، وهذه الفنون التي يذكرها الكتاب ويزعمون أن الكتابة مفتقرة إليها ؛ إن أرادوا بها ضرورتها لها فهذا باطل ، لأن سحبان وقسا وغيرهما من خطباء العرب ما كانت تعرفها ، وكذلك من كان في أول الاسلام من الخطباء كعأوية وزياد وغيرهما .

وإن أرادوا أنها متممة ومكملة فهذا حق . ولكن عدمها لا يقتضي سلب اسم الكتابة ، مع أن كل ما يحتاج إليه الكاتب يحتاج إليه الشاعر وزيادة<sup>(١)</sup> .

وواضح ما في قول ابن أبي الحديد هذا من المغالطة ومجانبة الصواب ، لأن الخطيب الذي يتحدث في أمور يعرفها بلغة تغلب عليها العاطفة لا يقرون بالكاتب ، فلو ضرب مثله بالشاعر لا بالخطيب لكان قد أصاب سواء المفضل ، لكن الشعر وقد تحول عند الاكثرين من غير الموهوبين في عصره الى نظم وعلم في شكله ومضمونه ، دفعه منطقياً الى القول بأن الشاعر يحتاج الى ثقافة الكاتب وزيادة !

بقي علينا أن نتجه صوب الصفدي لنسمعه يتحدث في هذا الموضوع مفروقاً بين الكاتب والشاعر بقوله :

أما الكاتب فيحتاج الى حفظ الكتاب العزيز وادمان تلاوته ، ليكون دائراً على لسانه جارياً على فكرته ممثلاً بين عيني ذاكرته لينفق من سعته ، والى معرفة اللغة والنحو وإدمان إعراب ليلاً ونهاراً حتى يصير له ذلك ملكة جيدة ، والتصريف والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية ، والأحكام السلطانية وشيء من التفسير وشيء من الأحاديث . مثل كتاب الشهاب أو كتاب النجم الاقليشي والآثار المنقولة عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وما دار بين الخلفاء الراشدين وعمالمهم ، وما دار

---

(١) الفلك الدائر ٤/٤٠ - ٤١

بين علي ومعاوية رضي الله عنها من المحاورات ، وتواقيع الخلفاء والوزراء والكتاب ،  
وأمثال العرب .

« وحفظ جانب جيد من شعر العرب والمخضرمين والمحدثين وفحول المتأخرين ،  
وحفظ جيد الحماسة ومختار المفضليات ، وبعض قصائد منتهى الطلب جمع ابن ميمون ،  
وما أمكن من التاريخ وأسماء الرجال والحساب ، ومراجعات أمهات كتب الأدب  
مثل الأغاني والعقد والبيان والتبيين والذخيرة وزهر الآداب وأمالي القاضي والكامل  
للبرد وتذكرة ابن حمدون ، وحفظ جانب جيد من المقامات والخطب النشائية ،  
وبعض ديوان المتنبي وأبي تمام والبحري وسقط الزند وغير ذلك : وقد اخترت أنا  
من شعر هؤلاء مجلدة لطيفة .

« والوقوف على ترسل الكتاب ومراعاة ما قصدوه في كل فن ، من التهنيتي  
والتعازي والفتوحات ووصايا تقاليدهم وتواقيعهم وأوامرهم ونواهيهم فيها ، وافتتاحات  
أدعيتهم في كل ما يتشعب من طرق الكتابة ، وكيفية البداءات والمراجعات في  
الهدايا والشفاعات والأوصاف وكتب الاخوان وما يجري هذا الجرى . وهذا باب  
لا يغلق له مصراع ولا ينقصد على حصره اجماع .

« وعلى الجملة ، فالمكاتب يحتاج الى كل شيء ، ولولا أنه لا يلزمه تحقيق كل  
فن لقلت : إنه الذي يعرف الوجود على ما هو عليه . وهيات . نعم الناس  
متفاوتون في ذلك وهم على طبقات ، فمنهم من تسنم الدرجات ، ومنهم من لا نهض  
من الدرجات وما بين ذلك . ولا بد من المشاركة معها أمكن ، ولو أنه معرفة  
المصطلح لكل صاحب فن .

« وإذا أكل مواده أو قارب الاكمال ، فمعرفة مصطلح الديوان في المكاتبات  
من معرفة الألقاب والنعوت وما يجري هذا الجرى . فان هذا معرفته مع المباشرة

في أقل من جمعة يتصوره ويدربه . وهو بما لم تتقرر قاعدته ، لأنه يختلف باختلاف كل زمان وأهله . وهذا لا عبرة به فانه أسهل ما يعرفه (١) .

هذا ما يرى الصفدي وجوب تحصيله من قبل الكاتب لتكتمل له أدوات الكتابة ، ولو شئنا ارجاع هذه المواد الى علومها لكانت كما يلي :

علوم اللغة والنحو ، علوم البلاغة والعروض ، الأحكام السلطانية ، العلوم الشرعية ، المراسلات بين الخلفاء وعماهم ، تواقيع الخلفاء والوزراء ، نصوص الأدب العربي الشهيرة من شعر أو نثر ، أمهات كتب الأدب ، كتب تاريخية وتراجم ، علم الحساب ، ترسل الكتاب ، وأخيراً الاطلاع على تقاليد الديوان .

وجدير بالذكر أن الصفدي اختلف في تقرير ثقافة الأديب عن كل من ابن الأثير وابن أبي الحديد .

أما ابن أبي الحديد فكلامه لا يستحق المناقشة لأن الخطأ فيه جلي وقد قلنا فيه في حينه ما يكفي « أما ابن الأثير فقد فضله الصفدي فيما يلي :

١ - أدرك أن الكاتب يحتاج الى هذه الثقافة دون الشاعر .

٢ - لا حدود عنده لثقافة الكاتب بل إنه الذي يعرف الوجود على ما هو عليه .

كما نلمح أخيراً روح الصفدي الأدبية الطليقة التي تأبى التعيد ، إذ لم يقيد الكاتب بتقاليد الديوان القائمة لأن ذلك « يختلف باختلاف كل زمان وأهله » .

هذا ما يراه الصفدي للكاتب ، أما ما يتعلق بالشاعر فقد اكتفى بفصله عن شأن الكاتب لأن لكل ميدانه المختلف ، ولأن الحديث عن الشاعر سيمر في أكثر من موضع في كتابه ، مما كشفت عنه هذه الدراسة في مواضع شتى عند الحديث عن الموهبة أو العروض وغيرها .

---

(١) نصره الثائر ص ٦٣ وما بعدها .

## في النحو :

يؤكد الصفدي على ضرورة إتقان النحو وتعلمه ، لصيانة اللسان عن اللحن والخطأ ، حتى وصل في اندفاعه مع هذا الى الاشارة ؛ الى أن هناك من يعتقد بعدم استجابة الدعاء إذا لم يكن بلغة سليمة معربة . لا يشوبها لحن ولا خطأ .

وكم أثارته آراء لابن الأثير ، لمس فيها تساهلاً مريباً في أمر النحو والتقيد بقواعد الإعراب ، فقال في رده : « قال ( ابن الأثير ) وقد ذكر النحو : ( إذا نظرنا الى ضروبه وأقسامه ، وجدنا أكثرها غير محتاج اليه في إفهام المعاني ، ألا ترى أنك لو أمرت رجلاً بالقيام فقلت : قوم باثبات الواو ولم تجزم ؛ لما اختلف من فهم ذلك شيء ، وكذلك الشرط ضرورته وأقسامه المدونة ، لو قلت : إن تقوم أقوم ولم تجزم لكان المعنى مفهوماً . والفضلات كلها تجري هذا المجرى ، كالحال والتمييز والاستثناء .. ) .

قال الصفدي والدهشة من هذا لا تفارقه :

« ما يورد مثل هذا إلا عوام الناس ، ومن لم يتلبس بالمعروفة ، ولم يرح رائحة العلم ، ألم يعلم أنه إذا صدر عن مترسل كتاب لم يجزم أفعال أمره ولا شروطه وجوابها ، ولم يرفع فاعله وينصب فضلاته ، ولا راعى شيئاً من قواعد إعرابه التي هي ظاهرة ، ولا حافظ على شيء من الإعراب البتة ، كان ذلك ضحكة للمغفلين فضلاً عن العقلاء . وحينئذ فقد استوى العلماء والجهال !

« ألم يعلم أن بعضهم استدل على أن النحو فرض كفاية إن لم يقل أنه فرض عين ، وذهب بعضهم الى أن الله تعالى لا يقبل الدعاء اذا لم يكن معرباً . وقال الشيخ تقي الدين ابن الصلاح ( أخشى على علي تعاطى الحديث ولم يدرك النحو ؛ أن يدخل في قوله صلى الله عليه وسلم « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ! » (١) .

(١) نصره الثائر ص ٦٧ وما بعدها



ولكن ابن الأثير وهو يدرك أن في اللغة ما لا يمكن فهمه إلا معرباً فاستثنى ذلك من قاعدته بقوله « لكن قد خرج عن هذه الأمثلة ما لا يفهم إلا بقيود تقيده ، وإذا يقع ذلك في الذي تدل صيغته الواحدة على معان مختلفة . ولنضرب لذلك مثلاً يوضحه ، كقولك ( ضرب زيد عمرو ) ويكون زيد هو المضروب ، فإنك إذا لم تنصب زيدا وترفع عمراً وإلا لا يفهم ما أردت . . فوجب حينئذ بذلك معرفة النحو ؛ إذ كان ضابطاً لمعاني الكلام ، حافظاً لها من الاختلاف (١) . وبالرغم مما خرج به ابن الأثير في نهاية قوله ، بيد أن ما طلع به يبقى شيئاً كبيراً لا يحتمل ولا يسكت عنه ، إذ يشتم منه تسويغ لاستعمال العامة المتفشية بين الحكماء على الأقل ؛ إن لم يكن بذور دعوة إليها .

ولكن الصفدي يلاحقه لينقض فكرته الجديدة هذه بالمنطق المتأني فيقول :  
« إنه لا يتوصل الى معرفة الغامض إلا بعد معرفة الواضح ، ومن لم يعرف البين لم يعرف العويص ، لينتقل في التفهم من الأدنى الى الأعلى .  
« قال الخليل بن احمد رحمه الله : لا يصل أحد من النحو الى ما يحتاج اليه إلا بتعلم ما لا يحتاج اليه . . وكل علم بهذه المثابة فيه اجلي والغامض ، كما في الفقه فإن مسائله الغامضة في الحيض والتميم والفرايض وما في الجبر والمقابلة . . وغير ذلك . . لا يتوصل الانسان الى معرفة هذه المسائل العويصة إلا بعد مقدمات يفهمها من المسائل الواضحة .  
« وما رأيت من يورد مثل هذا غير العوام ومن يجهل هذا الفن (٢) . »

ويبدو أن فكرة عدم الحاجة الى إعراب الكلام كانت مختصرة عند ابن الأثير ،

---

(١) المثل السائر : حوفي وطبانة ١ / ٤٤ ؛

(٢) نصره الثائر ٦٧ وما بعدها

فلم يكن يتروك مناسبة لاثبات صحتها ، الى أن دخل بها أحد حصون العربية وهو الشعر ، فقال بعد أن ساق شيئاً من نظم أبي نواس وأبي تمام وأبي الطيب ولحنهم : « ولهذا لم يكن اللحن قادحاً في حسن الكلام » .

فصاح الصفدي قائلاً : « ما بقي بعد هذا إلا أن يقول : إن مراعاة الإعراب علة موجبة لقبح الكلام ، أتراه ما سمع بقولهم : النحو في الكلام كالمالح في الطعام وقد ذهب بعضهم الى أن الإعراب إنما سمي إعراباً لأن « العرْبُ في قوله تعالى « عُرْباً أتراباً » هن المتحبات الى أزواجهن ، فكان من أعرب كلامه تحبب الى مخاطبه . وأقول : معنى تحببه كونه ذكر أمارات تدل على معانيه ، فإنه إذا أراد التعجب قال : ما أحسن زيدا ، ولو ترك الإعراب وقال : ما أحسن زيد بسكون النون والبدال لالتبس الفهم على المخاطب وبقي في حيرة ، هل هو مستقيم أو متعجب أو مخبر ! فلما نصب النون والبدال علم أنه يتعجب ، وإذا قال ما أحسن زيد برفع النون وكسر البدال علم أنه يستفهم . وإذا قال ما أحسن زيد بنصب النون ورفع البدال علم أنه مخبر بنفي الاحسان عنه . وإذا أراح المتكلم من مخاطبه من الفكر والحيرة بالإعراب فقد تحبب اليه ..

« وأنا فما أنكر أن لطف التركيب وسهولة الكلام أمر آخر وراء النحو . هذا معلوم ، ولكن المشاحة في تعسفه وتعنّته (١) . » .

هذا وإن الصفدي في دفاعه هذا ، ليدرك تماماً أن النحو - في أهميته البالغة في الإبانة وحسن الإفصاح - لا ينفصل عن الأدب في تعبيره عن الحالات الشعورية التي لا تحصى ، وأن الجهل بالنحو يورث الكاتب أو الشاعر ضعفاً في الأداء لا شك فيه ، وأن التعمق فيه والغوص على دوره في التعبير يطلع صاحبه على أسرار في

---

(١) نصره الدائر ٦٨ وما بعدها

العربية وقدمتها التعبيرية لا حد لها . ونتمس ذلك من رده بعد أن أورد لابن الأثير قوله « في النوع الخامس في توكيد الضميرين : ان قيل في هذا الموضع إن الضمائر المذكورة في كتب النحو فأني حاجة الى ذكرها هاهنا ، ولم نعلم أن النحاة لا يذكرون ما ذكرته ! قلت : إن هذا يختص بفصاحة وبلاغة ، وأولئك لا يتعرضون اليه ، وإنما يذكرون عدد الضمائر ، وأن المنفصل منها كذا ، والمتصل كذا ولا يتجاوزون ذلك . وأما أنا فاني أوردت في هذا النوع أمراً خارجاً عن الأمر النحوي » .

وينظر الصفدي الى أبعد من بعض حفاظ النحو ليقول : « إن نحو المتقدمين غالبه معان وبيان ، مثل الرماني وأبي علي الفارسي وابن جني على تأخر زمانهم ، وأكثر ما هو الآن مدون في علم المعاني مذكور في كتب القوم . ولكن لما أتى الإمام عبد القاهر الجرجاني جرد هذه النكت - التي ليست باعراب ولا بد - وجمعها ودونها وبوبها ورتبها ، صار علماً قائماً برأسه ، وتبها الناس بعده كالسكاكي وغيره ، وتفتحت لهم الأبواب .

« ولهذا إن من لم يكن متمكناً من النحو لا يقدر على الكلام في هذا . ألا ترى الزمخشري لما كان عارفاً بالنحو تيسر له في تفسيره ما لا تيسر لغيره ، وباقتداره على الإعراب والنظر في أسرار العربية وتعليل أحكامها أورد تلك الإشكالات وأجاب عنها بتلك الأجوبة المرقصة ، وبالنحو استطال ومهر وتبحر - ودرية فني - النظم والنثر هي التي نبهته لذلك .

« حتى إن الامام فخر الدين في تفسيره تراه إذا تكلم في سائر العلوم غير مقلد لأحد ، فاذا جاء المعاني والبيان قلده الزمخشري في ذلك وقال : قال محمود الخوافزمي ، وقال صاحب الكشاف ،

« ولهذا قال العلماء : من نظر في الكشاف ولم يكن عارفاً بالعربية وأصول الدين ، صار معتزلياً »<sup>(١)</sup> .

ونخلص الى القول الى أن الصفدي في تمسكه باعراب الكلام ودفاعه عن مراعاة قواعد النحو ؛ كان أديباً بعيد الغور ، فلم يفعل ذلك دفاعاً عن قديم موروث أو تقليد للمرددين من حفاظ النحو ؛ بل فعل ذلك بروح الأديب العارف بأسرار العربية ، ودور النحو في منح القدرة على أداء المعاني المختلفة ، والتعبير عن حالات الأديب وخلقاته النفسية بألوانها المتعددة .

### التعبير للادب :

تطلق آراء الصفدي هنا من غرام ابن الأثير بالتقعيد الدقيق للأدب والكتابة فيه . فاذا ما أعجبه أمر في بيت من الشعر جعل ذلك قاعدة ، وحرّم استعمالها في ميدان النثر مثلاً ، وإذا وصل الى طريقة ما في الكتابة النثرية جعلها قاعدة مطردة لا يجوز الخروج عنها .

والصفدي بروحه الأدبية الطليقة يدرك أن كل حالة أو مناسبة ستجد لها الطريقة التي تناسبها والعبارة التي تؤدّيها . ويستند في رده الى النصوص والشعرية منها في غالب الأحيان .

وهذه مجموعة من الأمثلة والناذج للكشف عن هذه الناحية عند الرجلين نذكر منها روح كل منها في هذا الميدان العلوي الرفيع .

وقال (ابن الأثير) في المعاظة : القسم الخامس من المعاظة أن ترد صفات متعددة على نحو واحد كقول أبي تمام : وأنشد له أبياتاً منها :

---

(١) نصره الثائر ٢٨٠ وما بعدها

تَامِكِهِ نَهْدِهِ مُدَاخِلِهِ مَأْمُومِهِ مُحْزَنَلَهُ أُجْدِهِ

ثم قال : وهذا البيت من المعازلة التي قلع الأضراس دونها .

أقول : ليس ثقل البيت من تعدد الصفات وإنما هو من قوله : تامكه ومحزنله وليس في تعدد الصفات نفسها ثقل ولا معازلة إذا وردت بالفاظ عذبة . كما تقول إذا وصفت قواماً : قويه أهيفه ناعمه لدنه ريبانه . فان حذف الماء زاد حسناً .

ومثل ذلك قول القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان :

قَسَمًا بَوَجْهِكَ وَهُوَ بَدْرٌ طَالِعٌ      وَبَلِيلِ طُرَّتِكَ الَّتِي كَالغَيْهَبِ  
وَبِقَامَةِ لِكَ كَالْقَضِيبِ رَكِبْتُ فِي      أخطارِهَا فِي الْحَبِّ أَصْعَبَ مَرَكَبِ  
وَبطِيبِ مَبْسَمِكَ الشَّهِيِّ الْبَارِدِ آلِ      عَذْبِ النَّمِيرِ اللَّوْلُؤِيِّ الْأَشْنَبِ<sup>(١)</sup>

و « قال ( ابن الأثير ) في النوع الثامن في استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات ( وأما الصفات المتعددة ، فإنه ينبغي أن يبدأ في الذكر بالأدنى مرتبة ثم بعدها بما هو أعلى منها إلى أن ينتهي إلى آخرها ، هذا في مقام المدح ، فإن كان في مقام الذم عكست القضية .. وقد أغفل كثير من الشعراء ذلك من جملتهم أبو الطيب حيث يقول :

فانه إذا فعل ذلك كان كالمرتفع من محل إلى محل أعلى منه ، وإذا خالفه كان كالمنخفض من محل إلى محل أدنى منه .

يَا بَدْرُ يَا بَحْرُ يَا غَمَامَةً يَا      لَيْثَ الشَّرَى يَا حِمَامُ يَا رَجُلُ

(١) نصره الشاعر ١٦٩

« فأما قوله يا بدر فإنه اسم الممدوح والابتداء به أولى ، ثم يجب أن يقول بعده يا رجل ياليت يا غمامة يا بحر يا حمام . لأن الليث أعظم من الرجل ، والغمامة أعظم من الليث ، والبحر أعظم من الغمامة ، والحمام أعظم من البحر .

« قلت : وللناس فيه تأويل آخر وهو أنه لا يلزمه الانتقال من الأدنى الى الأعلى فيما قصده ، لأنه أراد وصفه بالمدح الذي ادعاه فيه قبل وقال : يا بدر اسمه ، ثم قال يا بحر ، فإن لم أصدق فيما أقوله فياغمامة ، فإن لم أصدق فياليت ، فإن لم أصدق فياحمام لأنك تعدم نفوس أعدائك الحياة ، فإن لم أصدق فيارجل جمع هذه الأوصاف التي ذكرتها (١) .

فاذا كان ابن الأثير قد فرض هذه الحدود الصلبة للتعبير عن المشاعر فإن الصفدي قد جانبه التوفيق فلم يحسن الرد ، وإن كان رده في منطلقه يجول في ميدان الشعور والتعبير عنه بعيداً عن القواعد المسبقة .

فالمتنبى في مدحه يبدأ بذكر الممدوح فتحرك بذكر اسمه شعوره نحوه ، وتذكر أيديه وفضله فقال يا بحر ، وغمره الشعور فقال بل يا غمامة . وتحرك إعجابه بمدوحه من حيث الشجاعة فوصفه بالليث ، ثم امتلأت نفسه بشجاعته فكان حماماً وهو في الحقيقة رجل ولكن أي رجل ..

ويعن ابن الأثير في إقامة القواعد القاسية ، وبناء القوالب الأدبية الجامدة يصب فيها آثار الأدباء ، فما وافق القالب فهو حسن ، وإلا فهو مرفوض وشأن صاحبه عجيب .

فمن ذلك قوله « في النوع الثامن من التشبيه : ( وقد وقيل ؛ إن من شرط بلاغة التشبيه ، أن تشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم . ومن هنا غلط بعض

---

(١) نصره الثائر ٢٨٦ وما بعدها



كتاب أهل مصر في ذكر حصن من حصون الجبال مشبهاً له : ( هامة عليها من الغمامة عمامة ، وأئمة خضبها الأصيل وكان الهلال لها قلامة ) . ثم أخذ يعيب هذا ويقول : أي مقدار للأئمة أن تشبه الحصن وأطال باعتراض وجواب .

ويورد الصفدي هذا القول كعادته بنماذج من شعر الشعراء فيقول :  
« فعلى هذا تبطل غلبة الفرع على الأصل في التشبيه ونخطيء مثل ذي الرمة في مثل قوله :

ورمّل كأوراك العذارى قطعته إذا ألبسته المظلمات الحنادس .  
« فإنه شبه كثبان الرمل بما هو أقل منها وأحقر ، لأن أورك العذارى دون الكثبان . ولا نستحسن مثل قول أبي بكر محمد بن هاشم :

والمشترى وسط السماء تخاله وسناه مثل الزئبق المترجرج  
مسمار تير أصفر ركبته في خاتم وألفص من فيروزج  
« فإن كرة السماء والمشترى أكبر من الفص والمسار .  
« وقول ابن خفاجة :

في خصر غور بالأراك موشح أو رأس طود بالغمام معمم  
« ومثل هذا كثير ، وكل ما كان في العالم العلوي لا يشبه بشيء من العالم الأرضي لأنه أحقر وأقل ، كما تشبه الثريا بالنرجس الذابل ، والهلال بالقلامة والنعل ، والبرق بالسيف ، والشمس بالمرآة ، والنجوم بالسراج ، وقوس قزح بأذيال العروس ، وجميع ما هو من هذا الباب لا يجوز تشبيهه وإن كان فلا يكون بليغاً ! وهيئات هذا سد لباب الحسن .. (١) » .

نعم إنه سد لباب الحسن ، وقطع لطريق الابتكار ، وتجميد للقرائح ، وتزييف للشعور ، وإزهاق للانفعال ، وتشجيع للتقليد . حتى يغدو الشعراء نسخاً متكررة لا طعم فيها ولا لون ولا تأثير .. وهكذا كان .

---

(١) نصره الناشر ٢٦٦ وما بعدها

## الصنعة :

وعندما نصل إلى الصنعة في هذا العصر نرى أنها الهواء الذي كان يتنفسه الأدباء آنذاك ، إذ دخلت أساليبهم مع الحروف والألفاظ بل وقبل هذه الحروف والألفاظ ؛ حتى غدا السجع في النثر نسيج هذا النثر ، وتغير اسم الجملة والعبارة والتركيب وأمسى اسم ذلك سجعة ، تلهف لسماها آذانهم وتطرب لها نفوسهم ، وتسابقت صنوف البديع إلى إنشائهم سعياً ، وتطلبوا متعة الحواس بكل سبيل ، حتى غدا القارئ ينتظر فيما يقرأ أو يسمع موطن الطرفة ، أو الكلمة محور التورية ، فتفرج الشفاه ببسمة الرضى ، وتدخل المسرة إلى القلوب .

أما حال الشاعر فلم تكن تختلف عن حال زميله الكاتب ، فهو إن أتى بالشعر وليس فيه إلا التماس لواحدٍ فقط من صنوف البديع ، فلا مجال للفخر فيه ؛ ولا بأس في هذه الحالة - وكاهل شعره ينوء بهذه الأثقال - أن لا تزيد أبياته عن اثنين فإذا تجاوزها فما أقوى أجنحته وما أروع قدرته .

وما دام الأمر كذلك فلم لا يكون كل المتعلمين شعراء ، إن البيتين والثلاثة أمرها يسير وكيف لا وهذا ميزان العروض قائم للجميع ، وتلك تفعيلاته مبدولة بلا حساب ، وهاتيك ألفاظ اللغة مبثوثة في كل مكان ، ومعاني الشعراء في الدواوين ترتع بلا حراس ، وعيون النقد نائمة لا خوف من يقظتها لأن هذا التيسار الزاخر كفيل بجرفها في طياته .

إذن فلم لا يحمل كل متعلم لقب الشاعر فيروي الناس ما يقول ، والأمر

ميسور كما رأيت إذ لن يكلفه سوى الجهد اللغوي في عملية قسر الألفاظ لتدخل  
قوالب العروض ، ثم العودة إليها بالنحت والتغيير ليم لهذا الرصف ما يستحب فيه  
من أنواع البديع .

إذا كانت الحال الغالبة كما وصفت ؛ فإن مضمار القريض لم يكن يخلو من  
الموهوبين القادرين ، يجدون في أحداث العصر من حروب التتار والصليبيين متنفساً  
لنفوسهم الجياشة وبياناتهم الواثق المتين . بيد أن هذا كله لم يكن ينسبهم ما يجب  
أن يكون ، من التماس أنواع الصنعة والبديع ، تحقيقاً للمتعة الحسية من ناحية ؛  
وتأكيداً على قدرتهم البيانية من ناحية أخرى .

إذا كانت صورة الأدب في العصر كما أسلفنا ؛ فماذا كان موقف الصفدي من  
هذا التهافت على الصنعة ، والتسابق لتحقيق أكبر قدر من أشكالها فيما يقال من  
شعر أو نثر .

وقبل الاجابة عن هذا التساؤل أقول : إن الصفدي لم يكن بعيداً عن أدباء  
عصره . أي أن سعيه لتحقيق هذه الصنعة في صنوف البديع أو غيره ؛ لم يكن  
يقل عن سعيهم ، وكان يشعر في ذلك بمتعة أي متعة ، كما كان فخره واضحاً  
عندما يحقق في شعره أو في نثره أكثر من واحد من أشكال الصنعة . كقوله بعد  
أن عرض ما يزيد على خمسة عشر نموذجاً قصيراً من شعره . كان منها قوله :

يَا سَاحِبًا ذَيْلَ الصَّبَا فِي الْهَوَى      أَبْلَيْتَهُ فِي الْغَيِّ وَهُوَ الْقَشِيبُ  
فَاغْسِلْ بِدَمْعِ الْعَيْنِ ثُوبَ التَّقَى      وَنَقِّهِ مِنْ قَبْلِ عَصْرِ الْمَشِيبِ

فقال « إنني ما أثبتت هذه الأبيات لما فيها من اللزوم ولا بد ، فإن ذلك إنما  
جاء فيها ضمناً وتبعاً ، وإنما أثبتها لما فيها من التورية . وذلك ظاهر لمن تأمل مواضعها<sup>(١)</sup> .

---

(١) نصره الثائر ١٥٥

كما قال بعد إحدى رسائله : « وغالب ما أنشئه أنا إنما آتني به ملزوماً وخطبة هذا الكتاب ملزومة (١) » .

فهو يفخر إذن بقدرته على الجمع بين التوريه واللزوم في شعره ، وبين اللزوم والسجع في نثره .

وقد بدا ميل الصفدي إلى الجناس واضحاً قوياً فأحبه في نصوص الأدباء ، وأكثر من ذكره وتحقيقه في أدبه ، من ذلك قوله :

أَتَى مَحَلِّي أَنَسٌ      بِهِم يُحْكِي الْمَدِيحُ  
زَارُوا وَزَانُوا وَزَادُوا      هَذَا الْجِنَاسُ الْمَلِيحُ

كما قال أيضاً :

لِلَّهِ قَوْمٌ حَمُونِي      مِنْ حَادِثَاتِ اللَّيَالِي  
صَانُوا وَصَابُوا وَصَالُوا      كَذَا جِنَاسُ الْمَعَالِي (٢)

وبالغ الصفدي في كلفه بالجناس والتعلق به ، فتوسع على يديه وكثرت فروع وأنواعه حتى غدا فيه رأس مدرسة في عصره ، وألف في ذلك قائلاً : « وقد وضعت أنا في ذلك كتاباً وسميته ( جنان الجناس ) قسمت فيه الجناس إلى ما أمكن تقسيمه ، فجاء ما يقارب الستين قسماً ، فمن أراد تحرير التجنيس في أقسامه فليقف عليه هناك (٣) » .

وليس معنى ذلك أن الصفدي كان كغيره يندفع مع هذا التيار بسطحية

---

(١) نصره الناشر ١٥٧

(٢) الغيث المصجم ١ / ٤٥

(٣) نصره الناشر ١٤٥

وسذاجة . فقد كان يدرك أن وجوه الصنعة هذه لا تعدو أن تكون حلية للمتعة الآنية ، وليست هي كل شيء في الأدب . ففي معرض حديثه عن الشاعر الطغرائي يقول : « وله مقاطيع شعر في الصنعة ، وله ديوان شعر على عادة الشعراء (١) » .

فتلك المقاطيع إذن مادة يصنعها وينمقها للتسلية والمتعة ، أما قصائد الديوان فصورة لحياة الشاعر بطموحها وأحداثها . بمشاعرها وأفكارها . فكأن تلك المقاطيع في الصنعة صورة للجانب السطحي الهازل من حياتهم ، والقصائد الأخرى تمثل الجانب الجاد الضارب في أعماق نفوسهم وأفكارهم .

ويعود الصفدي لتأكيد مثل هذا المعنى حين يسمو بالأدب عن مثل هذه الألاعيب فيقول « ومثل هذه الأشياء من اللغز والأحجية والأغاليط ، والإتيان بالكلمة المعجمة وبعدها المهملة ، وبالحرف المعجم وبعده الممهل ، أو صدر بيت كذا وعجزه كذا . . كل ذلك لائق بالمقامات أما في الترسل والخطب فإنه يكره ويستثقل لأن الترسل ليس المراد منه التفقه في الأدب ، وإنما هو إما لهناء أو شكر أو مدح أو وصف أو استعطاف أو عتب أو شوق أو غير ذلك ، ومثل هذه الأشياء لا يليق بها التكلف .

« على أنه وإن كانت هذه الأنواع في المقامات ؛ فينبغي أن يكون كاللمع اليسيرة ؛ فإنها إذا كثرت سمجت . ألا ترى أن العباد الكاتب - رحمه الله تعالى - لما جعل كلامه مشحوناً بالجناس لا تكاد كلمة تخلو من ذلك ثقل على الأسماع والقلوب (٢) »

إذن فالأدب ميدانه الشعور ، والتكلف بمقوت حتى في المقامات .

نخرج من هذا إلى أن الصفدي كان يفرق بين نوعين من الشعر :

---

(١) الغيث المسجم ١ / ٨

(٢) نصره الثائر ٣٦٩ وما بعدها

أما الشعر الجاد الذي تضمه القصائد الطوال ، حيث تسيطر الفكرة ، ويغمر الشعور ، ولا تجرؤ صنوف الصنعة على الاقتراب منه إلا بقدر ؛ فليس مجاله ما نحن فيه . لكن اهتمامنا الآن ينصب على المقاطيع التي احتضنت الصنعة وتحملت بها ، لنبين موقف الصفدي الناقد حيال هذه الظاهرة المتفشية فنقول :

إن مراعاة هذه اللذة الحسية في إعجاب الصفدي بالصنعة ، وسعيه لتحقيقها في بعض أدبه ، كانت تحددها وتحدها شروط لا يتساهل الصفدي فيها ، ينتظمها الذوق والحس السليم ويشترك فيها جميعاً .

أولها - عدم الإخلال بالمعنى ، فهو لا يتردد في رفض أي وجه من وجوه الصنعة يؤدي الى المساس بالمعنى ، فالأثواب اللفظية المزرقة لا تغني عن معنى تقوم عليه وتنهض على أساسه . ولنستمع للصفدي يقول : وقال ابن الساعاتي :

ضَاهِي مُقْبَلُهُ فَرِيدَ عُقُودِهِ      فِي مَنَعِهِ وَضِيَائِهِ وَنِظَامِهِ  
أَبْدَأُ يُشْتَتُّ لَوْعَتِي تَشْتِيَتُهُ      وَيَزِيدُنِي ظَمًا مَدَارُ نِظَامِهِ

« أما قوله (أبدأ يشتت لوعي تشتيته) فإنه خطأ . لأن اللوعة إذا تشتت تفرقت أجزاؤها وضعفت ، وليس هذا من شكوى المحبة في شيء . وكان الأليق أن يقول : أبدأ يجمع لوعي أو يضم صابتي . ولكن الجناس أذهله (١) .

ويقول الصفدي :

« قال ( ابن الأثير ) ووجدت لبعض الأدباء لغزاً في حمام . ثم إنه ذكره وقال بعد الفراغ منه : ( وهذا من فصيح الألغاز ، ولا يقال في صاحبه إنه في العُمي ضائع العكاز ) .

« أقول : ما السجعة الثانية مناسبة للأولى في المديح والتقريض ، وما كانت

---

(١) الغيث المسجج ١ / ٢٧١



السجعة تريد ألا أن يقول بعدها : ولا أنه في الحيوان معدود من البهائم لأنه انفرد بالنطق وامتاز . ومارأيت من قرظ أحداً بمثل هذا التقريظ ويكون المقام مقام إستحسان وثناء ومدح فيقال ما هو في العمى ضائع العكاز . وأي مدح في هذا وقد جعله أعمى بعكاز ، وهو أشد حالاً من الأعمى الذي يمشي بلا عكاز ، لأن الذي يعتمد مع عماء على عكازه يكون قد جمع بين عمى البصيرة وعمى البصر .

« والظاهر أنه أراد أن يذكر المعنى فما اتفق له ، والتزم بالزاي فما وجد غير العكاز (١) » .

وقال الصفدي في نقد عبارة لابن الأثير في وصف كتاب بأنه « فوق الكلام الممجيد ودون القرآن المجيد » بقوله بعد مناقشة طويلة : « ما ضاق المجال عليه ولا حصره ضيق المقام الى هذا حتى يحتاج الى أن يأتي بما يجتري فيه ، وما أوقعه في ذلك إلا لفظة (المجيد والمجيد) وطلب الجنس (٢) » .

أما الشرط الثاني : فهو مقابل لما سلف وتمام له ، وهو أن الصفدي يقبل بالصنعة بل ويقترحها وذلك إذا خدمت المعنى وانسجمت معه . يقول في ذلك « قال شهاب الدين التلعفري :

وَإِذَا التَّنِيَّةُ أَشْرَفَتْ وَشَمَّتْ مِنْ      نَفْسِ الحِمَى أَرْجَا كَنْشِرِ عَبِيرِ  
سَلْ هَضْبَهَا الْمَنْصُوبَ أَيْنَ حَدِيثُهَا أَلَّا      مَرْفُوعٌ عَنْ ذَيْلِ الصَّبَا الْمَجْرُورِ

« وهذا غاية الحسن من الصناعة ، فإنه أتى بالمنصوب في المنصوب ، وبالمرفوع في المرفوع ، وبالمجورور في المجورور . وله بيتان آخران في هذا المعنى ولكن هذا أحسن وأكمل (٣) » .

(١) نصره النائر ص ٣٤٢

(٢) « « ١٢٣

(٣) « « ٣٢٧

كما يعلق على بيت المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي      وأثني وبياض الصبح يغري بي

بقوله : « هو معدود في المحاسن التي انفرد بها أبو الطيب ، لما فيه من  
مقابلة خمسة بخمسة ولم يتفق هذا العدد لغيره (١) » .

كما يورد للفاضل قوله في تقرّيب قصيدة :

« وعجبت لا طراد تلك القوافي ، ورأيت الشعراء أتت بما ألفت في ضيق  
الأودية وخاطره وقلمه أتيا بما ألفت في الفياضي . . »

« قلت : وعلى ذكر الفياضي في قول الفاضل وما ركبه في هذه السجعة من  
الجناس المليح ؛ فكنت كتبت الى شيخنا الحافظ فتح الدين محمد بن سيد الناس  
أبياتا ، وأجابني عنها بنظم ونثر . من جملة النثر « بل ذلك السحر الحلال الشافي ،  
بل تلك القوى في القوافي ، بل تلك المقاصد التي اقصدت المأنا في المنافي » فكتبت  
الجواب اليه . ومنه :

« وعكف منه على كعبة البلاغة فياحسن ما نشر في استلامي وطوى في  
طوافي ، وأراد طائر القلب أن ينهض بالجواب فذهبت القوى من القوادم وظهر  
الحوى في الحوافي (٢) » .

وقال شرف الدين الحلوي :

وَبَدَتْ نَظَائِرُ ثَغْرِهِ فِي قُرْطِهِ      فَتَشَابَهَا مُتَخَالِفَيْنِ فَأَشْكَلا  
فَرَأَيْتُ تَحْتَ الْبَدْرِ سَالِفَةَ الْطلا      وَرَأَيْتُ فَوْقَ الدَّرِّ مُسْكِرَةَ الْطلا

(١) نصره الثائر ص ١٣٥

(٢) « « ١٣٢ وما بعدها

« قلت : لو اتفق له أن يقول (سُلافة الطيّلا) لكان أحسن . ولكن هذا من الجناس المعنوي ، لأنه أراد ذلك فلم يساعده الوزن ، فعدل الى ما يراد في ذلك المعنى .

وهذا النوع استدركه المتأخرون وهو عندي باطل ، لأن هذا الباب إذا فتحناه كان غالب الشعر جناساً معنوياً . وقد أشبعت القول على هذا في مكانه من كتابي المسمى « جنان الجناس (١) » .

ومما يوضح انشغاله بأمر المعنى رغم التفاته نحو إتمام الصنعة ؛ فيوائم بين الأمرين قوله : في مناقشة قول ابن الأثير في خطبة كتابه « وعلى آله وصحبه الذين منهم من سبق وبلد ، ومنهم من صابر وصبر ، ومنهم من آوى ونصر » .

فقال الصفدي : « لو قال : ومنهم من هاجر ونصر لكان أحسن من وجهين : أحدهما أنه حصل له الموازنة والترصيع بين هاجر وصابر . وثانيها أنه يتناول المهاجرين والأنصار من الصحابة رضوان الله عليهم ، فإنهم مقدمون على الأنصار . وعلى قوله ، لا ذكر للمهاجرين فإن من الأنصار من سبق غيره الى الإيمان (٢) » .

فقوله هنا يعطى أصدق صورة عن الصفدي الذي يتذوق الصنعة ويطرب لها مع المحافظة على سلامة المعنى واغناثه ، وإلا فإنه يرفض وجه الصنعة هذا ، ويسد إليه أشد سهام النفور والاستنكار كما رأينا .

ويأتي الشرط الثالث لتحظى الصنعة برضى الصفدي هو عدم التكلف في إيرادها ، حتى إذا كان الموضوع في حد ذاته متكلفاً ؛ فإن موهبة الشاعر القدير تضي على النص من السهولة والانسجام ما يجعله يحظى بالرضى وحسن القبول وفي ذلك يقول الصفدي :

(١) الغيث المسجم ١٧٤/١

(٢) نصره الثائر ص ٥٥

« وقد يكون الشاعر مجيداً فيأتي بنوع من التكلف وليس عليه أثر الكلفة ،  
كقول ابن حمديس :

مُزَرَّفَنُ الصَّدْعِ يَسْطُو لِحْظَهُ عَبَثًا      بِالْخَلْقِ جَذْلَانِ إِنْ أَشْكُ الْهَوَى ضَحِكًا  
لَا تَعْرِضَنَّ لِرُودِ فَوْقَ وَجْنَتِهِ      فَإِنَّمَا نَصَبَتْهُ عَيْنُهُ شَرَكًا

فالأول يجمع حروف المعجم كلها على عدم تبين الكلفة عليه (١) .

ويؤكد الصفدي على هذه الناحية ، ويزيد الأمر وضوحاً بقوله :

« والجناس إذا كثر في الكلام مثل ، اللهم إلا أن يكون سهل التركيب  
ليس على المتكلم فيه كلفة . كما حكى عن بعض جواري المعتمد بن عباد أنها قالت  
له وهما في سجن أغصت : يا مولاي لقد هُنتا هنا . فقال المعتمد :

قَالَتْ لَقَدْ هُنَّا هُنَا      مَوْلَايَ أَيُّنَ جَاهُنَا

قُلْتُ لَهَا إِنْ هُنَا      صَيْرَنَا إِلَى هُنَا (٢)

والشرط الرابع : لتفوز الصنعة برضى الصفدي عنها هي ؛ ألا تكثر حتى  
تجيب المعنى وتثقل كاهل النص . إذ ما أشد ما تنفر نفس الصفدي من النص إذا  
أرهقته صنوف البديع ، وبدا عليه لهاث الكد والمشقة . وفي ذلك يقول :

« الجناس وإن كان من أنواع البديع ؛ لكن بعض صورته مستثقل ، كقول  
ابن الفارض من قصيدة :

أَمَا لَكَ عَنْ صَدِّ أَمَا لَكَ عَنْ صَدِّ      لِظَلَمِكَ ظُلْمًا مِنْكَ مَيْلٌ لِعَطْفَةٍ  
فَرُحْنٌ بِحُزْنٍ جَازَعَاتٍ بُعِيدًا      فَرُحْنٌ بِحُزْنٍ الْجَزَعِ بِي لَشَبِيبَتِي

(١) نصره الثائر ص ٣٧٠

(٢) الغيث المسجم ٣٧/٢

« فانظر الى استئقال البيت الأول لما فيه من جناس التحريف في صد وصد .  
الأول من الصدود والثاني صدٍ أي عطشان . وفي ظلم وظلم . الأول الظلم بالفتح  
وهو الريق والثاني بالضم وهو الجور ، مع التقديم والتأخير الذي يحتاج الى اقليدس  
حتى يستخرج ترتيبه على خط مستقيم .

« والتقدير فيه : أمالك ميل لعطفة عن صد أمالك ظمناً منك عن صد لظلمك .  
فأمالك الأول مركبة من همزة الاستفهام وما النافية ولام الجر وكاف الخطاب ،  
وأمالك الثانية مركبة من فعل ماض من الإمالة وكاف الخطاب .

« وأما البيت الثاني ففيه فرحن مرتين . الأولى : الفاء للعطف ورحن فعل ماض  
من الرواح لجماعة الإناث ، والثانية فعل ماض من الفرح لجماعة الإناث أيضاً والراء  
في الأولى مضمومة وفي الثانية مكسورة . وفيه الحزن مرتين ، الأولى بضم الحاء  
ضد الفرح ، والثانية بفتح الحاء من الأرض ضد السهل .

« ولهذه الألفاظ التي عقدها عقد الميزان لأجل الجناس ، صار كلامه وحشياً  
من العوام ، بل من بعض الحواص الذين لم يتمهروا في الأدب . وهذه الأشياء  
لا يخفى على ذي الذوق السليم ما فيها من الاستئقال .

« ولم أقل هذا الكلام جهلاً بقدر الشيخ شرف الدين بن الفارض رحمه الله ،  
وأنه لم يكن من الفصحاء ، ألا ترى قصائده التي أخلاها من الجناس مثل الميميتين  
والجيمية واللامية والمهموزة وغيرها فما أرقها وأحلاها (١) .

هذا هو موقف الصفي الناقد حيال الصنعة التي تفشت في عصره ، فهو وإن  
أقبل عليها مراعيّاً إمتاع الحواس ، فإنه لم يكن يغفل عن الغاية الأولى من كل نص

---

(١) الغيث ٣٧ / ٢

أدبي وهو المعنى والشعور ، فكان حسن الأداء للمعنى ، وقوة التعبير عن الشعور هو المقياس الذي يحكم به للصنعة بالحسن ؛ أو عليها بالكلفة والإخفاق .

### التخييل وابداع المعاني :

إن الحديث في التخيل والإبداع لما يلفت النظر ؛ في عصر وجد في التقليد والأخذ عن السابقين في حل المنظوم وغيره أمراً مألوفاً ، بل هو لازم مفروض يدعو إليه المعلمون والنقاد ويلحون ، بما لا حاجة معه البتة للتفكير في تخيل أو إبداع . بيد أن الصفدي تكلم في هذا ، وبحث في نشأة الصور ودور كل من النفس والحواس في ذلك .

ويبدأ الصفدي حديثه مشيراً الى أثر غنى التراث الأدبي ، وامتداد الزمن ، في تداول المعاني والصور وقلة الإبداع فيها فيقول :

« وأعلم أن للشعراء ألفاظاً صارت بينهم حقائق عرفية وإن كانت في الأصل مجازاً ، لكثرة دورانها في كلامهم وتعاطيهم استعمالها ، لأنهم ألقوا ذلك من تداولها وتكرارها على مسامعهم .

« من ذلك الغصن إذا أطلقوه فهم منه القوام ، والكثيب إذا أطلقوه فهم منه الردف ، والورد إذا أطلقوه فهم منه الوجنة ، والأقاح إذا أطلقوه فهم منه الثغر ، والراح إذا أطلقوه فهم منه الريق ، والنرجس إذا أطلقوه فهم منه العيون ؛ وكذلك السيف والسهم والسحر ، وإذا أطلقوا الآس أو البنفسج أو الریحان فهم منه العذار .

« فكل هذه الأشياء انتقلت عن وضعها الأصلي وصارت حقائق عرفية ، نقلها



الأصطلاح الى هذه الأشياء (١) .

وبذلك يدخل الصفدي في موضوع من أكثر شئون الأدب حساسية ودقة ،  
فلنسر معه حتى النهاية لنرى المدى الذي يصل إليه في معالجة هذا الأمر ، الذي  
تفاقت خطورته في عصر الصفدي على وجه الخصوص .

فهو في نصه السابق لم يتوقف حيث كان ؛ بل تابع قوله ليعرض علينا نماذج  
شعرية يؤكد به ما ذكره ، ملمحاً بهذه النماذج الى أن ظاهرة التداول والتقليد هذه  
لم تبدأ من عصره ؛ وإنما كانت في أزهى عصور الأدب ، وعلى لسان أبرع شعرائه فيقول :

« قال أبو نواس :

يا قمرأً أَبَصْرَتْ في مَأْتَمٍ      يَنْدُبُ شَجْوَاً بَيْنَ أَتْرَابِ  
يَبْكِي فيُذْرِي الدُّرَّ مِنْ نَرْجِسٍ      وَيَلْطُمُ الْوَرْدَ بِعُنَابِ

« وقال ابن المعتز فيما أظن :

وَمُهْفَهْفِ الْحَاطِظُهُ وَعِذَارُهُ      يَتَعَاضِدَانِ عَلَى قِتَالِ النَّاسِ  
سَفَكَ الدَّمَاءَ بِصَارِمٍ مِنْ نَرْجِسٍ      كَانَتْ حَمَائِلُ غَمِّهِ مِنْ آسِ

« وقال ابن إسرائيل :

وَأَسْمَرَ عَسْجَدِيَّ اللَّوْنِ تَحْكِي      مَعَاظِفُ قَدِّهِ سُمَّرَ الْعَوَالِي  
يُدِيرُ عَلَى الشَّقِيقِ عِذَارَ آسِ      وَيَبْسُمُ بِالْعَقِيقِ عَنِ اللَّالِي

(١) الغيث ١ / ٢٦٦

« قلت : لو قال لثام آس لكان أصنع وأحسن .

« وقال الجلال الصفار :

ما بِرِحَتْ يَوْمَ وَدَاعِي لَهَا      تَضُمُّنِي ضَمَّةَ مُسْتَأْنِسِ  
حَتَّى تَتَنَّى أَلْغُصْنَ فَوْقَ النَّقَا      وَاثَثَرَ الطَّلُّ عَلَى التَّرْجِسِ<sup>(١)</sup>

وهكذا يكشف لنا الصفدي كيف تتداول الصور بعباراتها المجازية عبر العصور، حتى تغدو قوالب جافة ، لا تعكس انفعالاً ولا تطلق خيالاً ولا توحى بشعور . بيد أن الصفدي حتى الآن لم يضع يده على السبب الأهم في انعدام الإبداع ؛ وهم الشعراء أنفسهم ، بل اكتفى بإرجاع ذلك الى غنى التركة الأدبية وتطاول الزمن عليها . ونتوغل مع الصفدي في هذا البحث خطوة أخرى ؛ ليحدثنا حديثاً مبدئياً عن المعاني والصور وكيف يقتنصها أصحابها ، وذلك من خلال مناقشته لابن الأثير الذي قال في هذا :

« وما يعين على استخراج المعاني شاهد الحال . »

ويرد الصفدي بما يوسع هذه الفكرة فلا يقتصر على حاسة البصر لاستخراج المعاني فيقول : « ما أنكر أن مشاهدة الحال في الخارج تعين على تصور المعاني ، إلا أن استنباط المعاني لا يفتقر فيه الى المشاهدة . وقد جاء في الوجود جماعه من العميان الذين لم يشاهدوا الصور في الخارج ، وأنوا بالتشبيهات البديعة مثل بشار بن برد حيث قال :

كَأَنَّ مُشَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا      وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

---

(١) الغيث ٢٦٦/١ - ٢٦٧

« ومثل أبي العلاء المعري حيث يقول :

ولاح هلالٌ مثلُ نونِ أجادها      بذوبِ النُّصارِ الكاتِبِ ابنُ هلالِ

« وحيث يقول :

لَيْلَتِي هَذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الزَّيْنَجِ عَلَيْهَا قَلَائِدٌ مِنْ جُمَانِ  
وَسُهَيْلٌ كَوَجْنَةِ الْحَبِّ فِي اللَّوْ      نِ وَقَلْبِ الْمُحِبِّ فِي الْخَفْقَانِ  
ثُمَّ شَابَ الدُّجَى وَخَافَ مِنَ الْهَجْ      مِ فَعَطَى الْمَشِيبَ بِالزَّعْفَرَانِ

« وله أشياء كثيرة من التشبيه الغريب

« ومثل أبي البقاء العكبري حيث يقول :

وَعَدِيرِ رَقَّتْ حَوَاشِيهِ حَتَّى      بَاتَ فِي قَعْرِهِ الَّذِي كَانَ سَاخَا  
وَكَأَنَّ الطَّيُورَ إِذْ وَرَدَّتْهُ      مِنْ صَفَاءِ مَائِهِ تَزِقُّ فِرَاخَا

« وما أحلى قول أبي طاهر حيدر في مثل هذا :

وضاحيةٍ وَرَدَّتْ بِهَا غَدِيرًا      يُقَدَّرُ مِنْ صَفَاءِ الْمَاءِ أَرْضَا  
كَأَنَّ الْوَحْشَ حَيْثُ تَغْبُ فِيهِ      يُقْبَلُ بَعْضُهَا لِلشَّوْقِ بَعْضَا

« ومثل جماعة تقدموا من الأضرّاء ، كأبي العيناء ، وابن سيده صاحب المحكم ،  
والشاطبي رحمه الله ، وغير هؤلاء ممن أتى بالغرائب ولم يستعينوا بجاسة البصر .

« فإن قلت : إن هؤلاء إن كانوا ما رأوا ولا شاهدوا فقد سمعوا ما قاله غيرهم ،  
وشبهوا كما شبه غيرهم ؛ قلت : ما نازعتك في ذلك وإنما أردت أن التشبيه لا يفتقر

إلى الصورة الخارجية ، فإن الناظم قد يتصور المعنى في ذهنه ؛ من غير أن يشاهد في الخارج (١) .

ويسوق إلينا الصفي مجموعة من النماذج الشعرية ؛ يدل فيها على أن منافذ النفس لاستمداد عناصر الصور لا تقتصر على المشاهدات بالبصر فيما ذكره في ذلك :

« قال بشار بن برد :

يا قومُ أذني لبعضِ الحيِّ عاشقَةٌ  
قالوا: لمن لا ترى تهوى؟! فقلتُ لهم:  
والأذنُ تعشقُ قبلَ العينِ أحيانا  
الأذنُ كالعينِ تُوفي القلبَ ما كانا

« ويقول أيضاً :

قلتُ عُقيلُ بنُ كعبٍ إذ تعلقَها  
أنى ولم ترها تهوى؟! فقلتُ لهم:  
قلبي فأضحى به من حُبِّها أثرُ  
إنَّ الفؤادَ يرى ما لا يرى البصرُ

« وحيث يقول أيضاً :

يزهدني في حُبِّ عبدةٍ معشرُ  
فقلتُ: دعوا قلبي وما اختار وارتضى  
قلوبهم فيها مُخالفَةٌ قلبي  
فبالقلبِ لا بالعينِ يُبصرُ ذواللبِّ

« وقال أبو العلاء المعري :

سوادُ العينِ زارَ سوادَ قلبي  
لِتتفقا على فهمِ الأمورِ» (٢)

(١) نصره الناشر ص ١٨٧ وما بعدها

(٢) الغنث المسجم ٢ / ١٩١ - ١٩٣

يُبين لنا من نص الصفدي السابق ، والناذج التالية له ؛ إدراك الصفدي أن الحواس كلها تشترك في امداد النفس بالخطوط الأولى للصور فيها ، فهي تشكل منافذ النور التي تطل منها النفس على المشاهدات والأصوات والمحسوسات . . . فتتلاقى كلها في بوتقة النفس التي تصهرها بجمرة انفعالها لتعكس هذا الانفعال بعد ذلك صوراً رائعة تقرب ما يبدو متباعداً ، وتعتبر عن المشاعر النفسية بصور حية تنقل تلك المشاعر وتعمق الإحساس بها .

ويؤكده الصفدي ذلك ثانية بقوله بعد أن أورد أبيات المعري في ذم الشبية ومنها :

وَأذْكَرِي لِي فَضْلَ الشَّبَابِ وَمَا يَجُ مَعُ مِنْ مَنَظَرِ يَرُوقُ وَطِيبِ  
غَدْرُهُ بِالْخَلِيلِ أُمَّ حُبُّهُ لَدَغِيٍّ أُمَّ أَنَّهُ كَدَّهَرَ الْأَدِيبِ

« وهذا هو تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو أعلى مراتب التشبيه طبقة لأنه ينشأ عن لطف ذوق ، وسلامة فطرة ، وصحة تخيل . فهو صعب على من يرومه ، متقاعس عن جذب زمامه ، لأن العلوم العقلية تستفاد من الحواس في المقادير والألوان والطعوم والرائحة وطيب النغم ونعومة الملمس وخشونته ، ولهذا قالوا : من فقد حاسة فقد علماً .

« وإذا كان كذلك فالمحسوس أصل والمعقول فرع ، وتشبيه المعقول بالمحسوس من باب رد الفرع أصلاً والأصل فرعاً ، وأحسن ما جاء فيه قول القائل :

وَكَأَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا سُنَنٌ لَاحَ يَلْنَهْنَ ابْتِدَاعُ

« وقول أبي طالب الرقي :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالظَّلَامُ كَأَنَّهُ يَوْمُ النَّوَى وَفُؤَادُ مَنْ لَمْ يَعْشَقِ » (١)

(١) الغيث ١ / ٢١٠ - ٢١١

ولا يتوقف الصفدي عند هذا الحد في محاولة الكشف عن مصادر الصور من النفس ، بل يتوغل أكثر في تأمله في هذا الموضوع ، منطلقاً في ذلك من رده على ابن الأثير وقد أورد قول بعضهم :

وقد أشقُّ الحِجَابَ الصَّعْبَ بِأَدِيَّةٍ      دُونِي وَتَأَيُّيَ وَوُلُوجاً فِيهِ إِنْ طَرَقَا  
كَالطَّيْفِ يَا أَبِي دُخُولِ الْجَفْنِ مُنْفَتِحاً      وَليْسَ يَدْخُلُهُ إِلَّا إِذَا انْطَبَقَا

ثم قال : ورأيت ابن حمدون البغدادي صاحب التذكرة قد أورد هذين البيتين في كتابه وقال : قد أغرب هذا الشاعر ، ولكنه خلط وجرى على عادة الشعراء . لأن الطيف لا يدخل الجفن وإنما تتخيله النفس .

ويرد الصفدي قائلاً « وهذا كلام من لم يطعم من شجرة الفصاحة والبلاغة » .

ويتعمق بعد هذا مفصلاً في نص طويل يحسن إيرادها ، لتعرف إلى النتائج التي توصل إليها من جهة ، ولما يدل عليه من انشغال الصفدي بأمر الصور وإبداعها وعدم استقراره حتى يصل في هذا إلى نهاية يرتاح إليها من جهة أخرى ؛ فيقول مستأنفاً رده السابق :

« قلت : القوة الخيِّلة لا يختص فعلها باليقظة دون النوم ، بل تفعل في النوم أقوى لأنها لا تحتاج إلى تحريك أعضاء البدن ، وإنما تستعمل عين الروح النفساني ، فلها ؛ القوة الخيِّلة قادرة على أفعالها في جميع الأحوال ، إلا أنها لا تتصور الأشياء باختيارها لأنها ليست قوة إرادية ، وإنما في اليقظة كانت القوة الإرادية تصرفها على حسب اختيارها ، فإذا أتى النوم أتى أمر آخر فاضطرها إلى أفعالها . وذلك الأمر لا يخلو من أحد أمور أربعة :

— الأول : ارتسام صور المحسوسات التي أدركتها الحواس في ذلك اليوم في الخيال ، فإذا نام الإنسان تصرفت القوة الخيِّلة في رسوم الصور لقرب عهدتها بها . ويسمى هذا اتصال الحس بالخيال ، وعكسه اتصال الخيال بالحس كالأحلام .



— الثاني : أن تنظر القوة الفكرية في أمر من الأمور : مثل سفر ، أو ملاقاته صديق ، أو رجاء ، أو خوف ، واستخدام الخيال في إحضار صورها ، وبقيت تلك الصور في النوم فتصرفت تلك القوة فيها وفي معانيها . ويسمى حديث النفس ، وعده بعضهم ضرباً من الوسواس .

— الثالث : أن يتغير المزاج من الروح الذي هو محل القوة ، فتختلف أفعالها بحسب تغيره ، فإن غلب على مزاجها الحرارة رأت الحمام والشمس والنيران وما أشبه ذلك وهي طبيعة الصفراء . وإن غلب على مزاجها البرودة رأت الأمطار والسيول والبحار والثلوج وما أشبه ذلك وهي طبيعة البلغم . وإن غلب على مزاجها الحرارة المعتدلة رأت المطاعم الحلوة والألوان المصبغة والملاهي والحمامة والفصد وما أشبه ذلك وهي طبيعة الدم . وإن غلب على مزاجها البرودة اليابسة رأت المخاوف والظلمات والسواد وما أشبه ذلك وهي طبيعة السوداء .

« وعلى الجملة ، فإذا خرج مزاج الروح الحامل للقوة الخيالية عن الاعتدال ؛ رأت المنامات المضطربة بغير نظام ، لأن المزاج لا يثبت على حالة واحدة . وهذه هي أضغاث الأحلام .

« فما تعلق من الرؤيا بهذه الأضغاث لم يكن له تعبير ، وقل أن تصدق رؤيا الشعراء لأنهم يستعملون قوتهم الخيالية في اليقظة كثيراً ، لما يحاولونه في معاني التشبيه والاستعارة والكناية وغير ذلك .

— الرابع : ما يفيضه واهب الصور على القوة الخيالية حال النوم ؛ بمثال تدركه النفس وعلم تعبير الرؤيا هو معرفة تطبيق ذلك المثال على ما قصد به ، وربما ألقاه صريحاً بغير مثال ، فيستغني عن التأويل ، ويسمى رؤية المثل بالمثل .

« وما أحسن قول القائل :

له أمرٌ بالرُّشدِ في يقظاتهِ      وفي النومِ يَهديهِ لِحَيْرِ الطَّرِيقِ

فإن قام لم يدأب بغير فضيلة وإن نام لم يحلم بغير الحقائق

«واعلم أن القوة الخيالة لا تستقل بنفسها في رؤية المنام ، بل تفتقر الى قوة الرؤية المفكرة والحافظة وسائر القوى العقلية . فمن رأى كأن أسداً نخطى إليه وتمطى ليفترسه ، فالقوة المفكرة تدرك ماهية سبع ضار ، والذاكرة تدرك افتراسه وبطشه ، والحافظة تدرك حركاته وحياته ، والخيالة هي التي ارتسم فيها ذلك جميعه وتخيلته (١) .»

وبذلك ينتهي الصفدي من البحث في مصادر الصور وإبداعها بعد أن استنفد كل ما يستطيعه للغوص على هذا الموضوع والخروج بالتفسير المقبول له . وأبرز ما وصل إليه في هذا أمران :

- أولهما : إدراكه لدور الحواس في تزويد النفس بالعناصر الأولية للصور من الألوان والأصوات والخطوط .
- وثانيهما : قوله بأن النفس كلها وبكل قواها ، تشارك في التعبير عن الانفعال بصور حسية ملموسة ، تصل بين أطراف الشعور التي تبدو متنافرة لا مجال للتلاقي بينها.

### الشعر :

تدلنا بعض آراء الصفدي في الشعر ؛ على إدراكه لحقيقة التعبير الشعري ، إذ يدرك أن من أولى خصائص الشعر الاكتفاء بالإشارة الغنية ، واللمحة الدالة المثيرة ، دون التطويل والتفصيل الذي هو بالنثر أليق . كما يجب أن تتوفر له القيم الموسيقية اللازمة ، في اختيار الوزن الذي يضع المعاني في الجو الشعوري الملائم لها .

---

(١) الغيث ١٤٩/١ - ١٥٠

ويشير كذلك إلى أهمية ترابط أجزاء النظم ، ودور القافية المتمكنة في تدعيم هذا الترابط وقوة التأثير في النفوس .

بيد أن الصفدي حين يلتفت حوله ليرى المنظومات العلمية الوفيرة ، في النحو والتاريخ والفقه وغير ذلك ، يحار في أمره .

صحيح أنه أدرك المزايا الأصيلة في الشعر ، ولكنه لم يكن يميز من الناحية النظرية بين الوزن العروضي ؛ وبين الموسيقى الشعرية الموحية . أو بين القافية التي هي من حسن الإيجاء بالمعنى بهذه الأصداء المترددة وكال النغم في الإيقاع ؛ وبين القوافي المستوفية للشروط من حيث حروفها وروبيها . فكان أن أدخل هذه المنظومات بين الشعر - في حديثه فقط عن وفرة الشعر العربي ، وقدرة الشاعر العربي على الإطالة (١) - .

لكن الصفدي عندما يبحث في مزايا الشعر وسر تأثيره ؛ نراه يرنو ببصره نحو الشعر وحده ليستمد منه صفاته الأصيلة التي تخاطب المشاعر وتداعب أوتار القلوب . ومن تمام البحث في نظراته هذه ؛ أن نجعل ذلك منسقاً وشاملاً لعناصر الشعر ومرتكزاته الأولى : الفكرية والنفسية والفنية .

أما الجوانب الفكرية والنفسية فمجالها آت عند الحديث في السرقات الأدبية بما سيأتي . لذا فسيقصر الكلام هنا في النواحي الفنية في الشعر بما يشمل أساليب التعبير المختلفة ، والمجاز في لمحات الخيال ، ثم ما ينضوي تحت موسيقى الشعر وأوزانه من آرائه في العروض والقافية .

يقول الصفدي معلقاً على بيت الطغرائي :

وذي شِطاطٍ كَصَدْرِ الرِّيحِ مُعْتَقِلٍ بِمِثْلِهِ غَيْرِ هَيَّابٍ وَلَا وَكِلِ

(١) نصره الثائر ص ٢٨٦ وما بعدها

« وقوله : كصدر الرمح معتقل بثله ، من الإيجاز والاختصار ، لأنه استغنى  
« بثله » عن أن يقول برمح طويل قويم معتدل ، مستهدداً بيت البحري :

وَالشَّعْرُ لَمَحُّ كَفَتِ إِشَارَتُهُ      وليس بالهذرِ طَوَّلَتْ خُطْبُهُ

ويمثل لهذه الصفة الأصيله في الشعر مؤكداً عليها فيقول : « ومثل قول  
الطغرائي ( بثله ) في كلام الشعراء كثير . كقول أبي تمام الطائي :

وَرَكِبَ كَأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ عَرَّسُوا      على مِثْلِهَا وَاللَّيْلُ تَسْطُو غِيَاهِبُهُ

« فاستغنى بقوله ( على مثلها ) عن أن يقول : على نوق كأطراف الأسنة (١) .

كما يتحدث الصفدي عن صفة أخرى يمكن أن ندعوها بالتمليح يمثل لها  
بقول القائل :

كُنَّا جَمِيعِينَ فِي بُؤْسٍ نُكَابِدُهُ      وَالقَلْبُ وَالطَّرْفُ مِنَّا فِي أذَى وَقَذَى  
وَالآنَ أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكَ بِمَا      تَهْوَى فَلَا تَنْسِنِي إِنَّ الكِرَامَ إِذَا..

إشارة الى البيت :

إِنَّ الكِرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا      مَنْ كَانَ يَأْلُفُهُمْ فِي المَنْزِلِ الحَشِينِ

ويعقب على ذلك فيقول « وهذا عندي أشرف من التضمين الكامل ، وأطرب  
للفهم وأعذب للسمع ، وفيه من البلاغة حسن التضمين ، مع ما في ذلك من الاختصار  
الذي هو من أشرف أنواع البلاغة ، لأنه يرفع عن المخاطب مؤنة الإصغاء وقرع  
السمع بما هو محفوظ مقرر في الذهن (٢) . »

(١) الغيث ١ / ١٥٨

(٢) « ١ / ١٣٥

ويؤكد الصفدي على صفة الإيجاز الغني في الشعر فيحدثنا عما يسميه التنديب وهو نوع من التلميح فيقول :

« وقد قيل إن من شرط التنديب أن لا يكون خفياً ولا صريحاً ولكن بين بين ، ألا ترى إلى قول السراج الوراق فيمن ينعت بالصفى » :

حَالَتْ حَوَادِثُ بَيْنِي      بَيْنَ الصَّفِيِّ وَبَيْنِي  
فَلَا أَمُوتُ إِلَى أَنْ      أَرَى الصَّفِيَّ بَعِيْنِي

« ما أحلاه ، ولو قال : فلا أموت إلى أن أراه ضعيفاً أو بعين واحدة يعني أعور ما كان له هذه الطلاوة ، ولا فيه هذا الحسن الواقع من القلب . أو لو أخذ يفسره فيما بعد ويشرح ما رمزه ، ذهب منه هذه الحلاوة (١) » .

ويتناول هذا الإيجاز المعبر من زاوية أخرى ، فيرى في الغموض الشفاف ما يثير النفس ويلذها فيقول :

« وإخراج الكلام مبهماً ثم مفسراً أوقع في النفس وأبلغ ، ألا ترى ما أحلى قول مجير الدين محمد بن تميم في ملبح يشرب من بركة :

أَفْدِي الَّذِي أَهْوَى بِفِيهِ شَارِباً      مِنْ بَرَكَةِ رَقَّتْ وَرَاقَتْ مَشْرَعَا  
أَبَدْتُ لِعَيْنِي وَجْهَهُ وَخِيَالَهُ      فَأَرَتْنِي الْقَمَرَيْنِ فِي وَقْتٍ مَعَا

« فلو قال : أبدت لعيني قمر وجهه وقمر خياله ؛ لما كان له هذه الديباجة فاعرف ذلك (٢) » .

---

(١) نصره الثائر ص ٢٤١

(٢) الغيث ٢٢٥/١

ويتم الصفدي لصفة أخرى في الشعر يتطلبها ويشير إليها ، وهو ترابط أجزاء  
النظم ، سواء في البيت الواحد أو في القصيدة كلها .

ولا يكون هذا الترابط ممكناً ومقبولاً ؛ إلا إذا كانت الأفكار والمعاني  
تنتمي إلى حالة شعورية واحدة ، قد لونها بلونها ، فبدأ الانسجام بينها والتوافق ؛  
داعية لإمتاع القارئ والتأثير فيه ، إذا تجعبه بجيا مع الشاعر في حال انفعالية  
واحدة ، تنتسب إليها كل تفاصيل القصيدة وأجزائها ، بفضل هذا اللون  
الشعوري الواحد .

وينطلق الصفدي في الكشف عن نظراته هذه ؛ من مناقشته لابن الأثير في  
قوله : « إن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع ، ويكون مبنياً على مقصد الكتاب .  
ثم قال : وهذا يشترك فيه الكاتب والشاعر » .

ويأتي الصفدي ليبعد بالشاعر عن قواعد الكاتب فيقول :

« هذا فيه تسامح ، فإن الشاعر في كل وقت ؛ ما يفتح قصيدته بما يدل على  
مقصوده ، فإن من مدح يطلب الإرفاد والإعانة بال أو مركوب أو شفاعاة أو  
طلب ولاية ، ثم صدر تلك القصيدة بغزل يصف فيه محبوبه ، أو وصف هوى أو  
غربة أو شوق أو مسير كيف يتأتى له ذلك !

فقد خفي على الصفدي هنا وحدة الشعور في القصيدة كلها ولو بدأت بالغزل ،  
فإن هذا الغزل نفسه يتلون بلون العواطف الدافقة للقصيدة كما كان يفعل الشاعر الجاهلي  
حين سار على نهج القصيدة الموروثة . فكنا نرى قصائد النابغة في الاعتذار وقد لون  
القلق القصيدة من مطلعها الغزلي إلى مشاهد الطرد ، وحتى يدخل في لب موضوعه  
المنشود . كما كان يلمس المرح والتوثب عند الأعشى منذ غزلها في المطلع حتى نهايتها .

فالشاعر البارع من استطاع أن يتحرر من هذا المنهج التقليدي في الوقت الذي



يتقيد فيه ، وذلك باتخاذ إياه قالباً فحسب . أما في عصر الصفدي ، فيبدو له ذلك شيئاً متناقضاً غير ممكن ، فهو لا يتصور قصيدة في المدح أو الاسترفاد يسبقها غزل .

وليس معنى هذا أننا نؤيد التقيد بمنهج القصيدة ذلك ، ولكن ما دام الشعراء آنذاك قد رضوا بهذا القيد فليعايشوه ، بحيث لا يحرمون مشاعرهم من أن تجد لها منفذاً رغم هذا ومتنفساً ، وإلا فليغادروا هذه القاعدة . وقد فعلوا ذلك في أحيان أخرى كما يبدو مما قاله الصفدي بعد ذلك :

« نعم إذا كان مدحاً مجرداً بلا غزل لاق به ذلك ، وأكثر ما يكون المدح مجرداً من الغزل ؛ إذا كان في واقعة تجددت للمدوح ، فهينه الشاعر : إما بولاية منصب أو بظفره بعدو ، أو بمولود أو بسلامة من حادثة أصابته ، أو هناء بعافية أو بتشريف أو غير ذلك من متجددات الوقائع (١) . »

وبذلك تكون القصيدة في نظر الصفدي قد شملت فكرة واحدة ، وشذ أطرافها شعور متماثل دون أن يتقدمها غزل أو نسيب .

ولن نناقش الصفدي هنا في المنزلة التي وضع بها شاعر عصره ؛ حين ألغى وجوده الشخصي فتصره على المدح وجعله تبعاً للمدوحه ، لا هم له سوى تهنيته أو تعزيته أو تبشيريه إلى غير ذلك ؛ لما ستحظى به هذه المنزلة من الالتفات خاص فيما يلي من الدراسة .

وقد كان اهتمام الصفدي بترباط أجزاء النظم يبدو في نواح متعددة ، فإذا تحدث في التضمن توجه باهتمامه إلى هذا الترباط ، وكذلك عند حديثه عن التوشيح أو حسن التخلص ، وحتى في النشر وجد في توفير هذا الترباط أول ما يجب الالتفات إليه .

---

(١) نصره الناثر ص ٨٨

من ذلك قوله بعد أن أورد قول الطغرائي :

فِيمَ الإِقَامَةُ بِالزُّورَاءِ لَأَسْكَنِي بِهَا وَلَا نَاقَتِي فِيهَا وَلَا جَمَلِي

« وما أعرف أحداً ضمن هذا المثل - أعني ( لا ناقة لي في هذا ولا جمل ) -  
أمكن ولا أحسن من قول الشهاب أبي الثناء محمود . أنشدني لنفسه إجازة من قصيدة :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ أَيْنَ الْغَيْثُ مُنْفَصِلاً      مِنْ بَرِّهِ وَهُوَ طُولَ الدَّهْرِ مُتَّصِلُ  
مَنْ حَاتَمٌ ، عَدَّ عَنْهُ وَأَطْرَحَ فِيهِ      فِي الْجُودِ لَا بِسِوَاهُ يُضْرَبُ الْمَثَلُ  
لَوْ مَثَلَ الْجُودِ سَرَحاً قَالَ حَاتَمُهُمْ      لَا نَاقَةَ لِي فِي هَذَا وَلَا جَمَلُ

« انظر إلى قلقه في بيت الطغرائي ، لأنه عطف الناقة والجمل على السكن ،  
ولو عطف ما يناسب ذلك من أهل وولد لكان أحسن وأوقع في النفس ، وانظر  
الى وروده في أبيات الشهاب محمود فإنه جاء في مكانه منسجم التركيب ثابتاً في  
معناه ، حتى كأنه ما برز إلى الوجود إلا في هذا المكان ، ولا ظهر إلا في هذا  
القالب ، ولست أنكر أن الناس قد ضمنوه كثيراً في أغراض مختلفة طلباً للتبرؤ  
بما ينتفي الإنسان عنه ، ولكن كلما كان الكلام أكثر ارتباطاً وتعلقاً في أجزائه  
كان أحسن (١) . »

ويبدأ حديثه في التوشيح رداً على ابن الأثير في قوله :

« ورأيت أبا هلال العسكري قد سمي هذا النوع التوشيح ، وليس كذلك ،  
بل تسميته بالإرصاد أولى » . ويتصدى الصفدي للرد بقوله « هذا الإرصاد الذي  
ذهب إلى أنه ألتق من التوشيح بالمعنى الذي قرره ، مثاله قول البحري :

أَحَلَّتْ دَمِي يَوْمَ الْفِرَاقِ وَحَرَّمَتْ      بِلَا سَبَبٍ يَوْمَ اللَّقَاءِ كَلَامِي

(١) نصره الناشر ص ٣٦٣

وليسَ الذي حَلَّتِهِ بِمَحَلِّهِ . وليسَ الذي حَرَّمْتِهِ بِحَرَامِهِ .

« وهو أن الشاعر يأتي بنصف بيت يفهم منه النصف الثاني ، أو صدر يفهم منه العجز ، أو من البعض يفهم الكل . وهو دليل التمكّن وجودة الطبع .

« ووجه المناسبة بين هذا المعنى وبين التوشيح ، أن ينزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشع ، وينزل دلالة ما في أوله على آخره منزلة الوشاح الجائل بينها . وهذا معنى لائق بهذا المسمى ، ونفس اللفظ أعذب في السمع من الإرصاد (١) .

وهكذا نرى أن التوشيح كما بينه الصفدي ؛ إن هو إلا ربط أول الكلام بتاليه ، كما أنه انطلق في تفضيله التسمية بالتوشيح ؛ من معنى الترابط الذي يقوم بين طرفي الكلام ، كما يجمع الوشاح بين العاتق والكشع ويجول بينها .

وإذا عرج على حسن التخلص ؛ كان حسن الانتقال والربط بين المطلع وما يليه من معنى أول ما يلتفت إليه . ومن نماذجه في ذلك قول أبي عبد الله النسبسي يدح صدقة بن منصور :

ونرجسٍ خضيلٍ تحكي أزاهرُهُ      أحداقَ تبرٍ على أجفانٍ كافورِ  
كأنما نثرُهُ في كلِّ باكرةٍ      مسكٌ تَضَوَّعَ أو ذِكرُ ابنِ منصورِ

وقول أبي الحسين الجزار يدح جمال الدين موسى بن يغمور :

جَسَرْتُ على لثمِ الشَّقِيقِ بِخَدِّهَا      ورَشَفِ رُضَابٍ لم أزلُ مِنْهُ في سُكْرِ  
ولَسْتُ أَخَافُ السَّحَرَ في لِحَظَاتِهَا      لِأَنِّي بِموسَى قد أَمِنْتُ من السَّحْرِ (٢)

(١) نصره الثائر ٣٦٨

(٢) « « ٣٦١

كما حظي ميدان النثر باهتمامه بمثل هذا الترابط تحت اسم التلخيص أيضاً (١) .  
ولكننا الآن مع الشعر ولا مكان للنثر في هذا المجال .

ويبدو أن الصفدي في هذه الناحية من اهتمامه بترابط الأجزاء لم ينحل من تأثيره بالقرآن الكريم . فمن ذلك قوله : « إن القرآن جميعه متعلق بعبئه ببعض ، كالحروج من الوعظ والتذكير إلى الإنذار أو إلى البشارة ، أو إلى أمر أو نهي أو وعد أو وعيد . إلا ما خفي تعلقه في الظاهر (٢) » .

وندخل مع الصفدي روضة الإبداع في الشعر ، فنراه يشير إلى التشبيه ، ويختار من نماذجه أرفعها مما يجمع بين الأمور الحسية والمعنوية . ويذكرنا بقول أبي العلاء المعري في ذم الشبيهة :

واذكري لي فضل الشباب وما يجز  
سمع من منظر يروق وطيب  
غدره بالخليل أم حبه لل  
غني أم أنه كدهر الأديب

ليقول بعدها « وهذا هو تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو أعلى مراتب التشبيه طبقة ، لأنه ينشأ عن لطف ذوق ، وسلامة فطرة ، وصحة تخيل . وأحسن ما جاء فيه قول القائل :

كأن انتضاء البدر تحت غمامه  
نجاة من البأساء بعد وقوع

« وقول ابن الهبارية :

كم ليلة بت مطوياً على حرق  
أشكو إلى النجم حتى كاد يشكوني  
والصبح قد مطل الشرق العبور به  
كأنه حاجة في نفس مسكين

(١) نصرة النائر ص ٣٦٣

(٢) « « ٣٦٢

« وقول أبي القاسم سعد بن ابراهيم :

تَتَنَفَّسُ الصَّهْبَاءُ فِي لَهَوَاتِهِ كَتَنَفَّسِ الرَّيْحَانِ فِي الْأَصَالِ  
وَكَأَنَّمَا الْخِيَلَانُ فِي وَجَنَاتِهِ سَاعَاتُ هَجْرٍ فِي زَمَانِ وَصَالِ<sup>(١)</sup>»

ثم يشير الى أن الذوق وحده هو الفصل في حسن التشبيه وإصابته عندما ينقل إلينا ما حكى من « أن بشاراً لما سمع قول كثير عزة :

أَلَا إِنَّمَا لَيْلَى عَصَا خَيْرَانَةٍ إِذَا غَمَزُوهَا بِالْأَكْفِ تَلِينُ

« قال : قاتل الله أباصخر ، يزعم أنها عصا ويعتذر بأنها خيرانة ، والله لو قال عصا منح أو عصا زبد ؛ لكان قد هجنه ذكر العصا . هلا قال كما قلت :

وَيَبِيضَاءُ الْمَحَاجِرِ مِنْ مَعَدِّ كَأَنَّ حَدِيثَهَا ثَمَرُ الْجِنَانِ  
إِذَا قَامَتْ لِحَاجَتِهَا تَثَنَّتْ كَأَنَّ عِظَامَهَا مِنْ خَيْرَانِ<sup>(٢)</sup>»

ثم يحدثنا الصفدي عن الاستعارة فيشير إلى أنه يفضل الوضوح في الاستعارة ، وينفر من الإغراب الذي يجرنا الى التأويل البعيد . مستشهداً بقول الشاعر :

إِذَا أَخَذَ الْقِرْطَاسَ أَوْ دَعَّ طِرْسَهُ خَمِيلَةَ زَهْرٍ أَوْ قِلَادَةَ جَوْهَرٍ  
حَمَى كُلِّ فِكْرٍ عَنِ عِرَاكِ رَوِيهِ وَحَطَّ عَنِ الْأَقْلَامِ ثِقْلَ التَّفَكْرِ<sup>(٣)</sup>»

وغالب ما تمثل به الصفدي هنا للاستعارة كان من النثر ، بما لا يدل ونحن مع الشعر . بيد أنه مثل لما يعجبه من استعارات الشعراء بقول ابن جرير :

(١) الغيث المسجّم ٢١٠/١ - ٢٢١

(٢) « « ٢٤٣/١ - ٢٤٤

(٣) نصرة الثائر ص ١٢٥

قَوْمٌ إِذَا حَيَّا الضُّيُوفَ جَفَانَهُمْ رَدَّتْ عَلَيْهِمُ أَلْسُنُ النَّيرانِ

ثم قال « وهذه استعارة أخرى هي أكمل لأن في النار من اللسان شيتين وهما : الشكل الشبيه باللسان ، والزفير الشبيه بالتصويت (١) » .

وإذا انتقل بنا الى الكناية ، نراه يطيل في الثناء عليها ، ويعتبرها في الشعر بما يمتع النفس ويطلق الخيال ، مبتدئاً قوله بمناقشة بيت الطغرائي :

نَوْمٌ نَاشِئَةٌ بِالْجِرْزَعِ قَدْ سُقِيَتْ نِصَالَهَا بِمِيَاهِ الْغُنْجِ وَالْكَحْلِ

فيشير الى أن فيه « من أنواع البديع الكناية ، وهي أبلغ من التصريح وأوقع في النفوس ألا ترى أن قولك ( بعيدة مهوى القرط ) أبلغ من قولك : طويلة العنق .

« وقول امرئ القيس :

وَيُضْحِي فَتَيْتُ الْمِسْكِ مِنْ فَوْقِ فَرَشِهَا

نَوْمٌ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

« أبلغ من قوله : منعمة ذات خدم وجوار يخدمونها فهي تمام الضحى ، ولم تشد وسطها بنطاق الخدمة « وامرؤ القيس أبرع الناس في الكناية ، لأن الناس كانوا يقولون أسيلة الحد حتى جاء هو فقال أسيلة مجرى الدمع . وكانوا يقولون : طويلة القامة وتامة العنق حتى قال : بعيدة مهوى القرط .

وكانوا يقولون في الفرس السابق : يلحق بالغزال والظلم وما أشبه ذلك حتى قال : ( قيد الأوابد ) (٢) » .

(١) الغيث المسجم ١ / ٢٥٣

(٢) « ١ / ٢٤٥ »



وبدأ نرى طرب الصفدي للتصوير في الشعر ، واستخدام وجوه المجاز فيه ، شريطة مراعاة الوضوح تحقيقاً للغاية من ذلك ، في تعميق إحساسنا بالمتحدث عنه ؛ بوضوح لا يدفعنا الى التوقف أو التأويل ، إضافة إلى إمتاع الحاسة الفنية لدينا عند تذوق أمثال هذه الصور البارعة .

ويتوقف بنا الصفدي هنا ، ليحدثنا عما بقي لديه من قول في الجوانب الفنية للشعر ، وهي موسيقى الشعر وما ينضوي تحتها من الأوزان والقوافي ، فيبدأ كلامه بالرد على ابن الأثير فيما ذكره فيقول :

« وأما دعواه أن الشاعر لا يحسن في الأكثر ، فالعذر في ذلك ظاهر ، لأنه في ضاقتين شديدتين الى الغاية وهما : الوزن ولزوم الروي الواحد . ولو أتى الكاتب برسالة مطولة على حرف واحد في سبعة ، وعدد مخصوص من كلمات السجع ؛ لكان حاله حال الشاعر بل كان كلامه أسمج على الأسماع والقلوب . لأن الشعر يروجه الوزن ولا كذلك النثر :

وَكَيْفَ وَلَمْ يَزَلْ لِلشَّعْرِ مَاءٌ يَرِفُّ عَلَيْهِ رِيحَانُ القُلُوبِ (١)

ونظيل الوقوف هنا ، لنستمع بإسهاب الى رأي الصفدي في عناصر هذا الوزن ، الذي لا يقوم الشعر بدونه ، لننتقل الى بيان آراء الصفدي في كل من العروض والقافية .

### العروض :

عندما حل عصر الصفدي كان علم العروض قد مضى على اكتشافه قرون متطاولة ، كانت كفيلاً بأن تحمل الى الصفدي جملة من أقوال الأدباء والعلماء في هذه الآلة الشعرية .

(١) نصره الثائر ص ٣٩٠

وبالرغم من تعدد هذه الآراء في العروض ؛ فقد كان للصفدي حياله موقف واضح يضع فيه العروض في مكانه الصحيح ، حين يصرح بأن العروض لا ينفع إلا دارس الأدب وناقده ؛ وذلك ليعرف ما قد يكون في القريض من عيوب من جهة ، ولتمييز الشعر العربي عن غيره من أشعار الأمم من جهة ثانية .

أما الشاعر فليس بحاجة الى هذا العلم . وما تراه من إقدام بعض النظام على استخدام موازين العروض لرصف الشعر ، فأمر متكلف وجهد ضائع يجدر بأصحابه إنفاقه في ميدان يعود عليهم بما يجدي وينفع .

وقد لا يكون الصفدي بدعاً بما قال ، ولكن " تمسكه بهذه الآراء ورفعها لها ؛ في عصر تعلق فيه بالشعر كل العلماء والحكام - وهو الرجل الموظف - ليس بالأمر اليسير .

يقول الصفدي :

« قال الجاحظ : ( العروض ميزان الشعر ومعياره ، وبه يعرف الصحيح من السقيم والمعتل من السليم ، وعليه مدار القريض من الشعر ، وبه يسلم من الأود والكسر ) قلت هذا أليق بالوصف من الحد . وقال الجوهري : العروض ميزان الشعر وهي ترجمة عن ذوق الطباع السليمة .

« وأقول أنا : العروض آلة قانونية ، تعصم مراعاتها الإنسان عن أن يضل في وزن شعر العرب . وهذا الاحتراز الأخير أتيت به لأن اللغة اليونانية فيها شعر . وذكر لي العالم العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري ؛ أن الشعر اليوناني له وزن مخصوص ، ولليونان عروض لبحور الشعر ، والتفاعيل عندهم تسمى الأيدي والأرجل . »

هذه هي الفائدة الأولى من علم العروض في رأي الصفدي . أما الفائدة الثانية في نظره فهي : « والحاجة ماسة وداعية الى معرفة الوزن وما يجوز من الزخاف

في كل بحر ومالا يجوز . فقد وقع في ذلك جماعة من كبار العرب كالمرقش ومهلهل وعلقمة بن عبدة وعبيد بن الأبرص وغيرهم ، وجماعة من كبار المحدثين كأبي العتاهية والبحثري وأبي الطيب ، وحسبك بوقوع مثل هؤلاء الفحول في الخروج عن الوزن .

« وإذا اتفق مثل هذا لمثل هؤلاء فما الظن بغيرهم ! »

ثم ينتقل ليتوجه بالحديث الى المكذوبين بالنظم بلون من الوصف الساخر فيقول : « وقال قوم لا حاجة الى العروض ، لأن كل من نظم بالعروض شق ذلك عليه ، وأتى به متكلفاً ، ولا يتأتى له وزن البيت الواحد بل الكلمة الواحدة - يدخلها الوزن وينظر في حركاتها وسكناتها ، وهل هي من سبين وفاصلة صغرى أو لا ، الى غير ذلك من التفصيل - إلا بعد مكابدة مشقة عظيمة . وإلى أن ينظم الناظم بالعروض بيتاً ، نظم صاحب الطبع السليم قصيدة . »

« وما أحسن قول أبي فراس بن حمدان :

تَنَاهَضَ النَّاسُ لِلْمَعَالِي      لَمَّا رَأَوْا نَحْوَهَا نُهَوِّضِي  
تَكَلَّفُوا الْمَكْرُمَاتِ كَدًّا      تَكَلَّفَ النَّظْمَ بِالْعَرُوضِ

وايس معنى ذلك أن الصفدي لا يفرق بين النوعين من الشعر إلا بالكم ؛ لأنه أشار قبل سطور قليلة الى أن كل من نظم بالعروض شق عليه ذلك وأتى به متكلفاً .

ويستمر الصفدي في حملته وكأنه يشير الى إلغاء هذا العلم فيقول : « لقائل أن يورد على العروض فيقول : إن كان هذا العلم من النظريات فليستغن عن تعلمه ، ولأن إصابة الإنسان في الإتيان بما ينظمه من بحور الشعر على اختلاف أوزانها - من غير مراعاة هذا العلم - تنفي الحاجة إليه . »

ثم يورد للجاحظ قولاً ينسجم مع موقفه الجديد هذا فيقول :  
« وقال الجاحظ : العروض علم مستبرد ، ومذهب مرفوض ، وكلام مجهول ،  
يستكد العقول ، بمستفعلن ومفعول ، من غير فائدة ولا محصول (١) .  
هذا إذن موقف الصفدي من استسهل إعتلاء صهوة الشعر طمعاً وجهلاً ،  
لا يداني فيما أبداه فيه من الصراحة والوضوح ، ولكنه طبع الناقد ؛ بالرغم من الظروف  
الخاصة التي كانت تقيدته وتحيط به .

### القافية :

وعندما يصل الصفدي في حديثه الى القافية ، يلفت نظرنا اهتمامه البالغ بأمرها ،  
فيأخذ في الحديث عنها حديثاً غنياً يتناولها فيه من جوانب مختلفة ، يشعرنا بمدى  
إدراكه لأهميتها في البناء الشعري ؛ من ناحية أداء المعنى وإطلاق الشعور وصدى  
الايقاع . وقد جعلها في البيت بمنزلة الروح ، حتى إنه اعتبرها مقياساً يدل على  
موهبة الشاعر وتمكنه ، أو جموده وتخلفه . كما يعجب من يزعم إمكان تغيير القافية ،  
لما لها من ارتباط شديد بالبيت ، بل بالقصيدة كلها في أصل المعنى أو الشعور ؛  
منذ أن كان خاطراً يجول في ذهن الشاعر وتجيش به نفسه .

من ذلك قول الصفدي في معرض حديثه عن لامية الطغرائي :

« وزعم بعضهم أن بعض الشعراء غير قوافي هذه القصيدة من اللام الى حرف  
العين ، وهذا عندي يتعد ، لأن ألفاظ هذه القصيدة في غاية الفصاحة ، وتراكيب  
كلماتها كلها منسجمة عذبة غير قلقة ولا نافرة ، ومعانيها بليغة غير ركيكة ، وقوافيها  
في غاية التمكن ، فهي كما قال ابن عسّين :

---

(١) الفهيت المسجم ١/٤٠ - ٤٢

مَعْنَى بَدِيعٍ وَالْفَازُ مُنْقَحَةٌ غَرِيبَةٌ وَقَوَافٍ كُلُّهَا نَخْبٌ» (١)

فالصفي لا يمنح هذه الأهمية لكل قافية مهما كان نوعها ، فلا بد من توفر صفات أساسية تمنح القافية هذه الأصاله وذلك التمكن . وقد أجمل الصفي هذه الصفات ، وكلها تدل - بعد التأمل فيها - على حسن إدراكه لمكانة القافية ، وارتباطها بما حولها من نسيج الشعر ، مما ذكره : من الألفاظ وفصاحتها ، وتراكيب الكلمات وعذوبتها وانسجامها ، وبلاغة المعاني وإشراقها ، ثم تمكن القوافي ... فلا عجب أن تتأبى قواف في مثل هذا القريض على محاولة التغيير العابثة .

ويكشف الصفي عن أهمية القافية في بناء البيت فيقول : « والقافية المتمكنة هي التي يبني البيت من أوله الى آخره عليها ، فإذا ختم البيت بها نزلت في مكانها ثابتة فيه ، متمكنة في محلها ، قد رسخت في قرارها ، ودفعت الى مركزها ، فهي لا تتزعزع ولا تتغير منه .

« بخلاف القافية القلقة التي اجتلبت وجيء بها لتأم الوزن ، وهي أجنبية منه غريبة من تركيبه ، عارية من الالتحاف به والالتحاق بحسبه (٢) .»

ولا يستطيع الصفي أن يتصور تغيير قافية قد توفر لها من شروط النجاح ما سلف ذكره . لأن أهميتها ودورها في القصيدة يسمو عن أن يكون توفيراً لحروف الروي ، تتشابه وتتكرر في أبيات القصيدة كلها ؛ كما رأى ذلك بعض معاصريه ممن سوغ تغيير مثل هذه القوافي المتمكنة في لامية الطغرائي . فعاد الصفي يخاطب هؤلاء بقوله :

« ومتى غيرت القافية المتمكنة بغيرها ، جاءت نافرة عن الطباع في غاية الركة ، وليت شعري بماذا يغير قوله :

(١) الغيث المسجم ١٣/١

(٢) المصدر السابق

لَوْ أَنَّ فِي شَرْفِ الْمَأْوَى بُلُوغَ مُنَى      لَمْ تَبْرَحِ الشَّمْسُ يَوْمًا دَارَةَ الْحَمَلِ  
وقوله أيضاً :

وَإِنْ عَلَانِي مَنْ دُونِي فَلَا عَجَبٌ      لِي أَسْوَةٌ بَانْحِطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلِ

« الى غير ذلك من بقية القوافي المتمكنة ، التي هي من البيت بمثابة القاعدة التي إذا زحزحت أو نقلت تهدم البيت وخرب ، وذهب حسنه وزال رونق تركيبه . وإذا غير مثل هاتين القافيتين فقد زال طرازها ، وذهب شمسها وقمرها ، ومحت آية حسنها (١) . »

ويتعمق الصفدي هذا الأمر ، فيرى أن الشاعر نفسه يستطيع بدل تغيير القوافي أن يجعل كل بيت - لو استطاع - على قافيتين ، وذلك براعاة هذه الناحية أثناء قوله الشعر ؛ بأن يأتي بدل القافية باثنتين كل منهما قادرة على أداء ما أراد من معنى ، أو التعبير عما يضطرب بين جوانحه من شعور .

ومع ذلك فإن تفاوتاً لا بد وأن يقوم بين القافيتين . لأنه من المتعذر العثور على قافيتين تؤديان الشيء نفسه ، وبذا تحكم القافية الجديدة على نفسها بالضعف والإخفاق . وفي ذلك يقول :

« نعم قد يتفق للشاعر نفسه - إذا أراد - بناء قصيدته على قافيتين أو أكثر ، لأنه يراعي ذلك في أصل التركيب ، ويفوق بين ذلك من أول العمل ، كما فعل سيف الدين بن المشدّ في قصيدته التي مدح بها السلطان نجم الدين أيوب . وهي مشهورة . أولها :

إِسْقِنِي الرَّاحَ قَدْ تَجَلَّى النَّهَارُ الظَّلَامُ      وَتَغَنَّى عَلَى الْأَرَاكِ الْهَزَارُ الْحَمَامُ

(١) الغيث المسجم ١٣/١ - ١٥



وَبَدَا الرَّوْضُ فِي ثِيَابٍ مِنَ الزَّهْدِ      بِرِ سَدَاهَا بِنَفْسِجٍ وَعَرَارٍ وَثُمَامُ  
 فَاسْقِنِيهَا مِثْلَ الْخُدُودِ أَحْمَرَاراً      وَكَثَغْرِ الْحَبِيبِ فِيهِ افْتِرَارُ وَابْتِسَامُ  
 قَهْوَةٌ مُرَّةٌ رَحِيقَ شُمُولٍ      قَرَقَفٌ لَذَّةٌ سُلَافٌ عُقَارُ مُدَامُ  
 مِنْ يَدَيَّ أَوْطَفِ الْجُفُونِ غَرِيرٍ      زَانَهُ الْخَصْرُ وَاللَّمَى وَالْعِدَارُ وَالْقَوَامُ  
 بَدْرِ تَمِّ يَلُوحُ فِي زِيٍّ ظَبِيٍّ      قَصَّرَتْ عَنْ صِفَاتِهِ الْأَفْكَارُ الْأَفْهَامُ

« ثم إنه سار على هذا الأنموذج الى تمام واحد وعشرين بيتاً ، ولا يخفى ما في هذه  
 الأبيات من لانهلال والانحطاط ، وما فيها من الإيراد لمن يروم النقد عليه (١) .  
 وعلى ذلك فإن صاحب الأبيات نفسه لو راعى ذلك في أصل النظم ، فإن  
 نتيجة إقدامه على تزييف شعوره - بتعديله لينقاد للقافية الجديدة - ستكون كما حكم  
 عليها الصفدي فيما سلف من سطور .

ونستمر في جولتنا بين نصوص الصفدي نستين المزيد من مكانة القافية لديه ،  
 فنسمعه يقول : « قال مجد الدين محمد بن الظهير الإربلي :

قَلْبِي وَطَرَفِي ذَا يَسِيلُ دَمًا وَذَا      دُونَ الْوَرَى أَنْتَ الْعَلِيمُ بِقَرْحِهِ  
 وَهَمَّا بِحُبِّكَ شَاهِدَاتٍ وَإِنَّمَا      تَعْدِيلُ كُلِّ مِنْهَا فِي جَرْحِهِ  
 وَالْقَلْبُ مَبْزُلُكَ الْقَدِيمُ فَإِنْ تَجِدْ      فِيهِ سِوَاكَ مِنَ الْأَنَامِ فَذَنْجِهِ

« وإنما أثبت هذه الأبيات لحسن نظمها ، وانسجام لفظها ، وانظر الى قافية البيت  
 الأخير وتمكنها في محلها ، كأنها الشمس في الحمل ، أو الدرة التي تم بها حسن العقد

(١) المصدر السابق

وكمل . والقافية روح والبيت جسد ، فمتى قلقت فيه ضعف تركيبه وفسد ،  
وتمكن القوافي دليل على قوة الناظم في فنه ، وقلقها أدل على وقوف قريحته وجمود  
ذهنه « (١) .

ويطالع علينا الصفدي في القافية برأي جديد يخالف العروضيين ؛ انسياً مع  
حسه وذوقه فيقول بعد هذا النص : « قال أبو العز مظفر الأعمى :

دخلت على الملك الكامل فقال لي : أجز هذا النصف :

قد بَلَغَ الشَّوْقُ مُنْتَهَاهُ      فقلت : وما دَرَى الْعَاشِقُونَ مَا هُوَ

فقال :      وَلِي حَبِيبٌ يَرَى هَوَانِي      فقلت : وما تَغَيَّرْتُ عَنْ هَوَاهُ

فقال :      رِيَاضَةُ النَّفْسِ فِي احْتِمَالِي      فقلت : وَرَوْضَةُ الْحُسْنِ فِي حَلَاهُ

فقال :      لَيْلَتُهُ كُكَلِّهَا رُقَادُ      فقلت : وَلَيْلَتِي كُكَلِّهَا انْتِبَاهُ

« وقد أوردت هذا الشعر لأن فيه قافيتين لا تجوزان على رأي أرباب  
العروض وهما أحسن ما في هذه القوافي . الأولى ( ما هو ) والثانية ( انتباه )  
انظرهما تجدهما أحسن القوافي . ولو تتركنا والعقل لكان ينبغي أن لا تعد القوافي ،  
إلا إذا كانت غير متصلات بضمير مخاطب أو غائب أو متكلم ، لأن في ذلك  
شيئاً من الإبطاء (٢) . »

إذن فالصفدي يقترح قيداً فنياً جديداً ؛ حتى لا يدخل رياض الشعر إلا من  
تمتع بالموهبة ، وسما على أجنحة الخيال ، وتمكن من ملكة البيان والقدرة عليه ؛ ما  
يؤهله لمرتبة الشاعر . وهذا الرأي إن هو إلا استمرار لرأيه في إلغاء علم العروض ؛

(١) الغيث المسجم ٢٤٥ / ١

(٢) «      » ٢ / ٢٢٧ - ٢٢٩

منعاً للمدّعين من التعلق به متكئين على أوزانه ، فيختلط غث الشعر بسمينه ،  
ويصم العصر كله بالتخلف والانحطاط .

ويؤكد الصفدي على تفضيله لمثل هذه القافية الحالية من الضمائر ؛ بعد أن  
يعرض نصاً لابن سناء الملك ورد فيه قوله :

ما أَهَانَ الْوَرَى وَلَا مَلَكَ الدُّنْيَا وَلَا حَازَهَا سِوَى الْمُتَنَسِّكِ

ويطرب الصفدي إلى هذه القافية قائلاً :

« ما أحلى ما أتى بالمتنك هنا قافية ، فسقى الله ضريحه وروّح روحه ، وما  
كان أطف ذوقه ، وأشبَّ عمره الذي جعل الهلال طوقه .

« وهذه القافية لا يميزها العروضيون ، ويحتجون بأن الكاف أصلية وليست  
ضميراً كأخواتها ، وأنا وغيري من أئمة الأدب الذين لطف ذوقهم ؛ يرون أن هذه  
القافية بين نجوم القوافي كالشمس ، وهي التي فيها خفة الروح وما عداها فيه ثقل  
الرمس ، لأنها قليلة الوقوع في الكلام ، قل أن يظفر النشطاء من هذا النوع  
بقافية . يعرف هذا القول أربابه ، ومن بيني وبينه نسبة أو تشابه»<sup>(١)</sup> .

ولا يكتفي الصفدي بهذا بل يردد هذا الرأي في أكثر من مناسبة مما يدل  
على اقتناعه به ، ودعوته إليه بكل ما استطاع ويبدو أنه لم يفلح ، فقد زادت  
أفواج الناظمين .. يستسهلون وينظمون .. حتى غدا النظم على كل شفة ولسان .

وبالرغم مما أتى به الصفدي بشأن القافية من النظرات السديدة - إذ استهجن  
محاولة تغييرها دون أن يتأثر المعنى ويتهدد بناء البيت ، كما استبعد أن يستطيع  
الشاعر الإتيان بقافيتين وتكونان على سوية واحدة في الجودة وقام الأداء - لكنه لم  
يستطع أن يقاوم إعجابه بما أتى به ابن الذروي « في قصيدته التي أولها :

---

(١) المصدر السابق

نَوَى أَطْلَعَتْ مِنْهَا الْقَفَارُ الْبَسَابِسُ بِخَيْلٍ مَطِيٍّ طَلْعُهُنَّ أَوَانِسُ

وهي تزيد على العشرين بيتاً ، جعل لكل بيت أربعاً وعشرين قافية ، وهذه القصيدة تنشد أربعاً وعشرين قصيدة ، وهذا في غاية القدرة .

ولا يريد الصفدي هنا أن يناقض نفسه فعمد الى تبرير إعجابه بما ينسجم ورأيه السابق فقال : « وإنما سهّل هذا معه وانقاد له بما أراد ، لأنه هو الذي بنى كل بيت في الأصل على ما يريد ختمه به من القوافي المتعددة . ولو أخذ قصيدة لغيره وأراد تغيير قوافيها لتعاس المعنى عليه ولم ينقد له . »

وابن الذروي لا يفعل هذا من تلقاء نفسه لو لم يشاهد عملاً من هذا النوع عند شاعر كبير في العصر العباسي ، لكن ابن الذروي بالغ كثيراً باتباع هذا السبيل إذ يقول :

« والذي حملني على نظم ذات القوافي عليّ بن الرومي إذ قال في كلمة له :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا      يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يَوْلَدُ  
وَإِلَّا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّمَا      لِأَفْسَحُ مِمَّا كَانَتْ فِيهِ وَأَرْغَدُ  
إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهْلَّ كَأَنَّهُ      بِمَا سَوْفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا يُهْدَدُ

« وقال في كلمة أخرى نظير هذه الأبيات ، إلا أنه أبدل في البيت الأول ( يولد ) بقوله : ( يوضع ) ، وأبدل ( أرغد ) بقوله : ( أوسع ) ، وأبدل ( يهدد ) بقوله : ( يقرع ) . »

ويعلق الصفدي على هذا بما يبرر إعجابه بصنيع ابن الذروي فيقول :

« وأنت ترى كيف لفظة ( أرغد ) فيها قلتى يسير ، وكيف ( أوسع ) أحسن منها ، وكيف لفظة ( يهدد ) ألتق من ( يقرع ) هذا أمر يشهد به الذوق . »

ويبدو أن إعجاب الصفدي بمثل ما فعله ابن الذروي ماهو إلا إعجاب بقدرته  
وسعة اطلاعه . فقد ذكر أشباهاً لابن الذروي فقال : « وصنع أبو القاسم علي  
ابن منجب المعروف بابن الصيرفي بيتين وهما :

لَمَّا غَدَوْتَ مَلِيكَ الْأَرْضِ أَفْضَلَ مَنْ      جَلَّتْ مَفَاخِرُهُ عَنْ كُلِّ إِطْرَاءِ  
تَغَايَرَتْ أَدْوَاتُ النُّطْقِ فِيكَ عَلَى      مَا يَصْنَعُ النَّاسُ مِنْ نَظْمٍ وَإِنْشَاءِ  
« ثم إنه غيّر روي البيتين على جميع حروف المعجم .

« ومن وقف على كلام أبي العلاء المعري في رسالة الغفران في ذينك البيتين  
الذين للتمر بن تولب وهما :

أَلَمْ بِصُحْبَتِي وَهَمْ هُجُوعُ      خَيَالُ طَارِقٍ مِنْ أُمَّ حِصْنِ  
لَهَا مَا تَشْتَهِي عَسَلُ مُصَفَى      مَتَى شَاءَتْ وَحَوَارِي بِسَمْنِ

« وكيف غيّر القوافي منها ونزّلها على سائر حروف المعجم خلا حرف الطاء ؛  
علم تمكن أبي العلاء من الأدب واطلاعه على اللغة (١) .

ولا يدل عمل ابن الذروي على سعة الاطلاع والتمكن من اللغة فحسب ؛  
وإنما يجمل بين طياته شاعرية لاشك فيها ، وموهبة غلابة قادرة ؛ حتى جاء بهذه  
القوافي كلها ليؤدي المعنى الواحد . لذا فإن رد الصفدي لما صنعه مجير الدين بن  
تميم في قافيته المزدوجة ؛ لا يناقضه هذا الإعجاب بقصيدة ابن الذروي .

---

(١) الغيث المسجم ١٤/١ - ١٥

ولو لم يكن ابن الذروي قد أجاد الأداء إلى جانب هذا التمكن اللغوي ؛ لما قال فيه الصفدي ما قال ، وقرنه بأمثال أبي العلاء المعري . هذا مع إقرارنا بأن مزاولة مثل هذه المهارة لا بد وأن تكون على حساب دقائق المعنى ونبضات الشعور في القريض ، بما لا مجال معه لريبة أو تردد . وقد رأينا مراعاة الصفدي للمتعة الحسية في الأدب ، إذا لم يكن على حساب المعنى إن لم يصف إليه جديداً .



## الفصل الرابع

### مقاييس النقد عنده

لم يكن التجويد الفني هو الأساس الوحيد الذي اعتمده الصفدي في تقديم النص والحكم له أو عليه ، بل لقد تعددت مقاييسه ، حسباً رأه وأملته عليه قيمه وذوقه ، فلم يسيطر على الصفدي ميله إلى الأدب فحسب ، حتى يجعله كالقاضي الجرجاني ، إذ ينفي كل عامل يمكن أن يدخل مزاحماً للميزان الفني في الحكم على النصوص أو تذوقها .

لكن الصفدي لم يصل إلى هذا التجرد الفني عند الجرجاني ، بل سيظل يحيا بين أهل عصره ، تراحمه إلى النصوص قيم هذا العصر ومثله وتقاليده .

وهذه الأسس المعتمدة لديه حسب أهميتها في نقده هي :

### الأسس التأريخية :

إن أول ما يهتم به الصفدي في النص ؛ هو أثره في نفس المتلقي ، وإقامة الصياغة إنما هي لتحقيق هذا التأثير عنده .

فهو يؤخذ ابن الأثير بما ذكره في ذم الدنيا وما أورده من العبارات المتداولة فيها ، حتى اتهمه الصفدي بالركثة والعامية ثم قال : « والناس يذكرون

مثل هذا ، ولكن يدرجونه في عبارة تكون مفعلة ، لها وقع في النفس<sup>(١)</sup> .

كما يستنطق النفس في تقده عبارة ابن الأثير ، في وصف كلام بالفصاحة :  
« إنه يستميل سمع الطروب ، ويستخف وقار القاوب — ليقول — : ولا يقال  
طروب إلا لمن ييل لأدنى لذة ، ويتحرك لأقل نعمة ، ولهذا قيل : المستعد للشيء  
يكفيه أدنى سبب ، وإنما المدح أن يقال : يستميل من لا يرتاح للطرب .. »<sup>(٢)</sup> .

وكم يلح على اختيار الألفاظ التي تضع المرء في الجو النفسي الذي يتطلبه  
المقام ، لترك في النفس الأثر العميق المنشود « فذكر النار والقيامة أمر مهول ،  
ويحتاج الى ألفاظ مفخمة ، تهول السمع ، وتسيل الدمع ، وتقشعر لها الجلود ،  
وتتفطر لها الكبود ، .. كما أن أوصاف الجنة لها ألفاظ تخصها ، عذبة سهلة لذيدة  
الى السمع .. ألا ترى أن المديح له ألفاظ تخصه ، والهجاء له ألفاظ تخصه  
فيذكر الرأس والفرق في المديح ، والدماع والقذال في الهجاء<sup>(٣)</sup> ، وذلك لتحمل  
شعور القائل وتعبير عما في نفسه من جهة ، ولتقل الى المخاطب ما فيها من قيم  
شعورية عالية فتحدث في نفسه أبلغ الأثر من جهة أخرى .

كما يؤكد الصفدي على إحداث هذا الأثر في نفس السامع ، من خلال  
الألفاظ المؤدية ، في إيراد وصف أبي زبيد الطائي للأسد في مجلس عثمان ، ويختتم  
وصفه بهذه الأبيات :

عَبَّوسُ شَمُوسُ مُطْرَخِمٌ مُكَابِرٌ      جَرِيٌّ عَلَى الْأَعْدَاءِ لِلْقِرْنِ قَاهِرٌ  
بِرَائَتُهُ شُنُّ وَعَيْنَاهُ فِي الدَّجَى      كَجَمْرٍ غَضَا فِي وَجْهِهِ الشَّرْطَائِرُ  
يُدِلُّ بِأَنْيَابِ حِدَادٍ كَأَنَّهَا      إِذَا قَلَّصَ الْأَشْدَاقَ عَنْهَا خَنَاجِرُ

(١) نصرة الثائر ١١٧

(٢) « « ١٢٤

(٣) « « ١٣٩

« قال الراوي : فحبق أحد الحاضرين ، فقال له عثمان رضي الله عنه : مه  
رضاً الله فاك ، فلقد رعبت المسلمين » .

ويعقب الصفدي بقوله : « فانظر الى هذه الألفاظ ومواقعها في النفس ،  
كأنها أسودٌ تلثم ، أو أسود تلتقم ، هل يحسن شيء منها أن يكون في وصف  
ظبي أو طاووس . . ! »<sup>(١)</sup>

كما يعترض الصفدي بعنف على أسلوب الرسالة التي أملاها ابن الأثير لترسل  
الى المحبوب الهاجر فيقول في ذلك : « إنني ما سمعت ولا رأيت ، ولا أسمع  
ولا أرى ابن راسل محبوه بمثل هذه الأسياء ، وتهدهه بأن العشق يزول بالصدود  
والزيادة في الحد نقص في المحدود ! هذه العبارة والتهديد تصلح أن تكون في حق  
عدو خرج عن الصداقة الى العداوة ، أو مسؤول أكثر الظلم والفساد في  
البلاد والعباد .

« أما وقف على شعر المتيمن من العرب الذين خاطبوا أحبائهم ، وتوسلوا  
في طلب الوصال ، وتلطفوا في طلب الرضى والمساعدة على الهوى . . . فإنه إن  
كانت الرقة واللطافة والاستكانة خلقت لشيء فما أدري أحداً أولى من العشاق في هذه  
المقامات ، »<sup>(٢)</sup> .

هكذا يطلب الصفدي أن يكون الكلام مناسباً ، بحيث يحدث في نفس  
المتلقي الأثر المنشود ، فيكون النص الأدبي قد أدى الغاية منه في نقل شعور القائل  
الى الآخرين .

---

(١) نصره الثائر ١٣٩

(٢) « « ٢٤٥

## الدراسي الربني :

وكذا فإن الصفدي يعتمد موافقة الدين في تقده للنصوص . وقد رأينا كيف بدأ مسائل كتابه مع ابن الأثير بمؤاخذته ، لأنه لم يبدأ كلامه بحمد الله ، بل بدأه بقوله « نسال الله أن يبلغ بنا من الحمد ما هو أهله » وذكره بالحديث الشريف « كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم » ثم قال فيه « فلو قال الحمد لله لكان أفضل » (١) .

وكذلك أورد لابن الأثير قوله يمدح خطاباً : « ولما وقفت عليه قلت : سبحان من أعطى سيدنا فلم يبخل ، وخصه بنبوة البيان الا أنه لم يرسل ، ولولا أن الوحي قد سُد بابُه لقل هذا كتاب منزل » .

فرد الصفدي قائلاً : « في هذا من إساءة الأدب ما فيه ، وللإنسان عن مثل هذا المدح مندوحة تخرجه من هذه المضائق . وقوله : وخصه بنبوة البيان الا أنه يرسل ، مأخوذ من قول أبي العلاء المعري :

لولا انقطاع الوحي بعد محمد  
هو مثله في الفضل إلا أنه  
قلنا محمد من أيه بديل  
لم يأتيه برسالة جبريل

وقد كُفّر قائل مثل هذا ، (٢) .

ويقول الصفدي تعليقاً على قول ابن الأثير في حديثه عن سورة الفاتحة : « فانظر الى هذا الموضع ، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام تكاد تطأها ؛ والأفهام مع قربها صافحة عنها . . . أقول : أكذا يقال بعد ذكر أسرار القرآن

(١) نصره الثائر ٥٥

(٢) « « ٢٨٠

الكريم . وايضاح غامضه ! وما أفاد قوله ( المعاني الشريفة ) وتأدبه ، بقوله :  
( تكاد الأقدام تطأها ) ؟

وكان الأحسن أن لو قال : فانظر الى هذه المعاني الشريفة ، كيف غدت  
شموسها ضاحية ، والبصائر عن ادراك ضيائها لاهية . أو أن يقول : تكاد تيجانها  
تقع على المفارق ، والأذهان عاطة الجيد من درها المتناسق ،<sup>(١)</sup> .  
ويطالعنا للأساس الثالث بما يعتمده الصفدي في نقده وهو :

### الاساس الاجتماعى :

حيث يراعى الصفدي مقام المخاطبين ؛ ممن يحظى بمنزلة تؤهله لاحترام الناس ،  
ويطالب الأديب بأن يكون على الكياسة واللباقة عند حديثه عن أمثال هؤلاء ،  
كما أنه يجبذ أن تكون آراؤه منسجمة مع آراء غيره من الأدباء ما أمكن ، فإن  
حصل ذلك فسرعان ما يستشهد بقولهم تدعيماً لما جاء به « قال ابن الأثير : وقد استعملت  
أنا هذا في تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة فقلت : ( وإذا استعنت على عمك  
بأحد فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترض بما عرفته من مبدأ حاله فإن الأحوال  
تتنقل تنقل الأجساد ، وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب  
بالريص بن زياد ) .

فجاء رد الصفدي : ( قوله كما خدع عمر ؛ في هذا القول إساءة أدب على عمر  
رضي الله عنه من نسبه الى أنه خدع ، والأدب في مثل هذا أحسن ، ودفن  
الانخداع عنه أليق . ألا ترى الى قوله تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام ( من  
بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي ) فنسب ما وقع بينهم الى الشيطان تأدباً  
مع إخوته عليهم السلام . وما أحسن قول الشاعر :

(١) نصره التائر ١٢٧

حُجِّبِي عَلَيْكَ إِذَا خَلَوْتُ كَثِيرَةً      وَإِذَا حَضَرْتَ فَإِنِّي مَخْضُومٌ  
لَا أَسْتَطِيعُ أَقُولُ أَنَّكَ ظَلَمْتَنِي      اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مَظْلُومٌ

« فانظر الى أدب هذا الشاعر وتلطفه مع محبوبه وإجلاله له . وكان الأحنس أن لو قال : وإذا استعنت على عمك بأحد فلا تثق منه بلمع السراب ، واكشف بيد أرسادك عن وجه سيرته حجاب النقاب ، وتيقظ لأموره فلا ترض بالظاهر العامر وتنسى الباطن الخراب ، وتخيل من مكره ما تحيل به الربيع بن زياد على عمر بن الخطاب .

فإن نسبة الحيلة الى الربيع أحسن في الأدب من نسبة الخدع الى عمر رضي الله عنه (١) .

ومن ذلك نقده لعبارة ابن الأثير في وصف كلام بالفصاحة « وهو فوق الكلام المجيد ، ودون القرآن المجيد » بقوله : ما رأينا من مدح كلاماً ولا قرظه بمثل هذا ، وفي أفانين المدح وضروب الثناء عن ذلك مندوحة . ألا ترى أن رسول الله ﷺ سيد ولد آدم ، ومع هذا فما سمعت أحداً مدح آخر فقال له : أنت دون النبي عليه السلام . لأن لفظة دون وأقل وتحت ما تستعمل في جانب الممدوح (٢) .

أما ميله لتأييد الأدباء والاستناد إلى ما يقولون ؛ فقد كان نامياً في كتابه ( نصره الثائر ) أما في كتابه ( الغيث المسجم ) فيبدو أن ملكته قد اكتملت ، وآراءه قد أصبحت محل اعتزازه ، وذوقه مقدم عنده ؛ ولو كان في ذلك مخالفة ما تعارف عليه الأدباء وجمهور العلماء (٣) .

(١) نصره الثائر ٧٠

(٢) « » ١٢٣

(٣) انظر ص ٢٢٣ من هذه الدراسة



ومن أمثال ذلك في «نصرته» قوله في معرض حديثه عن أبي نواس وأبياته في الخمر وتصاوير الكأس «أقول كفي بهذا الرجل - رحمه الله - أن يقول مثل هذا القول ، وما أعرف كتاباً من أمهات كتب الأدب مثل الروضة للمبرد ، والذخيرة لابن بسام ، وزهر الآداب للحصري ؛ إلا وقد تضمن ذكر هذه الأبيات والثناء عليها .  
 «وحسبك بكلام يثني عليه أبو عثمان عمرو الجاحظ وهو أحذق أئمة الأدب ، وأعرفهم بما يقول ، وأبصرهم بمدارك العقول ، وقوله في مثل هذا حجة ، وما قرره في الأبيات هو المحجة . وما أحسن قول القاضي الفاضل ( وأما الجاحظ رحمه الله ، فإنا منا معاشر الكتاب إلا من دخل من كتبه الحارة ، وشن الغارة ، وخرج وعلى الكتف منها كاره ) .

«وقد أوقع الفاضل - رحمه الله - بذكره في ترسله ، وذكر تصانيفه ، ولو لم يكن له من كتب الأدب إلا كتاب البيان والتبيين لكفاه ذلك فخراً<sup>(١)</sup> .  
 بهذه السلسلة من الدعائم يعضد الصفدي رأيه ويشد أزره .

كما علق على بيت المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي      وأثنى وبياض الصبح يُغري بي

«وما رأيت من عاب هذا البيت ولا هذه القافية ، وإنما هو معدود في المحاسن التي انفرد بها أبو الطيب<sup>(٢)</sup> .

ويدفع عن المعري اتهام ابن الأثير بالتعصب المتنبي بقوله : «إن المعري معذور في تفضيل المتنبي على غيره ، وليس هو ببدع في ترجيحه على غيره من الشعراء ، فأكثر الناس على هذا المذهب<sup>(٣)</sup> .

(١) نصرة الناشر ١٩٤

(٢) «      » ١٣٦

(٣) «      » ١٧١

ولقد كان من الممكن إغفال هذا الجانب عند الصفدي بعد أن أقلع عنه في أواخر كتبه وحياته وغدا ذوقه وآراؤه هما مباءته في نقده ، لولا أن صورة هذا الجانب اللين قائمة في كتابه نصره الثائر ، وهو هنا محط اهتمامنا وهدف أضوائنا . وفي تلمسنا لمقاييسه وما اعتمده من أسس في نقده ، نرى أن الأساس الثقافي ، كان له دور بارز في موقفه من النصوص وأحكامه فيها .

### الأساس الثقافي

فإذا لاحظ الصفدي في النص خطأ يمس حقائق المعرفة أنكر ذلك ، ولم يعد يلتفت الى القيم الفنية فيه .

قال ابن الأثير « ومن ذلك ما كتبه في جواب كتاب يتضمن إباق غلام فقلت : ( وأما الإشارة الكريمة في أمر الغلام الآبق عن الخدمة ، فقد يفر المهر من عليه ، ويطيير الفراش الى حريقه ) .

فرد الصفدي : ( أما الفراش فما يحسن أن يقال فيه : قد يطير الى حريقه ، فإن ( قد ) هنا للتقليل مثل : قد يكبو الجواد ، وكما قال : قد يفر المهر من عليه . أما الفراش فما رأى النار إلا وألقى نفسه فيها ، هذا هو الغالب ولا كذلك المهر .

« قال أبو العلاء المعري في وصف أسد :

بَدَا فَدَعَا الْفَرَّاشَ بِنَاطِرِيهِ كَمَا تَدْعُوهُ مَوْقِدَاتَا ظِلَامٍ<sup>(١)</sup>

كما ينكر الخطأ النحوي في « قول شمس الدين محمد بن التمساني :

يَا سَاكِنًا قَلْبِي الْمَعْنَى وَلَيْسَ فِيهِ سِوَاهُ ثَانٍ

---

(١) نصره الثائر ١٤١

لَأَيِّ مَعْنَى كَسَرَتْ قَلْبِي وَمَا التَّقَى فِيهِ سَاكِنَانِ

فيقول « هذا المعنى رأيت جماعة من أهل العصر قد لهجوا به واستحسنوه ؛ وهو فاسد . وذلك أن القلب وعاء للساكنين والظرف غير المظروف ، والقاعدة أن الساكنين إذا التقيا كُسِرَ الثاني منها ، وإذا كسر قلبه فليس بعجيب لأنه غير الساكنين ، وليس واحداً منها ، فما لإنكاره عليه معنى . فتأمل ذلك يظهر فسادَه (٢) » .

### الاساس الفني :

ونتوجه أخيراً الى أوسع أسس النقد عنده ، وهو الأساس الفني الذي يتلمس فيه سر الجمال والإثارة والتأثير في النص ، بالنظر في عناصره الأولى ومكوناته الأساسية ، بعيداً عن الاعتبارات الأخرى .

ويبدو أن سمو النفس الشعري في النص هو الذي يبعد الناقد الصفدي عن أن يلتفت الى مقياس ثقافي أو اجتماعي أو ما شابه ذلك ، فيجذبه الى ما فيه من فكر مثير ، أو انفعال غامر ، أو اسلوب قوي رائع ، أو صنعة موفقة . فها هو ذا ينقل إلينا نصاً من إنتاج عصره في وصف معركة .

يقول بدر الدين أبو المحاسن يوسف المهندي سنة ٦٨٩ :

لو عَايَنْتُ عَيْنَاكَ يَوْمَ نَزَلْنَا  
وَسْنَا الْأَسِنَّةَ وَالضِّيَاءَ مِنَ الظُّبَا  
وَقَدْ اِطْلَحَمَ الْأَمْرُ وَاحْتَدَمَ الوَعْيُ  
وَالْحَيْلُ تَضْبِحُ فِي الْعَجَاجِ الْأَكْدَرِ  
كَشَفَا لِأَعْيُنِنَا قَتَامَ الْعِثْرِ  
وَوَهَى الْجَبَانَ وَسَاءَ ظَنُّ الْمُجْتَرِي

(١) نصره الناثر ٢٢٣

لَرَأَيْتَ سَدًّا مِنْ حَدِيدٍ مَائِرًا      فَوْقَ الْفُرَاتِ وَفَوْقَهُ نَارًا تُرِي  
 حَتَّى سَبَقْنَا أَشْهُمًا طَاشَتْ لَنَا      مِنْهُمْ إِلَيْنَا بِالْخَيُْولِ الضَّمْرِ  
 طَفَرَتْ وَقَدْ مَنَعَ الْفَوَارِسُ مَدَّهَا      تَجْرِي وَلَوْلا خَيْلُنَا لَمْ تَطْفِرِ  
 لَمْ يَفْتَحُوا لِلرَّمِي مِنْهُمْ أَعْيُنًا      حَتَّى كُجِلْنَ بِكُلِّ لَذَنٍ اشْمَرِ  
 مَا كَانَ أَجْرَى خَيْلَنَا فِي إِثْرِهِمْ      لَوْ أَنَّهَا بِرُؤُوسِهِمْ لَمْ تَعْثُرِ  
 فَتَسَابَقُوا هَرَبًا وَلَكِنْ رَدَّهُمْ      دُونَ الْهَزِيمَةِ رُمَحُ كُلِّ غَضَنْفِرِ  
 كَمْ قَدْ فَلَقْنَا صَخْرَةً مِنْ صَرْخَةٍ      وَلَكَمْ مَلَأْنَا مَحْجَرًا مِنْ مَحْجَرِ

قال الصفدي : « فانظر الى هذه الألفاظ المفخمة التي أتى بها هذا الشاعر البليغ في وصف هذا المقام المهول ، وأظن هذه الأبيات نظمها مهندار العرب في واقعة الملك الظاهر رحمه الله ، لما ألقى روحه في الفرات ، ورمى الجيش نفوسهم خلفه (١) » .

فقد أخذ الصفدي هنا بقدرة هذه الألفاظ على وضعنا في جو المعركة ، بمعانيها وإيجاءاتها وأصداء حروفها .

« وما أطف قول ابن المعتز :

وَابْلَايَ فِي مُحْضَرٍ وَمَغِيبِ      مِنْ حَبِيبٍ مِنِّي بَعِيدُ قَرِيبِ  
 لَمْ تَرِدْ مَاءَ وَجْهِهِ الْعَيْنُ إِلَّا      شَرِقَتْ قَبْلَ رِيِّهَا بِرَقِيبِ

(١) الغنيث المصجم ٢ / ٣٩ - ٤٠

« قلت ما أحلى استعارته الشروق والورد والري لماء الوجه ، فهكذا يكون الشعر (١) » .

ولا بأس عند الصفدي - وهو ابن عصره - من توفير وجوه البديع إذا كان يفضي الى معنى ، أو يزيد المعنى عمقاً وبياناً .

« حكى الشيخ العلامة غرس الدين أبو بكر الإربلي صاحب كتاب ( الألفية في الألفاظ المخفية ) إن صاحب شرف الدين مستوفي إربل أنشده لغيره :

على رأسِ عَبْدٍ تاجُ عِزِّ يَزِينُهُ      وفي رِجْلِ حُرِّ قَيْدٍ ذُلٌّ يَشِينُهُ

فقال غرس الدين المذكور بديهاً :

تَسْرُّ لُشِيًّا مَكْرُمَاتُ تُعِزُّهُ      وتُبْكِي كَرِيماً حَادِثَاتُ تُهِينُهُ

« وقلت هذا أحسن في البديهة ولكنه ناقص عن الأول من وجهين :

الأول : أن الأول قابل ستة ستة لاشك فيها ، وهو قابل أربعة بأربعة .

الثاني : أن المقابلة في قوله تحتاج الى تأويل ، لأن السرور يقابله الحزن ، فكان ينبغي أن يقول : وتُحْزِنُ . . . ولكن لما كان الغالب أن البكاء إنما يكون من الحزن أطلق البكاء هنا على الحزن . ولأن المكرمات لا تقابل الحادثات إلا بتأويل أن المكرمات تكون في الخير والحادثات تكون في الشر .

« وأكثر ما عده الناس في المقابلة بيت أبي الطيب (٢) لأنه قابل فيه بين ستة كما ترى ، فهذا أبلغ ما يمكن أن ينظم في هذا المعنى والله أعلم (٣) » .

---

(١) الغيث ١ / ٢٣٨

(٢) البيت : أزورم وسواد الليل يشفع لي وأثنى وبياض الصبح يغري بي

(٣) الغيث ١ / ١٧٤

وكم يطرب للخيال الصائب ؛ إذ يلفت الى أبرز جوانب الصورة ليدع لخيال المتذوق مجال الانطلاق واستكمال خطوط الصورة ، فتكون المتعة أكمل ، والنشوة أطول ، وذلك في قول ابن الساعاتي :

وَلَكُمْ رَمِيَتْ حَشَا الْفَلَاةِ بِأَسْهُمٍ      بَعَثَتْ حَنَايَا أَنْيُقٍ وَرَكَائِبِ  
مِنْ كُلِّ مُنْتَصِبٍ وَآخَرَ سَاجِدٍ      وَسَنَى كَمَا اخْتَلَفَتْ أَنْامِلُ حَاسِبِ

« قلت : هذا التشبيه في غاية الحسن لأن أنامل الحاسب ، واحدة ترتفع وأخرى تنخفض . وهكذا الراكب في وقت السرى إذا غلب عليهم النعاس . ترى هذا قد هوى بعدما ارتفع ، وهذا قد انتصب بعدما هوى (١) » .

وهكذا نلم بمقاييس الصفدي في النقد ، وأوسعها مدى وأشملها لغالب ما عالج من نصوص هو مقياس الفن ، إذ يلتفت فيه الى توفر عناصر الشعر ومدى الإبداع فيها . كما كان من هذه المقاييس : المقياس التأثري ، والاجتماعي ، ثم الثقافي ، مع ملاحظة أن النص البارع في ميدان الفن الشعري ، لا يسمح للناقد بالابتعاد عنه الى جوانب أخرى ، وبقدر احتجاب عناصر هذا الفن يكون التفات الناقد صوب مقاييس النقد الدخيلة الأخرى ، التي لا تمت بصلة الى الشعر ونظمه .

★ ★ ★



الباب الثالث

الحياة الأدبية والنقدية في القرن الثامن



## الفصل الأول

### صورة العصر الأدبية

إن يبقى الحديث في هذا الفصل محصوراً في حدود الصفدي الناقد ، بل سينطلق منه ليضم ما يعين على رسم صورة واضحة لحال الأدب ونقده آنذاك ، مما تناثر من أقوال ونصوص ، وستبقى كتب الصفدي وما ورد فيها المحور الذي تدور من حوله الأبحاث ، والمنهل الذي تصدر عنه النصوص والآراء ، والكوة التي نطل منها على أحوال العصر الأدبية آخر الأمر .

مع الإشارة الى أن أهمية النتائج تحتم أن تكون النصوص بحدودها الواضحة ، هي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه كل حقيقة وردت في هذه الدراسة ؛ مها دقت وبدا شأنها هينا .

### مفهوم الأدب

لقد كان يفهم من الأدب في عصر الصفدي النثر الفني والشعر ، دون أن يختص ذلك بالنتاج الرفيع منهما .

ففي ميدان النثر الفني شمل هذا المفهوم كل ما سطره الكتاب في الترسيل والخطب والمقامات والإخوانيات وتواقيع الحكام .

وكذلك ضم هذا المفهوم من رياض الشعر كل ما عبر به الشعراء في أحداث العصر وحوادث المجتمع من القصائد، إلى جانب المقطعات والأبيات الثنى التي كان ينظمها العلماء والمتأدبون تظرفاً وتسليّة وإظهاراً للمعرفة والقدرة .

بيد أن النقد ميز بين نوعين من هذا الإنتاج الأدبي . نوع كتبه أصحابه ؛ وأبواب البديع تتسابق نحوهم ، ووجوه الصنعة ماثلة لعيانهم ، وصنوف التكلف تستنفد جهدهم . تدفعهم إلى هذا وتحدهم فيه غاية تعليمية ، إذ يجد المتأدب بغيته في نص أدبي جذاب .

أما النوع الثاني ؛ فقد دعا فيه النقاد إلى نبذ التكلف ، والابتعاد عن كل ما يسيء إلى الشعور الذي يجب أن يحقق امتداده الكامل ؛ إذ لا يليق التكلف في مثله .

ولنترك الحديث للصفدي ونصوحه نتمس من خلالها ما قصده القوم من كلمة الأدب في عصرهم الذي كان القرن الثامن واسطة العقد فيه .

قال الصفدي بعد أن أورد لابن الأثير قوله : « وقد سلك قوم في منشور الكلام ومنظومه طرقاً خارجة عن موضوع علم البيان ، وهي بنجوة عنه ، لأنها في واد وعلم البيان في واد . فمن فعل ذلك الحريري صاحب المقامات ، فإنه ذكر تلك الرسالة التي هي كلمة معجزة وكلمة مهمة ، والرسالة التي هي حرف من حروف ألفاظها معجم والآخر غير معجم ، ونظم غيره شعراً آخر كل بيت منه أول البيت الذي يليه ، وكل هذا وإن تضمن مشقة من الصناعة فإنه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة . »

ويرد الصفدي موضحاً ما التبس على ابن الأثير مبيناً غاية الحريري من صنيعه ذلك فيقول : « إن الحريري رحمه الله تعالى لم يأت بما أتى به من هذه الأنواع ، وادعى أن هذا هو الفصاحة والبلاغة ، وإنما أتى بذلك لبتوع أنواع الأدب ،

ويبين للأديب ما يلزمه معرفته ، وكل ذلك دليل القدرة والتمكن ، ولو أن الحريزي فعل ذلك في المقامات كلها لكان غير حسن (١) .

وهكذا كشف لنا هذا النص على إيجازه عن الحقائق الأساسية في مفهوم الأدب . فالمقامات من النصوص التي دفعت إليها الغاية التعليمية من جهة وإظهار القدرة والاطلاع والتمكن من جهة أخرى ، كما يؤكد لنا هذا النص أن هذه المهارة في استخدام ألفاظ اللغة تعد من أنواع الأدب ، إضافة إلى اعترافهم بأن هذا التكلف حتى ولو كانت غايته تعليمية فيجب أن لا يغلب على المقامات ، وإلا سيج وتقل على النفوس .

ويتابع الصفدي كلامه ليفصل بوضوح بين نوعي النصوص الأدبية بحسب الغاية الدافعة إلى ذلك فيقول :

« ومثل هذه الأشياء من اللغز والأحجية والأغاليط ، والإتيان بالكلمة المعجمة وبعدها المهملة ، وبالحرث المعجم وبعده المهمل ، أو صدر بيت كذا وعجزه كذا... كل ذلك لائق بالمقامات .

أما في الترسل والخطب ، فإنه يُكثره ويستثقل ، لأن الترسل ليس المراد منه التفقه في الأدب ؛ وإنما هو لهناء أو عزاء أو شكر أو مدح أو وصف أو استعطاف أو عتب أو شوق أو غير ذلك . ومثل هذه الأشياء لا يليق بها التكلف . على أنه وإن كانت هذه الأنواع في المقامات فينبغي أن تكون كاللمع اليسيرة ، فإنها إذا كثرت سمجت . ألا ترى أن العماد الكاتب - رحمه الله تعالى - لما جعل كلامه مشجونا بالجناس ... ثقل على الأسماع والقلوب . وأما ابن الأثير فكأنه يظن أن الأدب عبارة عن الترسل فقط ، ولم يعلم أنه جزء منه ، وإن كان جزءاً كبيراً ونوعاً جليلاً (٢) .

(٢) المصدر السابق

(١) نصره الثائر ٣٦٩

فالتوسل والخطب في نجوة من التكلف ، فذلك شيء لا يليق بها كما يقول ،  
لأنها تعبر عن الحالات الشعورية ، وانفعالات النفس في روابطها الاجتماعية  
وعلاقتها الإنسانية .

أما التكلف والصنعة فيجب أن يكون الأمر فيها معتدلاً ؛ حتى في النصوص  
التي تدفع إليها الغاية التعليمية والتفقه في الأدب ، لتضمن استمرار تقبل النفس لها  
فلا تنفر عنها . وكل هذه النصوص من شعر ونثر على اختلاف أنواعها وتباين  
منطلقاتها النفسية إنما يشملها عنوان « الأدب » ويحيط بها مفهومه في عصر الصفدي ذلك .



## المثل الروبية العليا

من الثابت أن معرفة الآثار الأدبية التي تشكل المثل الفني الأعلى للأدباء في عصر ما ، ذات أهمية كبرى في معرفة السبل التي يسلكونها في التعبير عن أفكارهم وذات نفوسهم ، وفي تلمس طريق الأساليب التي يتبعونها ، ومصادر ذلك كله ، لتحديد ما أخذوا وما قدموا ، كما تقيد في تفسير ظواهر العصر الأدبية بعد ذلك .

### القرآن الكريم :

يحدثنا الصفي بأن القرآن الكريم بمعانيه الغنية ، وأساليبه الرفيعة كانت مصدراً هاماً للاقتباس ومثلاً أعلى للاحتذاء ، يوصي بذلك السلف خلفه والمعلم تلميذه . وفي ذلك يقول الصفي : « أما الكاتب فيحتاج الى حفظ الكتاب العزيز وإدمان تلاوته ليكون دائراً على لسانه ، جارياً على فكرته ، ممثلاً بين عيني ذاكرته لينفق من سعة (١) . فإذا كان الصفي قد جعل حفظ القرآن الكريم ضرورة فإن ابن الأثير ضم إليه الشاعر كما رأينا في حينه .

وقد آتت هذه الدعوة أكملها بين الأدباء ، ولكنها كانت ثماراً فجأة ، إذ لم تتفاعل معاني القرآن الكريم مع نفوسهم لتغنيها بالأفكار والمعاني وتعمق بهم في فهم النفس الانسانية ، أو يخلقون معها في أجواء التأمل الفسيحة . لم يكن شيء من هذا ، بل قصارى ما وقع ؛ هو أن تناثر على السطح مما يقولون من شعر أو

نثر ألفاظه من القرآن الكريم ، أو آيات لم تستطع أن تنسجم مع ما يجاورها من من أقوالهم ، فاقامت بينهم غريبة لا تمت إليهم بصلة .

وقد اكتفوا هم بهذه النتيجة قانعين ، واعتبروا ذلك كافياً للارتفاع بالنص الأدبي ، وشافعاً له إلى القلوب ، ومجتنئاً من الإيراد عليه .

وغدونا نسمع كثيراً من أمثال قول الصفي في نقده نصاً لابن الأثير : « لولا أنه مُختم ببعض آية من القرآن لكان سمجاً »<sup>(١)</sup> .

وقوله كذلك تعليقاً على قول أبي الحسين الجزار :

قُلْتُ لِمَا سَكَبَ السَّاءُ قِي عَلَى الْأَرْضِ الشَّرَابَا  
غَيْرَةً مِني عَلَيْهِ لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابَا

« فان هذا أتى بلفظ القرآن العظيم ، فكان له في السمع وقع وفي القلب حلاوة »<sup>(٢)</sup> ، كما بدا تأثرهم سطحياً بأسلوب القرآن الكريم ، فرأى ابن الأثير « أن سورة النجم مسجوعة على حرف الياء » . فرد عليه الصفي بأن « السورة مسجوعة على حرف الألف المقصورة » فكسّوا أساليبهم بالسجع وهم يعلمون أن أسرار إعجاز القرآن كثيرة ، أشار الصفي الى بعضها في كتابه ، لكن السجع أيسرها تحقيقاً .

وكان من تأثرهم بأسلوب القرآن كذلك اهتمامهم البالغ بحسن التخلص ، فأحسنوا الانتقال بين المعاني وأتقنوا ذلك وتنافسوا فيه . وقد كشف الصفي عن هذا بنص نسبه إلى أبي العلاء المعروف بالغانمي جاء فيه :

« إن كتاب الله خال من التخلص ، إنما هو الخروج من كلام إلى كلام

---

(١) نصره الناشر ص ٣٠١

(٢) « « ٢١٥

آخر بلطفة تلائم بين الكلامين الذي خرج منه والذي دخل إليه ، وما هو التخلص إن لم يكن الخروج من كلام الى كلام آخر بلطفة تلائم بين الكلامين...

أما رأي الصفدي فهو أن « القرآن جميعه متعلق بعضه ببعض ، كالخروج من الوعظ والتذكير الى الإنذار أو إلى البشارة أو إلى أمر أو نهي أو وعيد إلا ما خفي تعلقه في الظاهر . . . . وإلا متى تدبّر الانسان ذلك وتأمله حق التأمل ؛ لم يجده مقطوعاً إلا فيما هو معلوم الاقتضاب (١) .

ولم يتوقف تأثر القوم بأساليب القرآن عند هذا . فابن الأثير يقول بعد أن أنكر عدم تناسب المعاني في قول الشاعر « كنت أرى هذا الضرب واجباً في الاستعمال ، وأنه لا يحسن المحيد عنه ؛ حتى مر في القرآن الكريم ما يخالفه كقوله تعالى : « أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتقيأوا ظلالة عن اليمين والشمال » (٢) . والصفدي يدعي أنه « ما أخذ الناس خطاب العظيم بلفظ الجمع إلا من القرآن العظيم » (٢) .

وبذا يكون تأثر الكتاب بالقرآن الكريم وأساليبه موصولاً مستمراً كلما لاحظ أحدهم أن في القرآن الكريم ما يخالف طريقة اتباعها أو أسلوباً درج عليه ، بيد أنه بقي تأثراً سطحياً لم يتجاوز القواعد الشكلية في كتابة ذلك العصر .

### مقامات الحريري :

تشكل المقامات زمن الصفدي إحدى الركائز الأساسية في ثقافة الأديب ومحفوظه ، « يتداولها الناس ويتعاطون كؤوسها ، ويتمثلون بأبياتها وأسجعها ، ويكررون عليها من أولها إلى آخرها :

(١) لصرة الناثر ٣٦٢ وما بعدها

(٢) « « ٣٦٤

وَيَزِيدُهَا مَرَّةً اللَّيَالِي جِدَّةً وَتَقَادِمُ الْأَيَّامِ حُسْنَ شَبَابٍ

« وناهيك بكتاب اشهر وضرب به المثل ، وأصبح إحدى الأثافي في علم الأدب ، وأصبحت ألفاظه ومعانيه حجة ، ونقلت بها النسخ عدد حروفها .

وَسَارَ مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ وَهَبَّ هُبُوبَ الرِّيحِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ »

حتى غدا محفوظاً من قبل الجميع . وليس هذا فحسب ؛ بل يجبرنا الصفدي بأن صيت هذه المقامات وصل إلى الفرنج ، فكانوا « يقرأونها على ملوكهم بلسانهم ، ويصورونها ويتنادمون بحكاياتها » .

كما بلغ من شهرتها أن راند كتاب عصره أعلن عجزه عن محاكاتها . فقد أورد الصفدي عن شيخه شهاب الدين محمود « أن القاضي الفاضل - رحمه الله تعالى - أراد معارضتها وصنع ثلاث عشرة مقامة عارض كل فصل بمثله ، حتى جاء إلى قول الحريري في المقامة الرابعة عشرة .. ( فمد اغبر العيش الأخضر ، وازور المحبوب الأصفر ، اسودّ يومي الأبيض ، وابيض فودي الأسود ، حتى رثى لي العدو الأزرق ، فجبذا الموت الأحمر ) فقال الفاضل : من أين يأتي الإنسان بفصل يعارض هذا ! ثم إنه قطع ما كان عمله من المقامات » .

ويعقب الصفدي على هذا بقوله : « ناهيك بمن يقول مثل القاضي الفاضل في حقه مثل هذا ، ويعترف له بالعجز » (١) .

ونسلم مثل هذا القول في المقامات من القلقشندي في حديثه عن الهمة ذاتي بقوله « ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريري ، فعمل مقاماته الخمسين المشهورة ،

---

(١) نصرة الثائر ص ٥٩ وما بعدها

فجاءت نهاية في الحسن ، وأتت على الجزء الوافر من الحظ ، وأقبل عليها الخاص والعام حتى أنست مقامات البديع وصيرتها كالمرفوضة ،<sup>(١)</sup> .

وليس هذا فحسب ؛ فلقد زاد إعجابهم بها حتى جعلوا منها العصا السحرية التي تصنع الكتّاب والشعراء ، ولهذا قال أشياخ الأدب : ما حفظ المقامات أحد ونسيها إلا نظم ونثر ،<sup>(٢)</sup> :

وشهرة المقامات هذه لم تتوقف عند المشرق وما يحيط به ، فلقد « سُئل ابن عميرة كاتب الأندلس : لأي شيء ما تصنع مثل المقامات ؟ فقال : أما الألفاظ فما أغلب عنها ، وأما تلك الأكاذيب التي تكذبها فما أحسن أن أضع مثلها »<sup>(٣)</sup> :

هكذا يفسر ابن عميرة موقفه من المقامات ، إذ يصم صدقها الفني بالأكاذيب . بينما أدرك الصفدي أن المقامات « هي كتاب علم في بابه » و« لا نظير له في بابه ، وهو في الآداب :

شَمْسٌ ضُحَاهَا هِلَالٌ لَيْلَتِهَا . دُرٌّ تَقَاصِيرِهَا زَبْرَجْدُهَا<sup>(٤)</sup>

فكان الصفدي - بعباراته أعلاه وبما سيلي من تعليقه سرّ رواج المقامات - قد وضع يده على فن القصة العربية في أولى نماذجها إذ يقول : « وما ذلك إلا أن هذا الكتاب أحد مظاهر تلك الحكايات المضحكة ، والوقائع التي إذا شرع الإنسان في الوقوف عليها تطلعت نفسه إلى ما تنتهي إليه ، وتشوقت نفسه إلى الوقوف على آخر تلك القصة .

« هذا إلى ما فيها من الحكم والأمثال التي تشاكل كتاب كلية ودمنة ، وإلى ما فيها من أنواع الأدب وفنونه المختلفة »<sup>(٥)</sup> .

(١) صبح الأعشى ١٤/١١٠ - ١١١

(٢) الغيث المسجم ١٥٨/١

(٣) نصره الثائر ص ٥٧

(٤) المصدر السابق

(٥) » » ٥٩

وبدأ سميت مقامات الحريري حتى غدت إحدى المثل الأدبية العليا في ذلك العصر ، وبدأ طبعياً أن يتأثر بها الكتاب والشعراء ، فيغترفون من معانيها ، ويتمثلون بأسجاعها ، ويقبسون من روحها في أسلوبها ؛ علّهم يحظون بشيء مما نالته ووصلت إليه .

### رسائل القاضي الفاضل :

ويطالعنا الأثر الثالث من المثل الأدبية العليا في عصر الصفدي ، ذلك هو أسلوب الفاضل وطريقته في كتابته .

ويبدأ الصفدي بتقديم الفاضل إلينا بقوله معرضاً بابن الاثير : وأين مقاصد الفاضل وبعد مرماه ، واختلاسه المعاني باطف مغزاه وخفي مسراه ! هيهات ، فإن بينهما من الفرق ، ما بين ذل القدم وعز الفرق . ولطف ذلك لا يخفى على ذوق الكاتب الماهر ، وحسن معانيه في الباطن أضعاف كلامه في الظاهر (١).

إذن فمزايا الفاضل في نظر الصفدي هي توحيه سعة المعاني متجاوزاً حدود الألفاظ ، وأخذ معاني غيره واستعمالها في إنشائه بلباقة وقدرة لا يشعر معها باختلاسها ، ثم يميزه أخيراً بالإيجاز والتركيز إذ يؤدي المعاني الغنية بألفاظ قليلة . كما يتحدث في نص آخر موضحاً ما بأسره في كتابة الفاضل ، بعبارة قد لونتها مشاعره ، وشابها إعجابه بأسلوب التشخيص التصويري عند الفاضل فيقول :

« وأما القاضي - رحمه الله - فإنه سلك طريقاً غريبة ، وأظهر فنوناً عجيبة ، زعم بعضهم أنه كان جل اعتماده على حفظ كلام ابن أبي الشخاء ، وأنه كان يستحضر أكثر كلامه . وبعضهم زعم أنه اعتمد على كلام ابن أبي الحيصال ،

---

(١) نصره الناشر ٥٣

وبعضهم زعم أنه اعتمد على كلام البديع . وهيئات ، ليس في كلام واحد منهم تلك النشوة ، ولا لمتكلم غيره تلك الخطوة في نيل الخطوه ، ولا لمتروسل حسنه الذي يشق قلوب الرجال إن لم يقطع أيدي النسوة .

ويستمر في وصفه كتابةً الفاضل بأسلوب غلب عليه الإعجاب ؛ فتاهت الحقائق في ثنانيا ذلك بقوله : « بينا هو يخاطبك بالكلام إذا به قد عاظك كؤوس المدام ، وبينما هو يناوح مهبك إذا به قد سحر لبك ، وبينما هو يتكلم مثل الناس على العادة إذا به قد سرد الكواكب الوقتادة ، وبينما هو قد ألفتك ظهره إذا به قد أدار لك الحيا ، وبينما هو يسايرك في الثرى إذا به قد تبختر عند الثريا :

فإن كان من درّ فما الدرّ هكذا وإن كان سحرّاً إنّ ذا لعجيب<sup>(١)</sup>

بهذا الأسلوب العاطفي يكشف الصفدي عن جوانب الإبداع في كتابة الفاضل في نظره ، لكن قوله هنا - وإن خلا من الدقة - فإنه بعيد الدلالة على مدى ما كان لرسائل الفاضل في نظره من تأثير بعيد في الكتاب والمتأدين وكتابات العصر على وجه العموم .

ويبدو أن الفاضل قد احتل من نفوس الأدباء مكاناً رفيعاً ، وأن ابن الاثير في مطاولته إياه إنما يروم صعباً ويبغي مستحيلاً . وقد أورد الصفدي بعضاً مما مدح به الفاضل كان منها : « قول ابن سناء الملك :

شَهِدَ الْكَامِلُونَ بِالْفَضْلِ لِلْفَا ضِلٍ أَوْ كَادَ يَشْهَدُ الْمَوْلُودُ  
وَعَدَّ الدَّهْرُ أَنَّ يَجُودَ عَلَى الْخَلْدِ قِي وَلَكِنْ بِمِثْلِهِ لَا يَجُودُ

وابن قلاقس إذ يقول أيضاً فيه من جملة أبيات :



وَأَسْكِرْنَا بَيَانًا دَامَ حَتَّى عَجِبْنَا كَيْفَ حُذِرْنَا الْمُدَامَا  
مَعَانٍ يَقْعُدُ الْفُصْحَاءُ عَنْهَا وَتَسْمَعُهَا خَوَاطِرُهُمْ قِيَامًا (١)

وقد سميت عندهم منزلة الفاضل الأدبية ، حتى قال الصفدي في معرض حديثه عن المتنبي « وماله عندي نظير غير القاضي الفاضل - رحمه الله تعالى - فإن الفاضل هكذا ينحط في بعض الأوقات إلى الحضيض ، ثم يشب وثبة تكون الثريا لها ثرى ، ويدع من اتبع أثره وقفا خُطاه وقد رجع القهقري » (٢) .

ثم ما لبث أن رفعه على المتنبي فقال « وهذان قد سار ذكرهما ، وثبت أمرهما ، وأسكرت الألباب خمرهما . . . فالقاضي الفاضل - رحمه الله - انفرد بالترسل وانفرد المتنبي بالشعر مع ما لهما من الانحطاط ، ولكن انحطاط المتنبي أوضع وأشنع » (٣) .

وهكذا احتل ترسل الفاضل مكانة في عصره سامية ، استمرت بعد رحيل الفاضل عن مسرح الحياة ، تفعل في الأساليب فعلها ، وتتزع من الأدباء إعجابهم ، حتى قال فيه الصفدي ما قال . . . وبينهما ما يقارب القرنين من الزمان .

وقد رأينا أن الصفدي لم يكن بدعاً في هذا ؛ إنما كان لعصره مرآة صافية ، تعكس صورة صادقة لذوق العصر واتجاهاته الأدبية .

---

(١) نصره الناشر ٥٣

(٢) « « ١٧١

(٣) « « ١٧٦

## ثقافة العصر وأثرها في الإنتاج الأدبي

لم يعد الشعر في هذا العصر يتصف بالسذاجة في الفكر ، والبساطة في التخيل ، والعفوية في التعبير ، لأن شاعر هذا العصر ، كبطل خياله بقواعد العلوم ، وربط بدهاته بالعمليات المنطقية المعقدة ، وحوّل ذهنه المتوثب اللماح إلى وعاء للموجزات والنصوص العلمية . فسمح الشعر ، وثقلت روحه ، وخيمت عليه ظلال العلوم ، وتناثرت خلاله مصطلحاتها المحددة على اختلاف أنواعها ؛ غريبة عن النظم طافية على سطحه . أضف إلى ذلك إصرار المعلمين جميعاً على دخول عالم الشعراء مكتفين بتحصيلهم علم العروض ؛ مما ساعد على نشوء هذه الأساليب العلمية ، تعلوها وتشير إليها مصطلحاتها المقررة .

وقد يهون الأمر لو أن عقولهم تمثلت ثقافة العصر حتى غدت تكون مصادر أفكارهم وينبوعها اثر ، وأن نفوسهم تفاعلت بعمق مع هذه الثقافة ، إذن لانعكست عليهم غزارة في الأفكار ، وغنى في الأحاسيس . وتنوعاً في أساليب التعبير . فإذا أطلق أحدهم اللفظة فإنه لا يقصد بها معنى قريباً ، أو مفارقة لفظية ، وإنما يعني بها ما وراءها من معنى واسع وإيجاء غني .

وقد لمس الصفدي هذه الظاهرة في شعر عصره فقال في ذلك : « وكل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون ؛ مال به إلى ذلك الفن ، وغلبت عليه قواعده ، واستعمله في مقاصده الشعرية وتخيلات معانيه ، وظهر على ما يرومه اصطلاح ذلك الفن وأحكامه . ألا ترى إلى أبي الفتح البستي ومقاطيعه المشهورة في الآداب والحكم ، كيف يغلب عليها ألفاظ المنجمين<sup>(١)</sup> .

---

(١) الغيث المسجم ١ / ١٢٤

والحق إن شعراء هذه الفترة لم يكونوا سواء حياى هذه الثقافة ، فقد ظهر منهم من مال إليها بطبعه ، فتعمقها حتى خالطت نفسه ، ولونت خواطره بأونها الأصيل ، وغدت لألفاظها ومصطلحاتها صلات وثيقة مع ذات نفسه وأجوائها الفسيحة ، فغزرت أفكاره وغني تعبيره ، وبدا ذلك في شعره عميقاً رشيماً مقبولاً .

وقد أشار الصفدي إلى أمثال هؤلاء فقال : « هذا الشيخ صدر الدين بن الوكيل ، لما كان الفقه يغلب على فنونه ، تجد كلامه في الغالب إذا خلا من القواعد الفقهية ينحط عن رتبة الحسن . »

كما يذكر الصفدي من هذه النماذج الناجحة قول « الشيخ العلامة تقي الدين ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى :

كَمْ لَيْلَةٌ فِيكَ وَصَلْنَا الشَّرَى      لَا نَعْرِفُ الْعَمَضَ وَلَا نَسْتَرِيحُ  
وَاخْتَلَفَ الْأَصْحَابُ مَاذَا الَّذِي      يُزِيلُ مِنْ شَكْوَاهُمْ أَوْ يُرِيحُ  
فَقِيلَ لِي تَعْرِيسُهُمْ سَاعَةً      وَقُلْتُ بَلْ ذِكْرَاكَ وَهُوَ الصَّحِيحُ

« قلت : انظر الى هذا النظم ما أطف تركيب ألفاظه وأحلاه ، وكونه استعمل طريقة الفقهاء في البحث في ذكر اختلاف الأصحاب ، وأنه قيل كذا وقيل كذا وقلت كذا وهو الصحيح ، كأنه إمام الحرمين ، وقد ألقى درساً في مسألة فيها خلاف بين الأصحاب ، وقد رجح ما رآه هو عنده من الدليل . »

وكان الصفدي لم يرتو من مزايا هذا النص فاستأنف مكرراً : « وما رأيت أحسن من هذا ، بينا هو يصف أحوالهم في الشرى ومشاقهم في التعب ، وتشاورهم فيما بينهم ، وما أشار به كل منهم في إزالة ما حصل لهم من العناء . إذا به قد برز من بينهم برأي أدخل فيه ذكر الممدوح ونص على تصحيحه ، فكأنه في حلقة

الدرس وقد شرع في مسألة خلافية .. ويحترّم هذا النظم على غير الشيخ تقي الدين (١) .

إذن فقد أعجب الصفدي بأمرين تحقّقا في نص تقي الدين :

أولهما : هذا التصوير الحي للمشهد الناطق بأشخاصه وجلبّتهم في تشارهم ، فكاننا نشاهدنا بالنظر

ثانيهما : إدخال ثقافته الفقهية بأساليبها ومصطلحاتها ، فلم تكن رُقعاً على النظم بل كانت روحه النابضة فيه ، والموحية بمشاهدنا من خلاله .

وهكذا تم التفاعل المثمر بين ثقافة منطقية وبين نفس شافية شاعرة ، فكان من ذلك مثل هذا النص الذي لا يزال يغزو من رياض الشعر ، يجري فيه ماؤه ، وتزفرف عليه روحه ، وتترأى معه صورته ومشاهدته ، حتى قال الصفدي :

« وما أحق الشيخ تقي الدين لو أنشد قول الأرجاني :

أَنَا أَشَعْرُ الْفُقَهَاءِ غَيْرَ مُدَافِعٍ فِي الْعَصْرِ لَا بَلْ أَفْقَهُ الشُّعْرَاءُ

ويستمر الصفدي في عرض ثمار هذا التمازج الحي بين الثقافة وشعراء العصر فيقول : « وما أطف ابن سناء الملك في قوله :

وِغَانِيَّةٍ لَمْ تَعُدْ عِشْرِينَ حِجَّةً      أَقُولُ لَهَا قَوْلًا لَدَيْهِ صَوَابُ  
عَلَيْكَ زَكَاةٌ فَاجْعَلِيهَا وَصَالَنَا      فَعُمْرُكَ فِي الْعِشْرِينَ وَهِيَ نِصَابُ<sup>(٢)</sup>

« وكما قال مجير الدين محمد بن تميم :

وَصَادِحَةٍ تُرَدُّ لِي غِنَاهَا      فَطَطَّرُبْنِي وَأَجْهَلُ مَا تَقُولُ

(١) الغيث ١٢٣/١

(٢) نصره الناشر ٢٥٠

بِلَحْنٍ حَارٍ إِبْرَاهِيمُ فِيهِ      وَوَزْنٍ لَيْسَ يَعْرِفُهُ الْخَلِيلُ<sup>(١)</sup>  
« وقال أبو عبيد البكري :

وما زال هذا الدهرُ يَلْحَنُ في الوَرَى      فَيَرْفَعُ مَجْرُوراً وَيَخْفِضُ مُبْتَدَأً<sup>(٢)</sup>  
« وقد أحسن أبو الفتح البستي حيث قال :

حَذِفَتْ وَغَيْرِي مُثَبَّتٌ فِي مَكَانِهِ      كَأَنِّي نُونُ الْجَمْعِ حِينَ تُضَافُ<sup>(٣)</sup>

وإذا اتجهنا مع الصفدي صوب الشعر؛ الذي عليقت به عبارات العلوم - ولحقت به مصطلحاته ، واكتفى أصحابه بهذا التأثير السطحي بثقافة العصر ، وأصرّوا مع ذلك على الظهور وعليهم أمارات العلم - وجدنا منه الكثير .

من ذلك قول السراج الوراق وهو في موقفٍ من أكثر المواقف الإنسانية أسي وحرزناً إذ وقف « يرثي الجزار بقوله :

رَفَعُوكَ وَانْتَصَبُوا قِيَاماً خَافِضِي أَلِّ      أَصْوَاتٍ إِذْ جَزَمَ الرَّدَى مِنْكَ الْعُرَى  
وَعَدَوْتَ فِي الْأَكْفَانِ عَنْهُمْ مُضْمِراً      وَهُمْ يَرَوْنَكَ لِلجَلَالَةِ مُظْهِراً  
إِنَّ الصَّحِيحَ اعْتَلَّ مُذْ فَارَقْتَنَا      وَأَيُّكَ وَالْجَمْعَ الصَّحِيحَ تَكْسِراً<sup>(٤)</sup>

لست أدري كيف يمكن لامرئ أن يشارك في شعور مزيف كهذا ، إلا أن يتجه بذهنه - دون أن يستطيع غيره - الى النحو وقواعده ، فينظر كيف وفق

(١) نصره الناشر ٣٢٩

(٢) الغيث ٢٠٨/٢

(٣) « ٣٨/٢

(٤) نصره الناشر ٣٢٦

الشاعر بين هذه المصطلحات والقواعد النحوية ، فلم تتنافر أو ينقض بعضها بعضاً .  
ثم يتوقف عند هذا الحد ، وقد غفل عن الموت والحزن وموقف الرثاء المهيّب .  
ومن أمثال هذا التأثر السطحي بالقرآن الكريم قول ابن النبيه :

لو لم تكن ابنة العنقود ريقته      لما غدا خده القاني أبا هب  
تبت يدا عاذلي فيه ووجنته      حمالة الورد لا حمالة الخطب<sup>(١)</sup>

ومنه - وعليه لمسة من علم الحديث - قول الشيخ مجد الدين بن الظهير الإبلي :

قلبي وطرفي ذا يسيل دماً وذا      دون الوري أنت العليم بقرحه  
وهما بجنبك شاهدان وإئما      تعديل كل منهما في جرحه<sup>(٢)</sup>  
ومن ذلك وقد خيم عليه ظل الفقه :

هذي القطيفة التي      لا تشتهي عقلاً ونقلاً  
حشيت يبرد يابس      فلاجل ذلك الحشو ثقلي<sup>(٣)</sup>

ونتوقف عند نماذج أخرى من هذا المستوى تلك التي تأثر أصحابها بهذه الثقافة  
تأثراً لفظياً فحسب ، فيتكفون أي تكلف ليجدوا لهذه العبارات المحفوظة لديهم  
مناسبات يسوقونها فيها .

من ذلك قول شمس الدين محمد بن التلمساني .

وما كنت مجنون الهوى قبل أن يرى      لقلبي من صدغيك في الأسر عاقل

(١) نصره الناثر ص ٣٢٥

(٢) « « ١٣٦

(٣) « « ٢١٧

وَلَوْ أَنَّ قُصًّا وَاصِفُ مِنْكَ وَجَنَّةٌ  
لَأَعَجَزَهُ نَبْتُ بِهَا وَهُوَ بِاقِلٌ»<sup>(١)</sup>

وكما قال الآخر :

أُنَاشِدُهُ الرَّحْمَنَ فِي جَمْعِ شَمْلِنَا  
فِيُقْسِمُ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَى الْخَشْرِ  
إِذَا مَا غَدَا شِبَّةَ الْحَدِيدِ فُوَادُهُ  
فَوَالْعَصْرِ إِنَّ الْعَاشِقِينَ لَفِي خُسْرِ»<sup>(٢)</sup>

وواضحٌ تكلفه ليورد ألفاظ : الرحمن والخشر والحديد والعصر ، وهي أسماء  
سور في القرآن الكريم .

« ولبعض الشعراء :

وَمَا رَأَيْتُ الشَّيْبَ رَاءَ بِعَارِضِي  
تَيَقَّنْتُ أَنَّ الْوَصْلَ لِي مِنْكَ وَاصِلٌ»<sup>(٣)</sup>

مشيراً بذلك إلى تجنب واصل بن عطاء حرف الراء .

ويبدو أن ادعاء الثقافة عن طريق الشعر ؛ وصل أدنى مما عرفنا ، فظهر  
من يوصف النظم نائراً فوقه من المصطلحات ما يوهم بعلمه ، حتى أورد الصفدي  
قول الشاعر « في بعض الناس :

هُوَ فِي الْفِقْهِ شَاعِرٌ لَا يُبَارَى  
وَهُوَ فِي الشَّعْرِ أَوْحَدُ الْفُقَهَاءِ  
لَا إِلَى هَوْلَاءِ إِنْ طَلَبُوهُ  
وَجَدُوهُ وَلَا إِلَى هَوْلَاءِ»<sup>(٤)</sup>

(١) نصره الناثر ص ٣٣٠

(٢) « « ٣٢٨

(٣) « « ٢٣٨

(٤) الغيث المسجم ١ / ١٢٣



## تأثير ديوان الإنشاء

بعد ديوان الإنشاء وقتذاك ، أعلى مجمع أدبي ثقافي ، يتنافس للوصول إليه كل من اشتد قلبه ، ورسخت في عالم الكتابة قدمه ، واتسعت ثقافته واستحصدت آراؤه ، حتى لقد ألفت الكتب الكثيرة في إعداد المرشحين لهذا المنصب ، كما كان السلطان نفسه هو الذي يتولى اختيار من يراه منهم ، نظراً لخطورة هذا الأمر ، وعلاقة صاحبه بالسلطان وكبار رجال الدولة .

وقد عبر صلاح الدين الأيوبي عن هذه الحقيقة حين قال على ملاء من الناس :  
« لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل »<sup>(١)</sup> .

فضم هذا الديوان عبر العصور نخبة من الأدباء اللامعين ، وتخرج فيه كبار كتاب العصر ونقاده ، ممن تطالعنا مؤلفاتهم الجامعة ودواوينهم في الشعر والترسل أمثال : القاضي الفاضل وابن الأثير وشهاب الدين محمود والصلاح الصفدي والمقريري والقلقشندي وكثير غيرهم .

وقد كان هؤلاء في زمنهم هم الذرا الأدبية السامقة ، التي يسعى المتأدبون لاحتذائها ويطمحون للوصول إليها ، فيقرأون عليهم تواليف الأدب ، ويروون كتبهم ويتخرجون على أيديهم ، فمن الطبيعي إذن أن يكون هؤلاء - في إنتاجهم من نصوص الأدب ، وفي مؤلفاتهم التعليمية - الدور الأول في توجيه الأدب في عصرهم ، من حيث موضوعاته وأساليبه وكل ما يتعلق به ، أي يكون لديوان الإنشاء بالتالي هذا الدور الفعال في توجيه الأدب وتكوين رجاله .

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، فاخوري ٧٢٠

ولقد ترك هذا الديوان طابعه الواضح على الأدباء الذين هم تقدة الأدب في عصرهم ، وذلك بما حفل به من التقاليد المرعية ، في المحافظة على الألقاب ودرجاتها وفروعها ، والمحافظة كذلك على نماذج مرعية في الموضوعات المختلفة وأساليبها المتبعة .  
ويكفي للتعرف على مدى ما كانت عليه هذه القيود من تعقيد يسوق إلى التكلف السقيم ؛ أن نحتمل الإصغاء إلى أبي العباس القلقشندي ، وهو يحدثنا في القواعد التي يجب على الكاتب معرفتها ومراعاتها فيما يتعلق بميدان الألقاب والنعوت فحسب ، وقد شغلت في صبح الأعشى مجلداً كاملاً ، فيكون اطلاعنا على الحقيقة أعمق وأشمل إذ أن مثل هذه النصوص هي أفصح لسان ينطق بما لا تصلح العبارات للإحاطة به :

يقول أبو العباس مكثفًا ما فصله وأفاض فيه في هذا المجال :

« ... قلت قد تين بما تقدم من الألقاب والنعوت الإسلامية ، وألقاب أهل الكفر ونعوتهم أنها ليست واقفة عند حد ، بل هي راجعة إلى اصطلاح الكتاب واختيارهم ، في زيادة الألقاب ونقصها ، والإتيان بلقب دون لقب ، مع رعاية المناسبة لكل مقام وما يحتمله من الألقاب .

« إلا أن لذلك أصولاً يرجع إليها ، وقوانين يوقف عندها ، إذا اعتمدها الكاتب ومشى على نهجها ونسج على منوالها ؛ أصاب الثغرة من الصناعة ، وطبق المفصل بالمفصل في الإتيان بالمقاصد ، ومتى أهملها وفرط في مراعاتها ؛ ضل سواء السبيل ، وخرج عن جادة الصواب ( ومن يضل الله فما له من هاد ) .

### الأصل الأول :

أن يقف على مارتبه البلغاء من أرباب الصنعة من الألقاب والنعوت ، لكل صنفٍ من ذوي الألقاب والنعوت ، لأهل الإسلام وأهل الكفر ، ويجري ذلك

مجرى الحفظ والاستحضر ليسهل عليه إيرادها في موضعه ، ولا يشذ عنه شيء منها عند الاحتياج إليه ، وقد تقدم من ذلك جملة مستكثرة يبتدى بنجمها ويستضاء في ظلمة اللبس بضوئها .

## الأصل الثاني

أن يعرف ما هو من الألقاب والنعوت حقيقي لصاحب اللقب الذي يستعمله فيه : كالعالمي لأهل العلم ، والعايدي لأهل الصلاح ، والعايدي للحكام من أرباب السيوف وغيرهم - وما هو مجازي كالعالمي لأرباب السيوف والكتّاب حيث له اتصاف لصاحب اللقب بالعلم ، والأصيلي لمن ليس له آباء في الرياسة ولا عراقية في النسب ، ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى .

## الأصل الثالث :

أن يعرف الألقاب الخاصة ببعض دون بعض ، كالشريف والحسيبي والنسبي للأشراف أولاد فاطمة رضي الله عنها ، والكافلي لنائب السلطنة أو وزير كبير ، والنوبيني لأمير القوّامين بالشرق ، والمدبّري للوزير ونحوه من ناظر الخاص ومن في معناه ، والمشيري لمن يؤخذ رأيه من أكبر أرباب السيوف والأقلام ، والسفيري للحاجب والدوادار وكاتب السر ، واليميني للدوادار وكاتب السر ، والعريقي لدى العراقية في النسب ، والأصيلي لمن له ثلاثة آباء في الرياسة .

وكذلك النعوت كوالد الملوك والسلاطين لمن يكون له أولاد من الملوك ، وولد الملوك والسلاطين لأولاد الملوك ، وعضد الملوك والسلاطين للأمراء ونحوهم ، وكافل المالك للنائب الكافل ، وسفير الدولة ولسان المملكة للدوادار وكاتب السر ، ويمين الملوك والسلاطين لها أيضاً ؛ ووالدة الملوك والسلاطين لمن يكون من أولادها ملك ، وكريمة الملوك والسلاطين لمن يكون من إخوتها سلطان ، وقرينة

الملك والسلاطين لمن تكون زوجة ملك ، وصديق الملك والسلاطين أو مؤاده الملك والسلاطين لملك الكفر ، وقرين الملك والسلاطين لنوابهم ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى . فيوقع لكل لقب أو نعت منها في موضعه ولا يجاوزه إلى غيره . وأنت إذا تأملت ما سلف من ترتيب الألقاب والنعت على الأصول المتقدمة ؛ ظهر لك منها ما تستعين به على ترتيبها وإيقاعها مواقعها .

### الأصل الرابع :

أن يعرف الألقاب والنعت الرفيعة المقدار ؛ فيلحقها بما يناسبها من الألقاب والأصول . كالحاق العاليي والعادلي ومهد الدول ومشيد الممالك وما شاكل ذلك بالمقر والجناب الكريم ونحو ذلك . ويعرف الألقاب النازلة فيخرج منها ما يجرده عن الياء ، ويلحقه بالسامي بغير الياء فما دونه ؛ كالعضد والذخر وما أشبه ذلك .

### الأصل الخامس :

أن يعرف مراتب الألقاب في التقديم والتأخير ، مثل أن يعلم أن الشريف والكريم يليان المقر والجناب ، والعالي يليها ، ثم العالي يلي المقر والجناب والمجلس ، والسامي يلي المجلس حيث لا يليه العالي ، وأن النعت المضاف إلى أمير المؤمنين مثل عضد أمير المؤمنين ، وسيف أمير المؤمنين ، وحسام أمير المؤمنين ، يكون آخر النعت ، وأن المضاف إلى الملك والسلاطين مثل عضد الملك والسلاطين ، وظهير الملك والسلاطين ، يكون قبله المضاف إلى أمير المؤمنين إن كان في رتبة يثبت فيها ما يضاف إلى أمير المؤمنين ، وألا يكون المضاف إلى الملك والسلاطين هو آخر الألقاب .

وأن يعلم أن لقب التعريف وهو الفلاني أو فلان الدين ؛ يكون واسطة بين الألقاب والنعت فاصلاً بينها . وأن لقب الوظيفة كالكافلي والحاكمي وما أشبهها يكون قبل لقب التعريف غالباً على ما تقدم بيانه ، فيضع هذه الألقاب

في مواضعها ولا يخرجها عنها ، بخلاف ما يجوز فيه التقديم والتأخير من الألقاب والنعوت<sup>(١)</sup> .

هذا قطرة من بحر بما جاء في القواعد والأصول التي يتوجب على كاتب الإنشاء مراعاتها والتقيد فيها ، وهي إن دلت على شيء فعلي تعقد حياة القوم آنذاك في ماكلهم وملبسهم ومسكنهم ومراسيم الدولة ومناصبها إلى غير ذلك .

وليس الأدب في الحقيقة سوى صورة للمجتمع وأهله وللعصر وأحواله ، أضف إلى ذلك رغبة كاتب الديوان الأكيدة في إظهار توسعهم في الثقافة ، وتبحرهم في العلوم ، فكان أن حولوا الكتابة إلى معرض يُظهر فيه السكاتب ثقافته من جهة ، وتصرفه في الكتابة باصطناع ضروب السجع والبديع والتفنن فيها من جهة ثانية ، لينال رضى الحكام وإعجابهم .

فكان الكتاب بهذا نبراساً للآخرين ؛ وهم شهب الأدب اللامعة ، فتحولت الكتابة إلى ما أرادوا . كما كان منهم النقاد المرموقون فساهموا في توجيه الأدب في دروب التكلف والبديع وتطعيمه بألوانٍ من ثقافة العصر وعلومه المختلفة .

---

(١) صبح الأعشى ١٨١/٦

## العملية الشعرية

إنها أرض شائكة وسبيل فيها دقيق ، لا دليل فيه مع المرء سوى صحف لا حصر لها من السطور الموزونة من الشعر العربي عبر الآماد المتطاولة ، منذ أن نشأ وترعرع في أحضان الصحراء الفسيحة تحت السماء الصافية ، لا يعرف له منهلاً سوى القلب ، ولا قيامة سوى النفس ذات الأوتار المشدودة ، يمر الشعور بها قبل أن يترجم عنه اللسان ، فيوقع عليها في كل مرة لحناً ، بسيطاً صافياً يخرج من القلب ليتعلق بالقلب ؛ آنَ تردُّدِ أصداء حروفه ونغماته .

وتسير مع الزمن خطوة ، فترى العقل وقد أرسل له سفيراً إلى هذا القلب ، فإذا طاف بالنفس المنفصلة طائف الشعر كان لسفير العقل ما يقوله ، ملوناً بهذه الانفعالات ، منصهراً مع صوت القلب ولحن الشعور .

لقد قال شاعر العصر الأموي في كل شيء بما يحيط به - لا لأنه رغب في هذا بل ؛ لأن نفسه انفعلت بما يحيط بها واضطربت به ، فأوحت إلى لسانه ليحمل هذه المشاعر بجرارتها وصدقها وبساطتها ، بغض النظر عن المحور الذي تدور حوله .

كانت هذه هي صفات الشعر حتى ما كان منه في الخصومات المذهبية والأحزاب السياسية ؛ بله شعر الفخر والوصف والنسيب .

ثم تدفقت شآبيب الثقافة والعلم ، ونهل منها القوم وعلتوا ، وامتلات نفوسهم وغنيت أفكارهم ، وتحدثوا في كل علم وفن ، وخاضوا في ذلك بكل الأساليب - ولم يكن الشاعر إلا في تيار هذه الدوامة يتلقى ويعطي ، ينفعل

ويتدفق ، حتى قيل إن أبا نواس فقيه غلب عليه الشعر ، فإذا بطرائق الفقه وأساليبه  
وقد تركت طوابعها على لسانه ، وبدا ذلك في شعره .

والصفدي نفسه استشهد به على أنه شاعر فقيه ؛ مقدماً لشعراء عصره — ممن  
غلب عليهم الفقه — نموذجاً يجتدى حين قال : « ولأبي نواس شيء من هذا  
المذهب في الشعر يذكر البحث والجدل في قوله :

فَاخْرَتُ كُلَّ شَرَابٍ فَسَمَتُ      رُتْبَةً لَيْسَ يُضَاهِيهَا شَرَابُ  
لَا تُمَارِيكَ عَلَى تَحْرِيمِهَا      إِنَّ نَقْلَ مَا حُرِّمَتْ طَالَ الْخِطَابُ  
حُرِّمَتْ مَا حُرِّمَتْ بَلْ حُرِّمَتْ      جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ نَهْيٌ وَأَجْتِنَابُ  
قَالَ: هَلْ أَنْتُمْ . . . فَقَلْنَا: نَحْنُ . . . لَا      وَسَكَّتْنَا كُلَّنَا وَاسْتُدْبَابُ

وعقَّب على ذلك بقوله : « كان يقال أبو نواس فقيه غلب عليه الشعر ،  
والشافعي شاعر غلب عليه الفقه » (١).

ما الخبر إذن ؟ لم نسمع مثل هذا من أبي نواس بما فيه من مشاهد حية  
وقول يتردد ، وحديث طويل يدور بين الشَّرب — وهم ينتظرون وصول الأقداح —  
حول التحريم ، ولم طال هذا النقاش . . . وكثير فيه بينهم الدفع والجذب . . . ولم  
هو غني قول حرمت ما حرمت بل حرمت . . . وما ان انتهوا الى هذه النتيجة حتى  
فوجئوا جميعاً بهول العاقبة ، لقد سمع الحاني وعرف ما استقروا عليه ، فكان  
البيت الأخير بإيجازه الغني المكتنز المثير ، قال : هل أنتم ممن يحرم شربها فقلنا  
بتلكؤ نحن . . . لا . . . وراى عليهم صمت طويل غني كذلك . . . وكل منهم حائر في  
هذا التناقض بين ما قاله وما فعل ، وبين ما أدلى فيه بدلوه وما سيحل به من

---

(١) الفيث المسجم ١٢٤/١



حرمان لو ثبت على قوله « فسكتنا كلنا » لم يتردد بعد ذلك حرف واحد وماذا يقولون ؟ هل هناك ما يقال ..

أقول لم نسمع مثل هذا من أبي نواس الفقيه ، ونسمع شيئاً آخر من الشيخ صدر الدين بن الوكيل الذي قال فيه الصفدي إنه « لما كان الفقه يغلب على فتونه نجد كلامه في الغالب إذا خلا من القواعد الفقيهية ينحط عن رتبة الحسن » .

إذن فصدر الدين هذا رأس الفقهاء الشعراء في عصره ومع ذلك نسمعه يقول :

أرقت دم الراووق حلاً لأنني رأيت صليبا فوقه فهو مُشركُ  
وزوّجت بنت الكرم بابن غمامة فصحّ علي التعليق والشرطُ أملكُ

ويعقب الصفدي بقوله « هذا الآخر من نمط الأول في استعمال قواعد الفقهاء والتورية بالتعليق مع تضمين المثل » (١) .

وكل ما قاله صدر الدين هنا في الخبر ؛ هو أنه صيها ومزجها بالماء ، وبقية البيتين بعد ذلك تنتمي إلى كتب الفقه ، وتحن إلى أروقة الفقهاء .

فالشاعر لم يعبر عن تجربة أولاً ، كما أنه لم يملأ نفسه بالمعنى الذي ينوي القول فيه ، فنفسه وفكره وذاكرته تعص بمصطلحات الفقه وألفاظه ومسائله ، فما أن تشعر بقدم معنى جديد حتى تسارع إلى الإحاطة به والتعلق فيه ، فإذا خرج عن اللسان بدا هذا المعنى متقلصاً ضامراً ، قد غمره الفقه وسرت به روحه فجف وتجمد ، وتحول إلى كلام تقريرى ، غريب عن التعبير الشعري المثير .

ولن نذهب بعيداً ؛ والناقد الصفدي يجبرنا بهذه العملية الشعرية في مراحلها المتعددة ، منذ أن تكون فكرة — وأنا أعني ما أقول — إلى أن تتمخض بعد لأي عن بيتين أو ثلاثة لا تقوى على النهوض ، بما كساها به الشاعر من أثواب

---

(١) الفبيث ١٢٦/١

مزرَكشة ، وأثقلها فيه من حلي تزاومت لتجد لها مكاناً على هذا الجسد المزيبـل  
الذَّاوي فلا تجد ، فتراكب فوق بعضها فيزهق في هذا الشعر كل معنى ، ويحتضر  
كل شعور ، ولا يبقى أمامنا إلا أن نعجب بهذه الأثواب المزرَكشة ، وندعش  
لتلك الحلي البراقعة ، كل ذلك بأسلوب تقريري جاف ، لا يحرك فينا جارحة ،  
ولا يثير عاطفة ولا إحساساً .

يقول الصفدي :

« ولما قرأت المقامات الحورية على الشيخ الإمام الأديب الكاتب شهاب الدين  
أبي الثناء محمود رحمه الله ؛ أنشدني من لفظه عند وصولي إلى بيئتي ابن سكرة  
مواليا لبعضهم ، وأنشدته لغيره أيضاً :

رَمَتْنَا يَدُ الْأَيَّامِ عَنْ قَوْسِ خَطِيئِهَا      بِسَبْعٍ وَهَلْ نَاجٍ مِنَ السَّبْعِ سَالِمٌ  
غَلَاءٌ وَغَارَاتٌ وَغَزْوٌ وَغُرْبَةٌ      وَغَمٌّ وَغَدْرٌ ثُمَّ غُبْنٌ مُلَازِمٌ

« فأعجبه — رحمه الله — ذلك ، وأمر بتعليقها . ثم إنه قال :

« إلا أن من خاصية هذا النوع أنه لا بد وأن يكون بعض هذه السبعة  
موصوفاً ليقوم الوزن بذلك ، فاستقرت الحافظة فكان كذلك . قلت والعهة في ذلك  
أنها سبعة ألفاظ ويريد الناظم أن يأتي بها في بيت واحد ، فيضطره الوزن إلى  
زيادة لفظة ليكون كل نصف فيه أربعة .

« وبقي هذا الكلام في ذهني . ولم أكن إذ ذاك مشتغلاً بغير التحصيل  
والقراءة والمطالعة ، إلى أن اشتغلت ببعض العمل ، فأردت امتحان الخاطر الخاطر  
بنظم شيء من هذه المادة ؛ بحيث يكون سبعة ألفاظ بغير زيادة وصف ، فاتفق  
ذلك فقلت :

إِذَا تَيْسَّرَ لِي فِي مِصْرٍ وَاجْتَمَعَتْ      سَبْعٌ فَإِنِّي فِي اللَّذَاتِ سُلْطَانٌ

خَوْدٌ وَخَمْرٌ وَخَاتُونٌ وَخَادِمُهَا      وَخُلَّةٌ وَخَلَاعَاتٌ وَخُلَانٌ» (١)

هكذا كانت تسير العملية الشعرية في ذلك العصر تبدأ من الذهن ، محجوبة تماماً عن النفس التي لم تدّر بما يجري ، فالشاعر هنا يفكر في أن يأتي بسبعة ألفاظ ، إذن ، فعليه أن يجمع هذه الألفاظ السبعة بما يحفظ ؛ وإلا فهذه معاجم اللغة ، وهكذا اجتمعت الأحرف السبعة ، فليعمل في رصفها بحيث يستقيم الوزن ويتم العمل ، وينظر الناظم فيما فعل فيأخذ في التبديل والتعديل ، يوفر لبيته من وجوه البديع ما يثير الإعجاب بقدرته والإقرار بسعة معرفته ، وإلى هنا تنتهي مهمته في نظره .

ويزيدنا الصفدي معرفة بعملية صنع الشعر هذه فيقول :

« قال الشاعر :

رَقَّتْ شَمَائِلُ قَاتِلِي      فَلَذَاكَ رُوحِي لَا تَقَرُّ  
رَدَّ الْحَبِيبُ جَوَابَهُ      فَكَأَنَّهُ فِي اللَّفْظِ دُرٌّ

« وقد فكّرت في هذين البيتين ، فوجدت الكلمة الأولى ثلاثية ، والثانية ثنائية ، فقلت : لو اتفق الكلمتان في العدد لكان أكمل في الصناعة . فامتحننت الحاطر بنظم شيء من هذا النوع كاملاً ، ففتح الله علي بالمطلوب عاجلاً ، فقلت في الوزن والروي :

رَضْتُ فَوَادِي غَادَةً      مَا كُنْتُ أَحْسِبُهَا تَضُرُّ  
رَدَّتْ رَسُولِي خَائِباً      فَمَدَا مَعِيَ أِبْدَأَ تَدُرُّ» (٢)

(١) الغيث ٤٠٥/٢ - ٤٠٦

(٢) المصدر السابق

ويستطرد الصفدي ليعطينا نموذجاً ثالثاً عن هذه العملية الشعرية فيقول :  
 « ولما قرأت كتاب ( حسن التوسل إلى صناعة التوسل ) على مصنفه الشيخ  
 الإمام العلامة شهاب الدين أبي الثناء محمود — رحمه الله تعالى — وكان مما أورده  
 في أنواع الجناس قول المطوعي وهو :

أَخَو كَرَمٍ يُفْضِي الْوَرَى مِنْ بَسَاطِهِ      إِلَى رَوْضِ جُودٍ بِالسَّاحِ جُودِ  
 وَكَمْ لِحْبَاهِ الرَّاعِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ      مَجَالِ سُجُودٍ فِي مَجَالِسِ جُودِ

قال لي عندما مررت بها : ما جاء لأحد مثل هذا الجناس ، فبقي هذا الكلام في  
 ذهني ، فلما كان بعد مدة اتفق لي نظم سبعة وعشرين مقطوعاً من هذا النوع .  
 وقد أودعت ذلك في كتاب لي سميت ( جنان الجناس ) فمن ذلك قولي :

وَسَاقِ غَدَا يَسْعَى بِكَأْسٍ وَطَرْفُهُ      يُجَرِّدُ أَسْيَافاً لَغَيْرِ كِفَاحِ  
 إِذَا جَرَحَ الْعُشَّاقَ قَالُوا : أَقَمْتَ فِي      مَدَارِجِ رَاحِ أُمَّ مَدَارِ جِرَاحِ<sup>(١)</sup>

ونعود بالذاكرة إلى أن هذه المقاطيع في الصنعة — وهي تم بمثل هذه  
 العملية الذهنية المتكلفة — لم تكن تمثل شعر العصر كله كما أسلفنا من قبل<sup>(٢)</sup>  
 أما نظم أمثال هذه المقاطيع فقد زاولوه للتسلية ورياضة الفكر — كما أشار الصفدي  
 قبل قليل — بغية تحقيق البديع وتوفير الشواهد لذلك ، كما كان من الأغراض  
 إظهار المقدرة ، ثم المعرفة وسعة الاطلاع .

أما القصائد فبقي لها ميدانها الجاد الذي يتصل غالباً بالجو الرسمي للدولة ،  
 من مديح أو وصف للمعارك ، مما كان الصفدي يسأل فيه عن المعنى قبل وجوه  
 البديع ، ويرفض كل صنعة لا تخدم المعنى بله أن تسيء إليه . .  
 أما إذا اجتمع الأمران ؛ فقد اتقادت لهذا الشعر أسباب روعته وجماله وتأثيره .

(١) الغيث ٤١٠/٢

(٢) انظر ص ١٨٩

## مفهوم النقد وروحه السائرة

لقد غلب على النقد في عصر الصفدي معنى الحصومة والتعصب ، دون أن يعني هذا انعدام النقد الذي يتوخى الفن . بيد أن المفهوم الأول كان كثير الدوران وافر الأدلة ، فطالما سمعناهم يقون « بالتقريظ » يوجهه ناقد ما إلى أديب آخر في نص أدبي صدر عنه ، فإذا ما اقتربنا من هذا التقريظ فسرعان ما يتبين لنا أنه موجه إلى صاحب النص ، يكيل المديح دون حساب ؛ ثناءً على مقدرته وعلمه وتبحره في فنه .

كما تردد على سمعنا قولهم « بالمؤاخذة » وهي كما يشير معناها ؛ كشف مأخذ النص المدروس فحسب ، وذلك بسبب خصومة ما بينهما .

وقد سلف أن جلسنا إلى القلقشندي وكان يذكر التقريظ بقوله : « قد جرت العادة أنه إذا صُنف في فن من الفنون ، أو نظم شاعر قصيدة - فأجاد فيها أو نحو ذلك - أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقريظ والمدح »<sup>(١)</sup>.

كما أورد الصفدي خصمه ابن الأثير بالمؤاخذة أكثر من مرة حين قال : ومن هنا أجرد عن ساعد المؤاخذة<sup>(٢)</sup> وقال أيضاً : « وبلغني مما وضعه عز الدين بن أبي الحديد - رحمها الله - على الكتاب من المؤاخذة »<sup>(٣)</sup> وكلها تعني التنقيب عن

(١) صبح الأعشى ٣٣٥/١٤

(٢) نصره الثائر ٥٣

(٣) المصدر السابق ٤٤

الماخذ دون غيرها . والحق أن هذه المؤاخذة لم تكن تقصد النص بقدر ما هي موجهة إلى صاحبه ، معبرة بشكل غير مباشر عن شعور الناقد نحو صاحب النص . هذا ولا يعجز الباحث أن يعثر على نماذج كثيرة من نقد العصر ، ترقع فيها أصحابها عن معاني الحصومة والتعصب ، وتجردوا عن الهوى إرضاء للحقيقة والذوق . وقد مررنا بشيء منها عند الصفي أثناء حديثه في نصوص ابن الأثير بما سنمر بمثلاً عند غيره في حينه .

أما الروح التي ميزت النقد في تلك الفترة فقد غلب عليها كذلك صفات الشككية والسطحية والجزئية ، والأمثلة على ذلك لا تحصى كثرة ، فإن كنت أتخذ من بعض نقد الصفي — الذي ينساق مع هذه الصفات — أمثلة لذلك ؛ فلأنني أعتبر أن هذه الأمثلة عنده تشكل مذهب النقد عند غيره ، إذ لو كان النقد في أذواقهم ومقاييسهم الغالبة كما كان الصفي ؛ لما كان لانحدار الإنتاج إلى هذا المستوى المتدني وجه يبرره .

فمن غلبة الروح الشككية على النقد ما ورد في النص التالي للصفي :

« قال ( ابن الأثير ) وقد أورد قول البحري :

وتراه في ظلم الوغى فتخاله قمرأ يكره على الرجال بكوكب

وفي هذا التشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء . فإنه شبه العجاج بالظلمة ، والممدوح بالقمر ، والسنان بالكوكب ، وهذا من الحسن النادر .

ويخوض الصفي خوضه فيقول : « هذا من أنموذج ما تقدم من قوله في قول الشاعر ( وكأنها وكان حامل كأسها . . البيتين ) هناك وهم الشاعر فقلده ، وهنا انفرد هو بالوهم دون البحري ، لأن البحري ما قال : وتراه في عجاج الحرب إذ كره على الرجال برمه قمرأ يجول في الظلام بكوكب .

« ولو كان البيت يفهم منه هذا المعنى ؛ كان تشبيهه بثلاثة بثلاثة ، وليس في البيت غير تشبيه واحد ، لأنه قال : تراد في ظلم الوغى فتخاله قمرأ . هـ هذا هو المعنى الذي بُني عليه البيت . وأما قوله : ( يكر على الرجال بكوكب ) فمن لواحق القمر . ألا ترى أن الجملة في موضع النصب على أنها صفة لقمر .

« ومن العجيب أنه ادّعى أن البحري شبه العجاج بالظلم ، والبحري جعل العجاج نقه ظلاماً . ولو أتى ذكر الظلام في عجز البيت للدخل في المشبه به ، واندرج بين القمر والكوكب ، وإنما جاء ذكره في أصل المشبه (١) .

أما ما كان من سطحية ذلك النقد ؛ فنمثل له بما ذكره الصفدي في قول ابن الأثير : « ومن ذلك ما كتبه من جملة كتاب الى ديوان الخلافة ، أذكر فيه نزول العدو الكافر على عكا فقلت : وأحاط به العدو إحاطة الشفاه بالثغور ، ونزل عليه نزول الظلماء على النور .

فلم ير الصفدي في هذا إلا أن يقول :

« ليس في هذا مبالغة ، لأن الشفاه لا تحيط بالثغور ، والإحاطة اشتغال المحيط على المحوط من كل جانب كالدائرة بالنقطة ، وعصر الماء بكرة الأرض ، وبياض العين بالسواد . أما الشفاه فإنما هي ساترة لا محيطة .

« والكامل في ذلك قول الحريري رحمه الله تعالى : ( وقد أحاطت به أخلاط الزمر ، إحاطة الهالة بالقمر ، والأكام بالتمر ) . وقول القاضي الفاضل : ( وأبقاد بقاءً خارقاً للعوائد ، وجعل أيديه مطيفة بالأعناق إطافة القلائد ) . وليست الشفاه كذلك ، إنما تستر الظاهر دون الباطن (٢) .

---

(١) نصره الثائر ٢٧٧

(٢) المصدر السابق ٢٧٥



وحين نلتفت شطر الجزئية في النقد أو اللفظية فيه ؛ نجد أن روح الجزئية قد انحدرت الى هذا العصر من دهور تضرب أوائلها في العصر الجاهلي ، وقلمنا عثرنا على نقد يحيط بالتجربة أو ينفعل للشعور العام في القصيدة ، ثم يقوم أجزاءها من الألفاظ والتراكيب والصور بمقدار ما تسهم في نقل هذه التجربة ، أو في التعبير عن ذلك الانفعال ، بل جلّ ما نراه هو الدوران حول لفظة أو تشبيه أو ما شابه ذلك .

ومن هذا القبيل عند الصفدي تعليقه على عبارة ابن الأثير (ولو استخراج منها ما استخراجت واستنتج منها ما استنتجت ، لهام بها في كل واد وتزود إلى سلوك طريقها كل زاد) .

أقول : هذه السجعة الأخيرة محلولة باردة لامية تحتها . ولو قال : لهام بها في كل واد ، وارتفع لها في مظهر الربا وانخفض في مضر الوهاد ؛ لكان أحسن (١) .

ومنه كذلك قول ابن الأثير :

ومن ذلك ما ذكرته في الحث على الاعتراب وهو : (لولا التغرب ما ارتفعت بنات الأصداف الى شرف الأعناق ، ولا ارتقى تراب الأحجار الى نور الأحداق) .

« أقول : قوله ارتقت أولاً وارتقى ثانياً فيه عيب لتكراره . ولو قال في أحدها ما اتصل أو ماسما أو غير ذلك لكان أحسن (٢) . »

واقدم فيما يلي نموذجاً من نقد العصر ، صادراً عن كبار مشاهير القوم آنذاك ، تبيين فيه ما تقدم ذكره ، نلمس فيه نموذجاً من النقد الفني ، إذ لا تقريظ ولا تعصب . كما نضع أيدينا على ما أسلفنا القول فيه من روح النقد وصفاتها في ذلك العصر .

---

(١) نصره الثائر ١٠٣

(٢) « « ١١٣ وما بعدها

يقول الصفدي :

« قال ابن سناء الملك من أبيات :

تَزَخَّرَفَ مِنْهَا وَجْهُهَا وَهِيَ حَبَّةٌ      وَيَخْضَرُّ مِنْهَا نَضْرَةٌ فَهُوَ سُندُسٌ  
صَلِينِي وَهَذَا الْحَسَنُ بَاقٍ فَرَبَّمَا      يُعْزَلُ بَيْتُ الْحَسَنِ مِنْهُ وَيُكْنَسُ

« ولما وقف القاضي الفاضل - رحمه الله تعالى - على هذه القصيدة التي منها هذه الأبيات ؛ كتب الى ابن سناء الملك من جملة فصل :

« ... ولا عيب في هذه المحاسن الا قصور الأفهام وتقصير الأثام . والا فقد لهج الناس بما تحتها ودونوا مادونها ، وشغلوا التصانيف والخواطر والأقلام بما لا يقاربها ، وسارت الأشعار وطالت بما لا يبلغ مداها ولا نصيفه ، والقصيدة فاتقة في حسنها ، بديعة في فنها . وقد ذلت السنين فيها وانقادت ، فلو أنها الرأء لما زادت . وبيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها ) .

فأجاب ابن سناء الملك قائلاً :

« وعلم المملوك مانبه عليه مولانا ، من البيت الذي أراد أن يكنسه من القصيدة ، وقد كان المملوك مشغولاً بهذا البيت مستحلياً له متعجباً منه ، معتقداً أنه قد ملح فيه . وأن قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه . وما أوقعه في الكنس الا ابن المعتز في قوله :

وَقَوَامِي مِثْلُ الْقَنَاءِ مِنَ الْخَطِّ      طِ وَجَدِّي مِنْ لِحِيَّتِي مَكْنُوسُ

« والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجري خلف هذا الرجل ويتعثر ، ويطلب مطالبه فتعسر عليه وتتعذر ، ولا أنيس ناره الا وجد عليها هدى ، ولا مال المملوك إلا إلى طريق من ميته اليه طبعه ، ولا سارق له الا الى من دله عليه سمعه .

« ورأى المملوك أبا عبادة قد قال :

وعاذلي في عبرة قد سفحشها      لبين وأخرى قبلها للتجنب  
تحاول مني شيمة غير شيمتي      وتطلب مني مذهباً غير مذهبي

وقال :

وما زارني إلا ولهت صبابه      إليه وإلا قلت أهلاً ومرحباً

« فعلم المملوك أن هذه طريقة لاتسلك ، وعقيلة لاتملك ، وغاية لاتدرك . ووجد أبا تمام قد قال : سلميم على الربيع من سلممي بندي سلم .

وقال : خشنت عليه أخت بني خشين .

فاشماز من هذا النمط طبعه ، واقشعر منه فهمه ، ونبا عنه ذوقه ، وكاد سمعه يتجرعه ولا يكاد يسيغه .

« ووجد هذا المبدع السيد عبد الله بن المعتز قد قال :

وقفت في الروض أبكي فقد مشبهه  
حتى بكت بدموعي أعين الزهر  
لو لم أعرها دموع العين تسفحها      لرحمتي لا ستعارتها من المطر

« وقد قال :

قدك غصن لا شك فيه كما      وجهك شمس نهاره جسدك

فوجد المملوك طبعه الى هذا النمط مائلاً ، وخاطره في بعض الأحيان عليه سائلاً . فنسج على هذا الأسلوب ، وغلب عليه خاطره مع علمه أنه المغلوب ،

وُحِبُّكَ الشَّيْءُ يُعْمَى وَيُصَمُّ ، فَقَدْ أَعْمَاهُ حُبُّهُ وَأَصَمَّهُ ، إِلَى أَنْ نَظَّمْتَ تِلْكَ اللَّفْظَةَ  
فِي تِلْكَ الْأَبْيَاتِ تَقْلِيداً لِابْنِ الْمُعْتَزِ . فَأَجَابَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

« وَلَا حِجَّةَ فِيمَا احْتَجَّ بِهِ عَنِ الْكُنْسِ فِي بَيْتِ ابْنِ الْمُعْتَزِ ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَعْصُومٍ  
عَنِ الْغَلَطِ ، وَلَا يَقْلُدُ إِلَّا فِي الصَّوَابِ فَقَطْ . وَقَدْ عَلِمَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْعَمْدَةِ  
مِنْ تَهَاتُفِ طَبْعِهِ ، وَتَبَايُنِ وَضْعِهِ ، فَذَكَرَ مِنْ مَحَاسِنِهِ مَا لَا يَعْلُقُ مَعَهُ كِتَابٌ ،  
وَمِنْ بَارِدِهِ وَغَيْثِهِ مَا لَا يَلْبَسُ عَلَيْهِ الثِّيَابُ . وَقَدْ تَعَصَّبَ الْقَاضِي السَّعِيدُ عَلَى أَبِي تَمَّامٍ  
فَنَقَصَهُ حِظَّهُ ، وَلِلْبَحْتَرِيِّ فَأَعْطَاهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ ، وَمَا أَنْصَفَهَا . »

( قَالَ الصَّفْدِيُّ ) « قَالَتْ : اسْتَعْمَلَ ابْنُ سِنَاءِ الْمَلِكِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ  
الْلَفْظَةَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَلَمْ يَتَعَطَّ بِنَهْيِ الْفَاضِلِ وَلَا أُرْعَى ، وَلَا أَزْدَجِرُ عَمَّا  
قَبِحَ لِأَنَّهُ غَلَبَ عَلَيْهِ الْهَوَى ، فَقَالَ :

تَوَسَّسَ شِعْرِي بِهِ مُدَّةً      وَمَا بَرَّحَ الْحَلِيَّ وَالْوَسْوَسَةَ  
وَوَخَّلَصَنِي مِنْ يَدَيْ عِشْقِهِ      ظَلَامٌ عَلَى خَدِّهِ حَنْدِسَهُ  
كُنَسْتَ فُؤَادِي مِنْ عِشْقِهِ      وَلِحِيَّتُهُ كَانَتْ الْمِكْنَسَةَ

« وَأَمَّا الْقَاضِي الْفَاضِلُ فَمَا أَظُنُّهُ خَلَا فِي هَذَا الْإِيرَادِ مِنْ ضَعْفِ انْتِقَادِ ،  
وَأَحَاشِي ذَلِكَ الْذَهْنَ الْوَقَادِ مِنَ الْإِعْتِقَالِ فِي وَرْطَةِ هَذَا الْإِعْتِقَادِ .

« وَمَا أَرَادَ إِلَّا أَنَّهُ تَعَمَّدَ أَنْ يَعْكَسَ مَرَادَهُ ، وَيُوْهِى مَا شِيدَهُ وَيُوْهِنُ مَا  
شَادَهُ ، وَيُرْمِيهِ بِبِلَاءِ الْبِلَادَةِ ، إِمَّا عَلَى سَبِيلِ النِّكَالِ أَوِ النِّكَادَةِ . لِأَنَّ الْفَاضِلَ رَحِمَهُ  
اللَّهُ تَعَالَى يَمُنُّ بِتَوْخِي هَذِهِ الْأَلْفَافِ وَيَقْصِدُهَا ، وَيُنْشِئُهَا وَيُنْشِدُهَا ، وَيُورِي زِنَادَهَا وَيُرْوِدُهَا .

« فَمِنْ كَلَامِ الْفَاضِلِ فِي بَعْضِ رِسَائِلِهِ :

( وما استطاعت أيديهم أن تقبض جمرد ، ولا ألبابهم أن تُسيغ خمره ، ولا سيوفهم أن تكنس قميه ، ولا أعراضهم أن تأخذ لطيمه «<sup>(١)</sup> .

وهكذا نخرج من هذا النص - وقد تعمدت إيرادها على طوله - بما يحفل به من الدلالات ، فهو ينتمي الى النقد الفني بعيداً عن التقريظ أو التعصب ، علماً بأن الفاضل لم يبرأ من نقد التقريظ .

كما يعطينا مثلاً للنقد الجزئي الذي ينصرف الى اللفظة المفردة فيفصلها عن جسم القصيدة ونسيجها ، ليجعلها محوراً لحديثه بعيداً عن حقيقتها . مع أن هذه اللفظة مؤدية ، وترسم في الخيال صورة كاملة ، لا قسوة فيها ولا جفاء ، ولكن ابن سناء الملك لم يحسن الدفاع عنها ، فاكفى بالاحتماء خلف ابن المعتز ، اعتماداً على تقديس الفاضل للقدماء ، مبيناً عن موهبة ليثة . ولكن الفاضل اقتحم عليه حصنه ، وغلب بالمنطق لا بالتذوق . وقد أحسن الصفدي كشف الحقيقة بعد ذلك .

وبذا أنهى من الحديث في مفهوم النقد وروحه السائدة ، وقد تميزت بالشكوية والاهتمام بظاهر النظم وثوبه الخارجي ، والسطحية في عدم الغوص مع القريض ، ونقده على أساس الفكرة النازمة بكل أبعادها ، بل بمناقشة المعنى الفرد وتشريحه ، بعيداً عن كيان القصيدة وبنائها الكلي ، ثم لمسنا انسياقهم نحو اللفظية في تقديمهم فلا يحكمون على الألفاظ أو التراكيب أو التشبيهات من زاوية التجربة الكلية ، أو في الجوانب الشعورية الغامر في القصيدة كلها ، لو وُجد مثل هذا ، ولا بد أن يتوفر شيء منه على أية حال لو تنبه النقاد إلى ذلك .

كما نشير إلى ناحية لا تخلو من الأهمية ؛ وهي أن النقاد بمعالجتهم النصوص

---

(١) الفيث المسجم ٣٧٢/٢ - ٣٧٥

بهذه الروح ، والتفاتهم في الإنتاج الأدبي إلى هذه النواحي ؛ إنما ساهموا في اهتمام  
الأدباء بها وانسياقهم وراءها ، حتى بالغوا في البديع والتكلف إليه تحقيقاً لجمال  
الشكل ، ونظموا متوخين الوحدات الصغيرة ، حتى غدا الشطر المستقل بذاته  
دليلاً على تمكن الناظم ، وبذا شاركوا في تقطيع أوصال القصيدة ، وجعلها أجزاء  
متفرقة لا يضمها إلا البحر والقافية .

★ ★ ★

## بين الأثاب والشاعر وأسباب التغلف

تشير الدلائل الى أن الشاعر في هذا العصر قد انحطت منزلته وتخلف حاله ، على حين ارتقت منزلة الكاتب وسما بها ، حتى كان منهم كبار الوزراء والأعوان . إضافة إلى مكانته الرفيعة في المجتمع .

فهل معنى هذا أن الناس كانوا يتجهمون للشعر ويزورون عنه بينما يهشون لإنشاء الكتاب ورسائلهم . لا يبدو هذا التساؤل صحيحاً ، لأن القوم بشعر الشعراء أكثر انشغالاً منهم برسائل الكتاب ، إن شيئاً لا يثيرهم في رسائل المترسلين على حين ينشطون لما يقال بينهم من شعر يلغزون فيه ويورثون ، ويجعلونه بينهم مادة يتجادبون أطرافها ؛ فتطلق أحاديثهم وتملأ فراغهم .

ولكن لم نذهب بعيداً في تعليل هذا التفاوت الكبير ، فلقد مر بنا في ثقافة الأديب أن الكاتب إذا توفر له الاستعداد ؛ يحتاج إلى الاطلاع على الوفير من العلوم المختلفة ، وحفظ جانب كبير من الإنتاج الأدبي قديمه وطريفه ، بعد حفظ القرآن الكريم وقدر وافر من الأحاديث .

حتى إن الصفدي ذهب الى أبعد من هذا حين جعل الكاتب بحاجة إلى كل شيء ، بل « إنه الذي يعرف الوجود على ما هو عليه ،<sup>(١)</sup> فقلّ تبعاً لذلك عدد الكتاب فتسّموا المناصب ، وكانت لهم المؤلفات الكثيرة في ميادين الثقافة المتنوعة تنطق بفضلهم وتقدمهم وسعة اطلاعهم .

---

(١) نصره الثامر ٦٤ وما بعدها



هذا بينما كان لقب الشاعر رخيصاً ، يعطى لكل أحد من ألم بموازين العروض ونظم عليها شيئاً مما يسمى بالمقاطيع .

ويبدو أن أحداً لم يتنبه لهذا ، لعدم تمييزهم بين الشاعر والناظم ، فهذا ابن كثير يعجب من القاضي الفاضل وهو أديب زمانه بقوله :

و العجب أن الفاضل على براعته ليس له قصيدة طويلة ، وإنما له ما بين البيت والبيتين في أثناء رسائله وغيرها شيء كثير جداً . وله في النحلة والزلقطة :

وَمُغَرَّدِينَ تَجَاوَبَا فِي مَجْلِسٍ      مَنَعَاهُمَا لِأَذَاهُمَا الْأَقْسَامُ  
هَذَا يَجُودُ بِعَكْسٍ مَا يَأْتِي بِهِ      هَذَا فَيُحْمَدُ ذَا وَذَاكَ يُلَامُ<sup>(٢)</sup>

إذن فالسبب الأول في انحطاط منزلة الشاعر ، هو عدم وجود هذا الشاعر ! والطبيعة ضئيلة بمنح المواهب ومنها الموهبة الشعرية . . . وقد اطرّد هذا في العصور السالفة إذ كان وجود الشعراء قليلاً نسبياً ، يقام لنبوغ الشاعر ويقعد ، فيخشى قوله ويهاب جانبه .

فلو كانت الموازين صحيحة في عصر الصفدي كما كانت فيما سلف من أيام ؛ لعاد الشاعر إلى هذه الندرة ، وحالت منزلته إلى الرفعة ، ولطغى على الشعراء عدد الكتاب والمتوسلين .

وهنا سأدع فرصة الكلام لشعراء هذه الفترة ، فيحدثونا بأنفسهم عن سبب ما أصابهم من التخلف الفني وانحطاط المنزلة . ولنبدأ بتاج الدين مظفر الذهبي الذي أخذ يعزو السبب إلى كذب المشاعر وزيفها ، والشعر إذا خلا من العاطفة الصادقة جاء غثاً بارداً لأماء فيه ولا روح ، فيصطنع الشاعر - ليعوض عن هذا

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٤ - ٢٥

الفقر العاطفي - ألوان المبالغات والصنعة المتكلفة ، وذلك حين يخاطب بمدوحه بقوله :

كَلِفْتُ بِتَصْوِيرِ الدَّمِي فِي شَبِيبَتِي      وَأَتَقَنَّهَا إِتْقَانَ حُرِّ مُهَذَّبِ  
وَحَاوَلْتُ عَنْهَا رَجْعَةً فَمَدَحْتُكُمْ      فَلَمْ أَخْلُ مِنْ تَزْوِيقِ زُورٍ مُكَذَّبِ<sup>(١)</sup>

أما الشاعر الشيخ نجم الدين بن إسرائيل ؛ فيعيد السبب إلى أنهم سبقوا إلى المعاني ، فأثى اتجاهوا وجدوا من قال في المعنى قبلهم بأروع من أدائهم ، لتناولهم إياه بكراً . وذلك في حديث للأديب شهاب الدين أبو التناء محمود يقول فيه :

« قلت للشيخ نجم الدين بن إسرائيل ، لأي شيء قصر قولك :

لَكِدْتَ تُشْبِهُ بَرَقًا مِنْ تُغُورِهِمْ      يَا دُرَّ دَمْعِي لَوْلَا الظُّلْمُ وَالشَّنْبُ  
» عن قول شهاب الدين بن الخيمي :

يَا بَارِقًا بِأَعَالِي الرِّقْمَتَيْنِ بَدَا      لَقَدْ حَكَيْتَ وَلَكِنْ فَاتَكَ الشَّنْبُ

» فقال : لأنه شاعر جيد ، تناول المعنى بكراً فأجاد فيه ، ولم يدع فضلة لغيره «<sup>(٢)</sup> .

ويتحدث سراج الدين الوراق ليقول ؛ بأن إشاحة الناس عن الأدب ، وعدم اهتمامهم بما يقول الشاعر ، هو السبب في عدم تجويده والعناية به ، وذلك في قوله :

مَا لِي وَنَظْمُ الشَّعْرِ بَانَتْ صَبَوَتِي      وَالنَّاسُ قَدْ رَغِبُوا عَنِ الآدَابِ  
أَقُولُهُ عَبَثًا بِلَا سَبَبٍ لَهُ      وَالشَّعْرُ مَبْنِيٌّ عَلَى الأَسْبَابِ

(١) الغيث المسجم ٣٨٣/٢

(٢) «      » ٩١٧/١

ثم يستطرد ليشكو فقره ، وانعدام من يستحق المدح في هذا الزمان الذي سادته  
الحرص ، فانعدمت الصلات ، وكسدت بضاعة الشعراء فيقول :

لَئِنْ خَفَّ صَدْرِي لِلْقَوَافِي وَنَظْمِهَا      فَفِي مَنْ وَظَلُّ الْجُودِ عَنِّي مُقَلَّصُ  
وَكُمْ مَطَّلَعِ حَبْرَتُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ      يَقُولُ عَسَى لِي أَوْ عَسَى لَكَ مَخْلَصُ<sup>(١)</sup>

ويتقدم جمال الدين بن نباتة ليؤيد ما ذكره الوراق بقوله :

مَنْ مُنْصَفِي مِنْ أَنْسِ      فِيهِمْ تَحَيَّرَ ذُهْنِي  
لَا دِرْهَمًا وَزَنْوَهُ      وَحَاوَلُوا الشُّعْرَ مِنِّي  
وَهَلْ سَمِعْتُمْ بِشِعْرِي      يَأْتِي عَلَى غَيْرِ وَزْنٍ<sup>(٢)</sup>

أما ابن الساعاتي فيصرح بأنه ملء حرفة الأدب هذه ، دون إبداء الأسباب ،  
ومثل هذا الشعور سيعود على القريض إهمالاً في تجويده ، وزيادة في هبوط منزلته .  
وذلك في قوله :

عَفْتُ الْقَرِيضَ فَلَا أَشْمُولَهُ أَبَدًا      حَتَّى لَقَدْ عَفْتُ أَنْ أُرْوِيهِ فِي الْكُتُبِ  
هَجَرْتُ نَظْمِي لَهُ لَا مِنْ مَهَانَتِهِ      لَكِنَّهَا خَيْفَةٌ مِنْ حِرْفَةِ الْأَدَبِ<sup>(٣)</sup>

ويتناهى إلى سمعنا صوت أبي عبد الله الحسين المنعوت بالبارع ، وهو يشكو  
الفاقة وانعدام الكرام فيقول - وقد عضه الحرمان بنابه - :

(١) نصره الثائر ٣٦٢

(٢) الغيث ١ / ٣٣

(٣) « ٧٩/٢

قد تَعَفَّفْتُ وَأَقْتَنَعْتُ بِتَدُّهِ      فِيعِ زَمَانِي وَقُلْتُ إِنِّي وَحْدِي  
لَا لَأَنِّي أَنْفَتُ مَعَ ذَا مَنِ الْكُدِّ      يَةِ أَيْنَ الْكِرَامِ حَتَّى أُكَدِّي « (١)

أما الغزي — وهو الفخور بشعره — فإنه يتعمق المشكلة نوعاً في تعليل هذا الانحطاط الفني فيقول :

أما القصيدةُ فَهِيَ عِلْقُ بَعْتِهِ      فِي يَوْمِ مَسْغَبَةٍ وَسُوقِ كَسَادِ  
مَا كَثَرَةُ الشُّعْرَاءِ إِلَّا عِلَّةٌ      مُشْتَقَّةٌ مِنْ قِلَّةِ النَّقَادِ  
كُلُّ يَهْدٍ بِالْقَرِيضِ وَسَيْفِهِ      وَالنَّصْلُ نَصْلِي وَالنَّجَادُ نَجَادِي

فالغزي هنا يُجْمَلُ عدداً من الأسباب ؛ أبرزها قوله بكثرة المدعين من النشطاء ، من خلا له الجو فاقتحم روضة الشعراء ؛ بعيداً عن عين النقد الحادة الساهرة ، التي أضحت قليلة كلية لا ترى ولا تجدي فتيلاً . مما جعل الغزي يهجر الشعر وقرضه معللاً لذلك بقوله :

قالوا هَجَرْتَ الشُّعْرَ قُلْتُ لَهُمْ نَعَمْ      بَابُ الدَّوَاعِي وَالْبَوَاعِثِ مُغْلَقُ  
خَلَّتِ الدِّيَارُ فَلَا كَرِيمٌ يُرْتَجَى      مِنْهُ النَّوَالُ وَلَا مَلِيحٌ يُعْشَقُ  
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُ لَا يُشْتَرَى      وَيُخَانُ فِيهِ مَعَ الْكَسَادِ وَيُسْرَقُ « (٢)

فالغزي كما يبدو يأبى الزيف ، ويتطلب لنفسه ما يثيرها حقاً لتنفعل وتجيش ، ثم تفيض على لسانه ترجمة صادقة حارة مؤثرة . ويكون ذلك بكرم يهز النفس

(١) الفبيث ٢ / ٢٣٣

(٢) « ٤٢/١

بعطائه ، أو مليح يجلب اللب بسحره ولكن هيات ، لقد خلت الديار حتى من هذا المليح . .

وهكذا وصل الشاعر إلى حال من العوز وانحدار المنزلة حدّاً لم يعد يفخر بهذا الشعر ، الذي لم يزد إلا هبوطاً . فبعد أن كانت الشاعرية فيما مضى . مدعاة للفخر والإرهاب . . غدونا نسمع أمثال قول مجاهد الدين الحياط يخاطب أبا الحسين الجزار فيقول :

أبا الحسينِ تَأَدَّبُ      ما الفخرُ بالشعرِ فخرُ  
وما تَبَلَّلتَ منه      بِقَطْرَةٍ وَهُوَ بِحَرُ  
وَإِنْ أَتَيْتَ بَيْتِ      وما لِبَيْتِكَ قَدْرُ  
لم تَأْتِ بِالْبَيْتِ إِلَّا      عَلَيْهِ لِلنَّاسِ حِكْرُ<sup>(١)</sup>

فهو يذكره في البيت الأول بما أضحى في عصرهم أمراً مقروفاً معروفاً لا خلاف عليه . كما يغمز من جانبه في البيت الأخير فيذكره بأن لا جديد في معانيه ، وكل ما يأتي به إنما سبقه إليه الكثيرون .

ويؤكد أبو الحسين الجزار ما أورده الحياط فيقول :

فإِنْ يَكُنْ أَحْمَدُ الْكِنْدِيُّ مَهْمَا      بِالْفَخْرِ يَوْمًا فَإِنِّي لَسْتُ أَتِيهِمْ  
فَاللَّحْمُ وَالْعَظْمُ وَالسَّكِّينُ تَعْرِفُنِي      وَالخَلْعُ وَالقَطْعُ وَالسَّاطورُ وَالوَضْمُ<sup>(٢)</sup>

فإذا هبطت منزلة الشعر إلى هذا الحد وتبعه بالتالي أصحابه ، فأى مهابة تبقى لهم ، وأي تكريم أو تشجيع ! لا جرم أنه ستلوا عليهم منازل الكتاب ، وتخلفهم وراءها يلهثون ويعبثون .

(١) نصره التائر ٣٣١

(٢) الغيث المسجم ٣٨٢/٢

## الفصل الثاني

موضوعاته الكبرى

### أ - السرقة الأدبية

إن القول بالسرقة قديم قدم الشعر العربي ، وبها أوسع أبواب نقدنا على الإطلاق ، شغل حديثها النقّاد وأهمّ الشعراء ، وما ذاك إلا لنزعة التقليد التي لازمت الشعر العربي منذ أقدم عصوره . ويبدو أن الاتهام بالسرقة لم يبرأ منه شاعر العصر الجاهلي بله شاعر العصور التالية .

فهذا حسان بن ثابت يقول في دفاع فخور :

لا أسرقُ الشعراءَ ما نطقوا      بل لا يُوافقُ شعْرُهُمُ شعْري  
إني أبى لي ذلكم حسي      ومقالةٌ كمقاطعِ الصخرِ<sup>(١)</sup>

والحق إن الاتهام بالسرقة كان مطعناً سهلاً وهدفاً قريباً لم ينج منه أحد من الشعراء ، إذ لا بد من أن يقع شاعر ما على معنى ؛ قال فيه غيره وهو لا يدري ، كما قد تتشابه عباراتها عن ذلك المعنى .

والصفدي ينقل إلينا أمثلة على هذا من العصر الجاهلي ، الذي عرف بأصالة

---

(١) ديوان حسان - البرقوقي ١٧٤

شعرائه واعتزازهم بشعرهم ، ولكنه الاتفاق ليس إلا ، حتى إن التشابه عند بعضهم كان كاملاً تقريباً . من ذلك :

« قول امرئ القيس :

وقوفاً بها صَحِيَّ عَلِيٍّ مَطِيئِهِمْ      يَقُولُونَ لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَمَّلِ

« وقول طرفة بن العبد بعده :

وقوفاً بها صَحِيَّ عَلِيٍّ مَطِيئِهِمْ      يَقُولُونَ لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَدِّدِ

« ومن ذلك أيضاً قول النابغة :

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطِ رَاهِبٍ      عَبْدَ إِلَهِ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدِ  
لَرَنَا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا      وَلِحَالَهُ رَشْدًا وَإِنْ لَمْ يَرُشِدِ

« وقول ربعة بن مقدم الضبي :

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطِ رَاهِبٍ      عَبْدَ إِلَهِ صَرُورَةٍ مُتَبَتَّلِ  
لَرَنَا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا      وَلَهَمَّ مِنْ تَامُورِهِ يَتَنَزَّلُ «<sup>١</sup>

وعندما ندور مع الزمن لنصل إلى أبي نواس ، نرى أنه قد وقع له من الاتفاق ما هو شبيه بما ذكر . يقول الأفشين العجلي :

جَرَيْتُ مَعَ الْهُوَى طَلْقَ الْعَقِيقِ      وَهَانَ عَلِيٌّ مَأْثُورُ الْفُسُوقِ  
وَجَدْتُ أَلَذَّ عَارِيَةِ اللَّيَالِي      قِرَانَ النَّغْمِ بِالْوَتْرِ الْخَفُوقِ

---

(١) الغيث ١ / ١٥ - ١٦



وَمُسْمِعَةٍ مَتَى مَا شِئْتُ غَنَّتْ  
مَتَى نَزَلَ الْأَجْبَةُ بِالْعَقِيقِ  
تَمَتَّعَ مِنْ شَبَابٍ لَيْسَ يَبْقَى  
وَصَلَ بِعُرَى الصَّبُوحِ عُرَى الْغُبُوقِ

« ويقول أبو نواس :

جَرَيْتُ مَعَ الْهَوَى طَلَقَ الْجُمُوحِ  
وَجَدْتُ أَلَدَّ عَارِيَةَ اللَّيَالِي  
وَمُسْمِعَةٍ مَتَى مَا شِئْتُ غَنَّتْ  
وَهَانَ عَلَيَّ مَا ثُورُ الْقَبِيحِ  
تَمَتَّعَ مِنْ شَبَابٍ لَيْسَ يَبْقَى  
قِرَانَ النَّعْمِ بِالْوَتْرِ الْفَصِيحِ  
مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طُلُوحِ  
وَصَلَ بِعُرَى الْغُبُوقِ عُرَى الصَّبُوحِ»<sup>(١)</sup>

ينقل إلينا الصفي هذه النماذج من الاتفاقات بين شعراء لا يصح في أمثالهم اتهام بالسرقة؛ ليثبت أن اتهام الشعراء بالسرقة لا يستند إلى أساس سليم. ليطالعنا بعد ذلك برأيه في هذا الموضوع الكبير.

ويمكن تلخيصه في ثلاث نقاط :

أولها : إن المعنى لمن يجيد أداءه ويحسن إخراجته والتعبير عنه . وذلك في رده على ابن الأثير الذي قال : « في النوع الثلاثين من السرقات الشعرية بعدما أورد بيت ابن الحياط :

أَغَارُ إِذَا آنَسْتُ فِي الْحَيِّ أَنَّهُ  
حِذَاراً عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ لِحُبِّهِ  
« وبيت عمارة :

وَهَلْ دَرَى الْبَيْتُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ  
مَا سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ

(١) الغيث المسجم ١٥/١ - ١٦

« إن هذين البيتين مسروقان من قول المتنبي :

لو قُلتَ للدِّنفِ المشوقِ فدَيْتُهُ مما به لأغرته بِفدائه

« ومن قول أبي تمام يمدح بعض الخلفاء وقد حجّ :

يا مَنْ رأى حَرَمًا يَسْعَى إلى حَرَمِ طُوبَى لِمُسْتَلِمٍ يَأْتِي وَمُلْتَزِمِ

« وأخذ في الشنّاع على أهل الشام ومصر في كونهم خفي عليهم مثل هذا ، وزاد في التعجب .

أقول : « إن سبب خفاء السرقة في هذين البيتين وغيرهما ، أن الأصل يكون ركيكاً ، غير مستعمل ولا دائر على الألسنة في المكاتبات والمحاورات والأمثال . فيأتي بعض الشعراء إلى ذلك المعنى الحامل ويبرزه في صورة حسنة ، ويسكبه في قالب أرسق والطف من الأول ، فيحاو ويعذب ويتداوله الناس ، ويعود الأول نسياً منسياً كأن لم يكن ، كما إذا بدا النجم ثم يبدو البدر بعده ؛ فلا يشتغل البصر بالنجم ويدع البدر .

« وما أحسن قول أبي تمام :

أَعِنْدَكَ الشَّمْسُ تُزْهِى فِي مَحَاسِنِهَا وَأَنْتَ مُنْشَغِلُ الْأَحْشَاءِ بِالْقَمَرِ

« ولا يلتفت في الثاني إلا إلى تحسنه من غير بحث عن أصله ، وهل هو مسروق أو مبتدع .

ويستمر الصفدي في قوله ، مبيناً أن ما يبذله ابن الأثير وغيره ، من جهد في التنقيب عن السابق إلى هذا المعنى - رغم تحسن البيت الجديد - جهد عقيم ، وعمل لا ضرورة له إذ يقول :

« علي أن الأدب - لو أنه ماعسى أن يكون من النقل والاطلاع -

ليس في إمكانه استخراج كل معنى يمر به من غير روية ولا تتبع لذلك ، خصوصاً فيما عذب وساغ ، وبرز في صورة غير صورته الأولى .

« ولا شك أن قول ابن الحياط أعذب من قول المتنبي . ولهذا اشتهر . وكذا قول عمارة أحسن وأرق من قول أبي تمام ، ولهذا ساغ واشتهر واستعمل مثلاً ؛ على تأخر زمانه وتقدم زمان أبي تمام . خصوصاً عجز بيت عمارة فإنه ذاع وشاع ، وملاً الأفواه والأسماع » .

ولا يتوقف الصفدي هنا ؛ قبل أن يبرهن لابن الأثير على سعة اطلاعه وغزارة حفظه ، كما يكشف له في الوقت نفسه عن خطئه وتسرعه إذ يقول : « على أن المتنبي في الأصل أخذ المعنى من العباس بن الأحنف حيث يقول :

لَمْ أَلْقَ ذَا شَجَنِ يَبُوحُ بِجُبِّهِ إِلَّا حَسِبْتُكَ ذَلِكَ الْمَحْبُوبَا  
حَذْرًا عَلَيْكَ وَإِنِّي بكَ وَاثِقٌ أَنْ لَا يَنَالَ سِوَايَ مِنْكَ نَصِيبًا<sup>(١)</sup>

وثاني هذه المبادئ عند الصفدي هو أن لا سرقة في المعاني المألوفة والعبارات الشائعة . فيقول بعد أن يذكر بيت الطغرائي :

وَذِي شِطَاطٍ كَصَدْرِ الرُّمَحِ مُعْتَقِلٍ بِمِثْلِهِ غَيْرِ هَيَّابٍ وَلَا وَكِلٍ  
« وصد بيت الطغرائي هو بعينه صدر بيت الحريري في مقامه الرابعة والأربعين من قصيدته البائية ، لأن الحريري قال ؛

وَذِي شِطَاطٍ كَصَدْرِ الرُّمَحِ قَامَتُهُ صَادَفْتُهُ بِمِثْلِهِ يَشْكُو مِنَ الْجَدْبِ  
« ومثل هذا لا يعد سرقة . لأن المعنى ليس ببديع ، ولا لفظه بفضيع ، ولا الطغرائي بعاجز عن الإتيان بمثله ، بل جرى على لسانه ونسي أن هذا لغيره ، لعدم الاحتفال بأمره إذ هو ليس بأمر كبير .

(١) نصره الثائر ٣٧٨

« وهذا كثير الوقوع للناس لا يكاد يسلم الفحول منه . ولهذا قال أشياخ الأدب : ما حفظ المقامات أحد ونسبها إلا نظم وثر » (١) .

وثالث هذه المبادئ أن لا عيب في أخذ المعاني ؛ بل العيب في ادعائها . فبعد أن ذكر ابن الأثير شيئاً من إنشائه في ذم الشيب قال : « وبعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومي وهو قوله :

رَأَيْتُ خَضَابَ الْمَرْءِ بَعْدَ مَشِيْبِهِ حِدَاداً عَلَى شَرِّخِ الشَّيْبَةِ يُلْبَسُ

( غير أن في هذا الفصل معاني كثيرة لا توجد في مكان آخر ) .

فردّ الصفدي بقوله : « قد ادّعى أنه ابتكر ما في هذا الفصل من المعاني ، وأنا أذكر أبياتاً على أخذ كلامه منها . قال أبو الطيب . . .

وبدأ يرد معاني ابن الأثير إلى مظانها الأولى من شعر الشعراء . وما أكثر ما يتروّد بينها مثل هذا الموقف في أثناء الكتاب ؛ كلما عاد ابن الأثير إلى الزهو والادعاء . ويدعوننا هذا إلى استعراض سريع لمواقف نقاد الشعر العربي عبر العصور من موضوع السرقة ، وما قدموه فيه من نظرات وحدود ، ليكون تقويمنا لما جاء به الصفدي على ضوء ذلك دقيقاً محمداً .

يقول الآمدي : « فكان ينبغي ألا أذكر السرقات فيما أخرجته من مساويء هذين الشاعرين ، لأنني قدمت القول في أن من أدركته من أهل العلم بالشعر ؛ لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساويء الشعراء ، وخاصة المتأخرين . . . إذ كان هذا باباً ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر (٢) » .

« وإنما السرقة يكون في البديع الذي ليس للناس فيه اشتراك (٣) . . . لأن

(٢) الغيث ١ / ١٥٨

(٢) الموازنة ٢٤

(٣) الموازنة ٣٢

المعنى اللطيف الذي لا تحسن صياغته ، مثل الطراز الجيد على الثوب الخلق ، أو نقت العبير على خد الجارية القبيحة الوجه . « وإن حسن التأليف وبراعة اللفظ ؛ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسناً ورونقاً ، حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن ، وزيادة لم تعهد (١) » .

فخلاصة الرأي عند الآمدي : إن لا سرقة في المعاني ، وإنما السرقة فيما يكون من إبداع الشاعر وحده ، في الصياغة والأداء الفني .

أما القاضي علي عبد العزيز الجرجاني ؛ فله في أمر السرقة رأي أعجب أدباء عصر الصفدي ، فأخذوا به راضين مطمئنين ، واحتجوا به عند كل مرة يشار بها إلى قصورهم . وهو قوله :

« ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا والعصر الذي بعدنا ؛ أقرب فيه إلى المعذرة وأبعد عن المذمة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأثر على معظمها ، وإنما يحصل على بقايا : إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها ، أو لبعدها مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها .

« ومتى أجهد أحدنا نفسه ، وأعمل فكره ، وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً ، ونظم بيت يحسبه فرداً مختراعاً ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يحظ أن يجده بعينه ، أو يجد له مثلاً يغض من حسنه .

« ولهذا السبب أحظر على نفسي - ولا أرى لغيري - بت الحكم على شاعر بالسرقة ... وإنما أقول : قال فلان كذا وقد سبقه إليه فلان فقال كذا (٢) » .

فلا سرقة عند الجرجاني ، والمعاني ملك للجميع وإنما يتفاضلون لا في السابق إليها ، بل في حسن إخراجها والتعبير عنها . وكأننا فتح الجرجاني باب الأخذ على

---

(١) الموازنة ١٧٣

(٢) الوساطة ١٧٠

مصراعيه في شقي كلامه : في اعتذاره عن المتأخرين بنفاد المعاني ، ثم في تهوينه من شأن سبق الى المعنى .

وهكذا تلاقى الجرجاني مع الآمدي ، في عدم اعتبار السرقة للمعاني شيئاً يحط من قدر الشاعر أو يؤاخذ عليه .

وعندما نصل في استعراضنا هذا إلى أبي هلال العسكري ؛ نراه يستقي من رأي الآمدي وكأنه يسير الى جواره وفي ظله ، مع اختلاف لطيف في روح التعبير إذ يقول :

« إن المعاني مشتركة بين العقلاء ، وربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي ، وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ ورفضها وتأليفها ونظمها . وقد يقع متأخر على معنى سبقه إليه متقدم من غير أن يلم به ، ولكن كما وقع للأول وقع للآخر (١) . »

وهكذا ينضم العسكري الى سالفه . فلا سرقة في المعاني ؛ وإنما في أدائها بطريقة تخصص المعنى العام في شاعر بعينه ، فيكون هذا الثوب الفني هو ملك لهذا الشاعر وفيه تكون السرقة .

ونختم جولتنا بالتعريب على ابن الأثير لتعرف الى رأيه في مشكلة السرقات الشعرية فنسمعه يقول :

واعلم أن الفائدة من هذا النوع ؛ أنك تعلم أين تضع يدك في أخذ المعاني ، إذ لا يستغني الآخر عن الاستعارة من الأول . لكن لا ينبغي لك أن تعجل في سبك اللفظ على المعنى المرسوم ، فتنادي على نفسك بالسرقة ، فكثيراً ما رأينا من عجل في ذلك فعثر ، وتعاطى فيه البديهة فعقر .

---

(١) الصناعتين ١٩٦

والأصل المعتمد عليه في هذا الباب التورية والإخفاء ، بحيث تكون أخفى من سفاذ الغراب ، وأظرف من عنقاء مغرب في الإغراب ، (١) .

فإن الأثير لا يكتفي بالتسامح في أمر سرقة المعاني كأسلافه ، بل تجاوز ذلك إلى أن يعلم الشعراء طريق السرقة الخفية البارة فلا تمكن معرفتها . وإن دلّ هذا على شيء فعلى ما وصلت إليه أذهان الشعراء في عصره من الجمود ، ونفوسهم من العقم ، حتى غَدُوا لا يُحسنون سرقة المعنى بله ابتكاره والإبداع فيه .

نخرج من هذا إلى أن الصفدي فيما وضعه للسرقة لم يأت بجديد ، فكلمهم فتح باب المعاني للجميع فلا سرقة في هذا الميدان ، بل السرقة في أدائه لهذا المعنى والتعبير عنه تعبيراً خاصاً متميزاً . ولكن بقي للصفدي حسن تعبيره عن هذه الأفكار المتوارثة ، بروح الأديب لا بروح عصره ؛ إذ لم يجعلها قواعد تعليمية سابقة منقطعة ، بل أوصلها إلينا - كعهدنا به - مقرونة بالنصوص الأدبية ، فنستشفها معه من بين هذه النصوص ، لحسن إيرادها ومجاورتها ، إذ تثب النفس إلى المقارنة بينها .

★ ★ ★



## المعارضات

إن هذه الكلمة لمن أكثر الكلمات التي تطالع الساري في أدب هذه العصور ،  
فقلما مر بعلم ذي شهرة في دنيا الأدب ؛ إلا وقرأ فيما يقرأه عنه أنه عارض  
فلاناً من الشعراء في قصيدة له ، وفلاناً من الكتاب فيما دبَّجه ووشاه . وحين  
أسير إلى هذا هذا الأديب بعبارة علم ذي شهرة ؛ فأنا أعني ما أقول . لأن  
ظواهر عدة من أشباه المعارضة ساد انتشارها في ذلك العصر ؛ من أمثال التشطير  
والتخميس وغيرها . وهذه الأمور لا تجري إلا على ما اشتهر وذاع ، وملاً الأفواه  
والأسماع كما يقولون .

وتعبير المعارضات من أسمى ما كان يقدم عليه أدباء هذا العصر ، فهي أدلُّ  
على القدرة والتمكن وتوفير الموهبة من التشطير أو التخميس .

فإذا أقدم الأدباء على المعارضات ، فغالباً ما يتصدى العلماء والفضلاء<sup>(١)</sup>  
للتشطير أو التخميس ، لأن الناظم في هذا الأخير لا يسير وحده معتمداً على موهبته  
وقدرته ؛ بل يبقى متكئاً بشطوره على أوامك الشعراء أصحاب المشطرات  
أو الخمسات .

أما في المعارضات فالأمر مختلف كلية ، فالشاعر هنا وحده ينافس ويطاول ،  
ويتحدى ويصاول ، يحاول أن يأتي بما يسمو به على الأثر الذي يعارضه ، ليثبت  
أنه على تأخر زمانه قادر على أن يقدم مثلاً قدّم ذلك بما رفعتموه به ؛ بل وأن  
ينسي ذكره لو استطاع . ولكن الحقيقة تبقى على خلاف ما ظن هؤلاء وما أمثلوا ،  
لأن عملية المعارضة في حد ذاتها ذات دلالات ليست في صالح المتصددين لها . فنذ

---

(١) نصره الناشر ١٢٢

اللحظة التي يصرح فيها الأديب بنيته في المعارضة نقول له ما يلي :

١ - إن مجرد التفكير في معارضة شاعر ما ؛ إنما هو اعتراف ضمني بتفوق ذلك الشاعر وسموه في فنه ، حتى إنك لتتمنى أن تصل إليه فتنادي على الناس ليروا وجودك إلى جانبه .

٢ - إن همك في هذه الحالة ليس الارتقاء بقصيدك إلى المثل الفني الأعلى ؛ الذي لا يوجد عادة إلا في تطلع الشاعر إليه يتمله بعين خياله ، بل إن مثلك الأعلى غداً محصوراً في تلك القصيدة التي ستجعلها هدفك البعيد وغايتك المنشودة ، ومهما سموت ، بالموهبة وحالفتك ظروفك ؛ فستقع دون ذلك الأثر لا محالة ، ويبقى ما أتيت به متدنياً ، لأن قارئك نصك لا يقيس ذلك إلى ما قمت بمعارضته ؛ وإنما يقيسك إلى ما يجب أن يكون عليه الأداء الفني الرفيع .

٣ - إذا كان ما ينتظر من الأدب عامة ، ومن الشعر على وجه الخصوص ؛ إثارة فكر ، وإذكاء نفس ، وإطلاق خيال ، فإنك لن تستطيع أن تحقق ذلك فنياً ، لأنك تتقمص فكرة لم تعيش بك ، وتزيف شعوراً لم يخالطك ، وتكلف خيلاً رأيت عند غيرك .

٤ - وأخيراً فهما بلغت من شأو النجاح في هذا ؛ فإنك واجد من يقول : لقد عبر ذلك عفواً فكان منه تخلق وهبوط ، أما أنت فجئت تحاكي صعوده وتتجنب هبوطه ، وأنت جالس في بيتك تهدم وتبني ، تخط وتمسح . مع أنك لن تبلغ ذلك الشأو المنشود .

والآثار الأدبية الرائعة ؛ إنما هي نتاج حالة انفعالية بالغة التوتر ، يخلق بها الخيال الملون بها على أجنحته ، فتأتي صوراً متباعدة المصادر ، متحدة التأثير ، حارة النفس ؛ لأن مصدرها النفس بجموعها .

أما أنت فقد صدر قولك عن ذهنك ولسانك ، فقد يبهّر العيون بما يتلأمع  
حيالها ، وينبه الأذن بما يصدره من أصوات رتيبة حولها ، ولكن هذا التأثير لن  
يجاوز سطح الحواس بحال .

وقد غفل هؤلاء أن قدرتهم هذه ؛ لو بذلوها في مناجاة ذات نفوسهم  
فاستنطقوها - وهي لا بد ناطقة - وخرجوا علينا بصورة عنها ، إذاً لعشنا معهم  
بقلوبنا ، ومنحناهم خواطرننا وانفعالاتنا ، من خلال إمتاع حواسنا الفنية بصورهم  
الصادقة النابضة .

يقول الصفدي :

« أخبرني الشيخ الإمام الأديب الكامل القاضي شهاب الدين أبو الثناء محمود  
قال : ما من شاعر في الغالب إلا وقد عارض الشريف الرضي في قصيدته التي أولها :

يا ظبيّة ألبانٍ ترعى في خمائله  
ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

وما منهم من رزق سعادته .

ويعقب الصفدي بقوله : « ولي أنا في معارضة هذه القصيدة ، وأودعته الجزء  
الأول من التذكرة التي جمعتها »<sup>(١)</sup> .

فهذه قصيدة الشريف الرضي تطالعنا شمسها على الدوام ، فإن المعارضات التي  
لا تحصى ومنها كذلك وديعة التذكرة !

كما يخبرنا الصفدي بأن « ابن الأثير كتب كتاباً عن الملك الناصر إلى ديوان  
الخليفة ، في معارضة كتاب كتبه القاضي الفاضل في فتح القدس » . ويعقب  
الصفدي بقوله : « إن ابن الأثير - رحمه الله - لما أنشأ هذا الكتاب ، قعد في  
بيته وتأنى وتأنى ، ونقى ونقى ، وكان في ذلك كالحريري في مقاماته ، فإنه

---

(١) الغيث ١/١١٧ - ١١٨

عملها في بيته بمسودات ومراجعات واختيار ومطالعات والفاضل - رحمه الله تعالى - أصدر ذلك الكتاب وهو ابن يومه ، بل ابن ساعته ، وجهزه وخرج عن يده على ما فتح به ذلك الوقت عليه « (١) .

وابن الأثير شغل نفسه وقدرته في معارضة الفاضل ، وهو يشير إلى هذا في ( المثل السائر ) حتى إنه لم يدع للفاضل كتاباً ذكر فيه بالثناء إلا عارضه فيه « (٢) .

وميدان الرسائل بما قد يستطيع التسالي أن يسمو على سابقه لو سعى إلى معارضته « (٣) . ولكن يبقى التقليد تخلفاً ، واقتفاء الأثر اعترافاً بالفضل . ويبقى ما ينتج عن ذلك جهداً غير مشكور ، لأنه لم يقدم للتراث الأدبي سوى نسخة ثانية لا أصالة فيها .

وحتى القاضي الفاضل الذي ملأ عصره شهرة حتى غدا رائد طريقة في الكتابة ؛ كان يشعر في قرارة نفسه بأنه في القرن السادس . وخبر محاولته معارضة الحريري في مقاماته معروف ، وقد ورد في ألفاف هذه الدراسة « (٤) ، ولكن الفاضل دل على تفرد في الكتابة ، فبعد أن سار في معارضة المقامات شوطاً لا بأس به ؛ شعر بالهوان وهو يسير في ظل الحريري ، ورأى أن السير خلفه يبقى سيراً خلفه مها كان فيه قوياً قادراً . . فقطع ما كان عمله من المقامات ولم يظهر » .

وهكذا تدل العصور على نفسها ، ويرفع الشعراء لاقتات أقدارهم بأنفسهم ، وكانت لافتة المعارضات في عصر الصفدي ؛ من أكبر هذه اللافتات حجماً ، وأكثرها من بينها عدداً .

---

(١) نصره الثائر ٣٠٣

(٢) المصدر السابق ٦٢

(٣) المصدر السابق ٣٠٧

(٤) انظر ص ٢٤٨ وانظر نصره الثائر ٩٠

## هل المنظوم

ويشكل في العصر ظاهرة من أبرز الظواهر الأدبية الشاملة ، حتى لقد غدا هو الوسيلة ، والغاية ، لتكوين الأديب .

ولم يكن هذا الفن وليد عصر الصفدي ، فقد جاء في ترجمة الآمدي الناقد أن من كتبه ( كتاب نثر المنظوم ) (١) . ولكن هذا العصر تبناه وتعلق به ، ووجد فيه طوق النجاة ، فأقبل عليه إقبال الملهوف ، وشرب منه شرب المهيم ، حتى استحق أن يقترن هذا الفن به ، وينسب عند الحجاج إليه .

وليس من العسير التعرف إلى سبب تعلقهم بجل المنظوم هذا ، وقد رأينا إيمانهم بتفوق الأقدمين ، واعترافهم بالعجز حيالهم ، واعتقادهم بأن أولئك قد استنفدوا معاني الكون طراً فلم يُبقوا منها على شيء يذكر ، فما عليهم إلا أن يلتفتوا بجمعهم إلى الأسلاف يمتحون من صهاريجهم ، فينهلوا ويعلموا ؛ لتقاس قدرة الأديب منهم بقدرته على استيعاب أكبر قدر ممكن من معاني أولئك ، حتى تمتلئ أوعيته ، وتفيض بالمعاني حافظته ، فإذا تكلم في أمر تدفقت المعاني على لسانه ثرة غزيرة . كما تقاس قدرته في إيراد أكبر قدر من هذه المعاني في النص الواحد .

حتى غدا كلام أكثرهم تركيباً عجيباً من معاني شتى قد لا تسعف المتشبه منهم موهبته ليُحسن التأليف بينها ، وصهرها في الفكرة الواحدة أو الشعور المشترك . فيكون من ذلك أشنات لا يربط بينها سوى أنها تنتمي جميعاً إلى المنظوم .

ولم يكتفوا بأن جعلوا من الشعر مورداً يُغني به الأدباء نفوسهم وأفكارهم ، بل لقد جعل بعضهم من هذا المنظوم مدرسة متعددة المراحل لتخريج الكتاب ،

---

(١) معجم الأدباء ٨/٨٥

فابتكروا لذلك السبل ووضعوا للوصول إليها القواعد والأصول .

يقول ابن الأثير : « من أحب أن يكون كاتباً أو كان عنده طبع مجيب ، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد ولا يقنع بالقليل من ذلك ، ثم يأخذ في نشر الشعر من محفوظاته ، وطريقه أن يتدىء فيأخذ قصيداً من القصائد فينثره بيتاً بيتاً على التوالي .

« ولا يستكف في الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها ، فإنه لا يستطيع إلا ذلك ، وإذا مرنت نفسه وتدرّب خاطره ؛ ارتفع عن هذه الدرجة ، وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ، ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضرباً من العبارات المختلفة ، وحينئذ يحصل لخاطره - مباشرة المعاني - لقاح ؛ فيستنتج منها معاني غير تلك المعاني ، وسبيله أن يكثر الإدمان ليلاً ونهاراً ، ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى يصير له ملكة .

« فإذا كتب كتاباً أو خطب خطبة تدفقت المعاني في أثناء كلامه ، وجاءت ألفاظه معسولة لا مغسولة ، وكان عليها جدة تكاد ترقص رقصاً . وهذا شيء خبرته بالتجربة ، ولا ينبئك مثل خبير<sup>(١)</sup> .

بهذا ؛ يريد ابن الأثير أن يجعل أفكار الكاتب كلها مجتلية من خارج نفسه ، فإذا أراد التعبير عما فيها ؛ انبالت عليه أقوال الآخرين ومعانيهم ، فجاء تعبيره هيكلاً متجاوزاً الأجزاء ، وشكلاً مفككاً لا حرارة للفكرة أو التجربة فيه .

ولو شئنا أن نتعرف من هؤلاء سر إقبالهم على المنظوم يجلثونه ، فلا يعتمدون إلى النثر الرفيع يجتدونه ، ويتوسمون خطاه يسر وسهولة ؛ لسارع ابن الأثير إلى الإجابة بقوله :

« إن الأشعار أكثر ، والمعاني فيها أغزر . وسبب ذلك أن العرب الذين

---

(١) المثل السائر ١/١٣٦

هم أصل الفصاحة ؛ نجل كلامهم شعر ، ولا نجد الكلام المنثور في كلامهم إلا يسيراً . ولو كثر فإنه لم يُنقل عنهم بل المنقول عنهم هو الشعر ، فأودعوا أشعارهم كل المعاني . كما قال الله تعالى : « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » :

« ثم جاء الطراز الأول من المخضرمين فلم يكن لهم إلا الشعر ، ثم استمر الحال على ذلك فكان الشعر هو الأكثر ، والكلام المنثور بالنسبة إليه قطرة من بحر ، ولهذا صارت المعاني كلها مودعة في الأشعار ، وحيث كانت بهذه الصورة ؛ فكان حتى على حفظها ، واستعمال معانيها في الخطب والمكاتبات لهذا السبب<sup>(١)</sup> .

ولم يدع ابن الأثير ينابيع المنظوم يردّها الأدباء لإغناء نفوسهم وإيقاظ مشاعرهم وتغذية ملكاتهم وريّ مواهبهم ؛ بل فتح إليها السبل ، ومهد الطرق ، ووضع اللافعات ، وراح ينادي بالناس ويقودهم إليها ، يعلمّ المبتدئين طرق الأخذ منها جرعات ، تتدرج في مراحل نظمها لهم ، ووزعهم عليها ، حتى أيقنوا أن لا حياة لألسنتهم وأقلامهم إلا بورود هذا المنظوم ، منه يأخذون المعاني ، ويلتقطون العبارات ، ويستمدون مادة القول ، حتى غدت نفوسهم بعيدة عن إنشائهم ، ومادة أفكارهم من صنع غيرهم .

ولنقترب من حلقات المعلم ابن الأثير لنسمعه يقول :

« حل الأبيات الشعرية يتقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول منها وهو أدناها مرتبة ، أن يأخذ الناثر بيتاً من الشعر ، فينثره بلفظه من غير زيادة ، وهذا عيب فاحش ، ومثاله كمن أخذ عقداً قد أتقن نظمه ، وأحسن تأليفه ، فأوهاه وبدّده ، وكان يقوم عنده في ذلك أن لو نقله عن كونه عقداً إلى صورة أخرى مثله أو أحسن منه ؛ وأيضاً فإنه إذا نثر الشعر بلفظه ، كان

---

(١) المثل السائر ١٣٧



صاحبه مشهور السرقة فيقال : هذا شعر فلان بعينه ، لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء .

« وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين فجاء مستهجنًا لا مستحسنًا . كقوله في بعض أبيات الحماسة :

وَأَلِدُّ ذِي حَقِّ عَلِيٍّ كَأَنَّمَا      تَغْلِي عَدَاوَةَ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ  
أَرْجِيئْتُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ      وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَاطِرِ مِنْ عَلِ

« فقال في ثر هذين البيتين : فكلم لقي ألدّ ذا حنق ، كأنه ينظر إلى الكواكب من عل ، وتغلي عداوة صدره في مرجل . فكواه فوق ناظريه وأكبته لفمه ويديه . فلم يزد هذا الناثر على أن أزال روثق الوزن وطلاوة النظم لا غير .

« ومن هذا القسم ضرب محمود لا عيب فيه ، وهو أن يكون البيت من الشعر قد تضمن شيئاً لا يمكن تغيير لفظه ، فحينئذ يُعند نثره إذا أتى بذلك اللفظ . ومثاله قول الشاعر في أول الحماسة :

لو كنتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِيحْ إِبِلِي      بَنُو اللَّقِيْطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا  
وقد نثرتُ ذلكَ فقلتُ ( لستُ بمن تسبيح إبله بنو اللقيطة ، ولا الذي إذا همَّ  
بأمر كانت الآمال إليه وسيطة ، ولكني أحمل الهمل ، وأقرب الأمل ، وأقول  
سبق السيف العذل ) .

« فذكر بني اللقيطة هنا لا بدمنه على حسب ما ذكره الشاعر ، وكذلك الأمثال السائرة فإنه لا بد من ذكرها على ما جاءت في الشعر » .

وبهذا ينتهي ابن الأثير من حديثه إلى تلامذة المرحلة الأولى ، كما لم ينس أن يعرض عليهم نموذجاً من عمل المقصّرين منهم ، ثم يقدم لهم نموذجاً من عنده لينصرف إلى من صنّفهم في المرحلة الثانية فيقول :

« وأما القسم الثاني - وهو وسط بين الأول والثالث في المرتبة - فهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ويعزف عن البعض بألفاظ آخر ، وهناك تظهر الصنعة في المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة ، فإنه إذا أخذ لفظاً لشاعرٍ مجيدٍ قد نقحه و صححه ، فقرنه بما لا يلائمه ، كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة . ولا خفاء بما في ذلك من الانتصاب للقدح والاستهداف للطعن .

والطريق المسلوك إلى هذا القسم ؛ أن تأخذ بعض بيت من الأبيات الشعرية هو أحسن ما فيه ، ثم تماثله . وسأورد هاهنا مثلاً واحداً ليكون قدوة للمتكلم فأقول :

قد ورد هذا البيت من شعر أبي تمام في وصف قصيدة له :

حَدَاءٌ تَمَلُّ كُلَّ أُذُنٍ حِكْمَةٌ      وَبَلَاغَةٌ وَتُدْرِ كُلَّ وَرِيدٍ

فقوله ( تملأ كل أذن حكمة ) من الكلام الحسن وهو أحسن ما في البيت . فإذا أردت أن تنثر هذا المعنى فلا بد من استعمال لفظه بعينه ، لأنه في الغاية القصوى من الفصاحة والبلاغة . فعليك حينئذ أن تؤاخيه بمثله وهذا عسر جداً ، وهو عندي أصعب من أن تنثر الشعر بغير لفظه ، لأنه مسلك مضيق ، لما فيه من التعرض للمماثلة ما هو في غاية الحسن والجودة . وأما نثر الشعر بغير لفظه فذلك يتصرف فيه نثره على حسب ما يراه ولا يكون مقيداً فيه بمثال يضطر إلى مؤاخاته .

« وقد نثرت هذه الكلمات المشار إليها وأتيت بها من جملة كتاب قلت : وكلامي قد عُرف بين الناس واشتهر ، وفاق مسير الشمس والقمر ، وإذا عُرف الكلام صارت المعرفة له علامة ، وأمن من سرقة إذ لو سرق لدلت عليه الوسامة . ومن خصائص صفاته أن يملأ كل أذن حكماً ، ويجعل فصاحة كلا لسان عجمه ، وإذا جرت نغماته في الأفهام قالت أهذه بنت فكرة أم بنت كرمه . .

فانظر كيف فعلت في هذا الموضع . فإني لما أخذت تلك الكلمات من

البيت الشعري التزمت بأن أواخيا بما هو مثلها أو أحسن منها ، فجئت بهذا الفصل كما تراه . وكذلك ينبغي أن يفعل فيما هذا سبيله .

ويخف ابن الأثير ليوافي المرحلة الثالثة ويقول :

« وأما القسم الثالث وهو أعلى من القسمين الأولين ، فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه ، ويتبين حذف الصانع في صياغته ، ويُعلم مقدار تصرفه في صناعته ، فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية وإلا أحسن التصرف وأتقن التأليف ، ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأول .

« واعلم أن من أبيات الشعر ما يتسع المجال لثأره فيورده بضروب من العبارات ، وذلك عندي شبيه بالمسائل السائلة في الحساب ؛ التي يجاب عنها بعدة من الأجوبة . ومن الأبيات ما يضيق فيه المجال ، حتى يكاد الماهر في هذه الصناعة

ألا يخرج عن ذلك اللفظ ، وإنما يكون هذا لعدم النظر .

« فأما ما يتسع المجال في ثأره فكقول أبي الطيب المتنبي :

إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجاً بِدُمُوعِهِ      مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجاً بِدِمَائِهِ

أخذت هذا المعنى فنثرته : فمن قولي : القتل بسيف العيون كالقتل بسيف المنون ، غير أن ذلك لا يجرد من غمده ، ولا يقاد صاحبه بعمده . فزدت على المعنى الذي تضمنه البيت وغيرت اللفظ . ومن ذلك وجه آخر وهو : دمع المحب ودم القتل متفقان في التشبيه والتمثيل ، ولا تجد بينهما بوناً ، إلا أنهما يختلفان لونا . وهذا أحسن من الأول .

« وأما ما يضيق فيه المجال فيعسر على الناثر تبديل ألفاظه ؛ فكقول أبي تمام :

تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْراً فَمَا أَتَى      لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُندُسٍ خُضْرُ

وقول أبي الطيب المتنبي :

وكان بها مثل الجنون فأصبحتُ      ومن جثث القتلى عليها تائمٌ

« وأمثال هذا لا تأتي إلا قليلاً، وسببه أن المعنى ينحصر في مقصد من المقاصد حتى لا يكاد يأتي قديماً كهذين البيتين . ألا ترى أن أبا تمام قصد المؤاخاة في ذكر لوني الثياب من الأحمر والأخضر ، وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذي أراده : من لون ثياب القتلى وثياب الجنة ، فإذا فكّ نظم هذا البيت وأريد صوغه بغير لفظه ، لا يمكن ذلك . وبيت أبي الطيب جار هذا المجرى .

« وقد نثرت هذين البيتين : أما بيت أبي تمام فإني قلت في نثره : لم تكسه المنايا نسج شفارها ، حتى كسته الجنة نسج شعارها ، فبدل أحمر ثوبه بأخضره ، وكأس حمامه بكأس كوثره . وهذا من الحسن على غاية يكون كمد حسودها من جملة شهودها .

« وأما بيت أبي الطيب المتنبي ، فإني قلت في نثره : سرى إلى حصن كذا مستعيداً منه سيئةً نزعها العدو اختلاصاً ، وأخذها مخادعة لا افتراساً ، فما أنزلها حتى استقادها ، ولا أنزلها حتى استعادها ، وكأنا بها جنون فبعث لها من عزائه عزائم ، وعلق عليها من رؤوس القتلى تائم . وفي هذا من الحسن ما لا يخفاء به ، فمن شاء أن ينثر شعراً فلينثر هكذا وإلا فليترك (١) .

وهكذا ينتهي ابن الأثير من إلقاء هذا الدرس الطويل ، جاءلاً من حل المنظوم علماً ذا قواعد وأصول ، ومن الشعر أروقة للتعليم ، ولم يعد دوحة يستظلها الصادي مستروحاً نسائه ، فيتذوق من روعة التصوير ما يتمتع نفسه ويسمو بخياله ، ومن صادق

(١) المثل السائر ٧٨/٨٣

انفعالاته وحرارتها ما يرقظ مشاعره خافقة مع خلجات الشاعر حينما اتجه ، أو من تأملاته البعيدة ما يطلق فكره ويعمق نظرتة .

وبذا تغيرت النظرة إلى الشعر ، وغدا الذهن أسبق ما يكون إليه ، واقتناص المعنى منه أولاً ما يثور في نفس قارئه .

ويسمع ابن أبي الحديد بما جاء به ابن الأثير فيطرب له ويقول معبراً عن إعجابه بقواعده : « واعلم أن هذا الباب — وهو حل المنظوم — هو عين هذا الكتاب وخلاصته ، ووجه جميعه وطراز حاتم ، وكأنه لم يصنفه إلا لأجله ، وليظهر صناعته فيه . »

ويلاحظ ابن أبي الحديد مدى سيطرة هذا المنظوم على إنشاء ابن الأثير ، بيد أنه لا يستنكره إذ يقول : « على أن كتابته كلها إذا تأملها العارف بهذا الفن ؛ وجدها من هذا الباب ، لأنها إما محلول منظوم أو ترصيع آية أو خبر أو مثل أو واقعة . وهذه إحدى طرائق الكتابة عندي ، واليها أذهب ، ولها أستعمل . »

ويزيدنا يقيناً بما وصلت إليه منزلة حل المنظوم فيقول « وقد كنت شرعت في حل سيفيات أبي الطيب المتني ، لشهرتها وغلبتها على السنة الناس ، وأن أجعل ذلك كتاباً مفرداً أتقرب به أيضاً إلى الخزانة الشريفة — عمرها الله تعالى — فخرج بعضه ، وصدف من إتمامه عوائق الوقت أو شواغله » (١) .

ولا بأس من السير مع ابن أبي الحديد إذ يعمد إلى مقارنة حله للمنظوم مع حل ابن الأثير ، لنعرف المزيد مما يتفخرون به في هذا الفن .

يقول ابن أبي الحديد مبتدئاً بإنشائه : « حماها فأجلى ، وبنها فأعلى ، ونيران المران تضطرم ، وأمواج الأرماع تلتطم ، وشبا الظببا يصطدم ، ولظى

(١) « الفلك الدائر » في المثل السائر ٩٦/٤ - ٩٧

الوغى تحتم ، فقرت بعد انزعاجها ، وسائمت بعد ارتجاجها ، وشفيت من ألمها  
وبرئت من لمها ، وأصبحت متقلدة بغنائم من أسلاء الفوارس تدفع عنها عين العائن  
ونفس النفس ، وليست كقلائد عراف اليمامة وعراف نجد ، ولكنها قلادة  
طرفاها الشرف وواسطتها المجد .

وقد حللت في هذا قوله في وصف قلعة الحدث :

بِنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا يَقْرَعُ الْقَنَا      وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْهَا مُتَلَاظِمٌ  
وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ      وَمِنْ جُثِّ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمٌ

« وأشرت فيه إلى قوله صلى الله عليه وسلم للحسن والحسين عليهما السلام ( أعينكما من عين  
العائن ونفس النفس ) - وإلى قول عروة بن حزام :

ضَمِنْتُ لِعَرَافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ      وَعَرَافِ نَجْدٍ إِنَّهُمَا شَفِيَانِي

« وقد نثر هذا المصنف هذين البيتين فقال : « بناها والأسنة في بناها  
متخاصمه ، وأمواج المنايا فوق أيدي البانين متلاطمه ، فما أحلت الحرب عنها حتى  
زلزلت أقطارها بركض الجياد ، وأصابت بمثل الجنون فعلقت عليها تمائم من  
الرؤوس والأجساد . ولا شك أن الحرب تعرد عن عز جانبه ، وتقول ألا هكذا  
فليكسب المجد كاسبه . »

ونثرها على أسلوب آخر فقال « بناها ودون ذلك البناء شوك الأسل ، وطوفان  
المنايا الذي لا يقال ساوي منه إلى جبل ، ولم يكن بناؤها إلا بعد أن همدت  
رؤوس عن أعناق ، وكأنا أصيبت بجنون فعلقت القتل عليها مكان التائم أو شينت  
بعطل ! فعلقت مكان الأطواق . »

ومن عنده أدنى ذوق في فن الكتابة يعرف الفرق بين كلامنا وهذا الكلام .

وقد نشر هذا الكاتب البيت الثاني خاصة فجاء أصلح بما قاله في نشر البيتين وهو : « سرى إلى حصن كذا مستعيداً منه سبيّة نزعها العدو اختلاصاً ، فما أنزلها حتى استقادها ، ولا نزلها حتى استعادها ، وكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائم عزائم ، وعلق عليها من رؤوس القتلى تماثم .

« وهذا وإن كان حسناً ، لكن الزيادات العجيبة والتسميطات والأسجاع التي أتينا بها نحن ؛ تزري على ما أتى به هذا الكاتب وتتجاوزهُ أضعافاً مضاعفة ،<sup>(١)</sup>.

ونقد صبر الصفدي وهو يسمع كلام ابن الأثير في تعليم حل المنظوم ، ومراحل ذلك ، وبذله بين أيدي المبتدئين بعد تقسيمه إلى أنواع ، وطريقة تناول كل نوع . . . فهو وإن كان يقر الأديب على ورود المنظوم ، والنهل من فرائده ، والاستعانة بما أبدعه خيال الشعراء ؛ لكنه لا يبذله لمن لا يسمو إليه ، بل يشترط أن يرده صاحب الموهبة ، ولا يكون موقفه موقف التلميذ الذي يأخذ مبهوراً كل ما يصادفه ، بل يشترط له أن يكون أديباً موهوباً قديراً ، إذا ورد حداثق الشعر ميز بين حسنها وردئتها ، فتأثر بالحسن الرائع ، وعدّل في الرديء حتى يعوض للمنظوم ما فقده عند الحل ؛ من مزايا الشعر الكثيرة من أمثال : الوزن والقافية وأسلوب الصياغة الشعرية والألفاظ الموحية . . . إلى غير ذلك . فالذي يريد هذه الواحات الوارفة ؛ يجب ألا يقل في موهبته ، وغنى نفسه ، وسلامة ذوقه وقدرته ، عن الشاعر بحال ، بل إنه ليفوقه حتى يستطيع أن يتدارك ما يراه من مأخذه .

ولنصت للصفدي وهو ينقل إلينا كل هذا بقوله « وحل المنظوم إنما هو نوع واحد ، وقسم لو فقد ما كان عليه واجد . وما لم يكن فيه خفة تزويجه ، وحلاوة تفرنه بالسمع وتزويجه ؛ لم يلتق بالسمع قرطه ، ولا يجاز بالقبول شرطه

---

(١) في المثل السائر ٤/١٠٢ - ١٠٤



« وما أمثله إلا بعقد ثرت حباته ، وروض صوحت زهراته . فأبي حسن  
لقريض خانة وزنه ، وأي نضارة لروض جفاه مزنه .

« اللهم إلا أن يكون المشيء سليم الفطرة ، قويم الفكرة ، يستدرك على  
الناظم ما فاته ، ويرهف صارمه ويتقف قناته ، إما باحتراز ما لم يجد عنه ، أو الإتيان  
ببلائم لم يتمكن لضيق الوزن منه ، أو باختصار ما يقوم المعنى بدونه ، أو بزيادة  
زهر في غصونه ، أو بجوذة سبكه ، أو بإتقان حبه ، وهنا تظهر القدرة المتمكنة ،  
وتكون أدلة الفصاحة بينة .

فليس لوصل من يدعى فيأتي عذوبة وصل من يدعى فيأبى

كما أخذ الصفدي على ابن الأثير استسلامه لهذا المنظوم ، حتى أضحى انشاؤه  
فكراً شتى من صنع غيره فقال : « وأما ابن الأثير فإنه أكثر من الحل ،  
واتى فيه بما حرم وما حل ، وزاد من رقبته في بروده ، وبالغ من نظمه في عقود .

والخذ بهجته بخال واحد وتقل فيه بكثرة الخيلان<sup>(١)</sup>

وهكذا اختلفت وجهة نظر كل منها إلى حل المنظوم . فابن الأثير معلم  
يدل المبتدئ إلى أسهل الطرق إلى تعلم الكتابة ، والصفدي أديب يجعل المنظوم  
طريقاً للأديب للتخليق مع الشاعر في أجوانه ، وتحقيق ذاته وذوقه باستدراك ما يراه  
في شعره من زيادة أو نقص أو غير ذلك ، مما قد يقع به الشاعر بسبب من قيود  
الفن العديدة التي أحاطت به ساعة الأداء .

ولو أننا لا نقر شيئاً يتعلق بالدخول في تجربة الشاعر وتشويها تحت اسم  
الكمال ؛ وإنما يكون فهمنا لهذا الشاعر وفه ، من خلال ما جاء به ، على الصورة  
التي أدى بها ما أراد ، ولكنه حل المنظوم في القرن الهجري الثامن .

(١) نصره الناشر ٩٠ - ٩١

## الفصل الثالث

### منافذ التجديد

ربما لا نتجاوز الحد أو نضد الحقائق إذا أطلقنا كلمة التجديد على ما جاء به شعراء هذا العصر . فلقد وجد هؤلاء الشعراء أنفسهم في ضائقة بلغت الغاية . فتحوا عيونهم فرأوا أمامهم تراثاً غنياً ، وعبقرات فذة ، وذرى فنية سامقة، فوقفوا حيال ذلك دهشين معجبين . وأيقنوا أنهم قد سبقوا إلى كل شيء ، وغفلوا عن أوسع الميادين وأغناها بما لا ينقطع صوبه ، ولا ينضب معينه ، ذلك هو ميدان النفس : بأغوارها ومسارها وانفعالاتها وردود فعلها ؛ في احتكاكها بالواقع والأحياء، وتأملها في ذلك كله ، هذا بغض النظر عن أحوال المجتمع وأحداث العصر .

غفلوا عن هذا المعين الثرى واتجهوا صوب المعاني ! فما أن يعالج أحدهم معنى — وهو يظن جذلاً أنه قد وقع على جديد — حتى تتعالى من حوله الأصوات تذكره بمن قال في هذا المعنى فبرع . ولا يكاد يطرق فكرة حتى يجد القول وقد أشبع فيها من قبل ؛ بمن ملأت شهرته آفاق الأدب ، فسد إليها كل سبيل .

وهكذا أيقنوا جميعاً أن ميدان المعاني لا جديد فيه ، وما عليهم إلا أن يأخذوا من الأسلاف معترفين غير متحرجين .

ولكن هذا لم يكن يعني في نظرم العجز والاسئلام :

وما عَقِمَتْ أُمُّ النَّدَى بعد حَاتَمٍ لها كُلَّ يومٍ في البرية مَوْلودُ

كما يقول الصفدي<sup>(١)</sup> . فإن فاتهم التجديد في المعاني ، فإن ميدان الصياغة ، والتجديد في أساليب الأداء ؛ لا يزال متسعاً . فتنادوا إليه زرافات ووحداً ، وقدموا بين يدي الأدب الكثير مما فخرُوا به ، واعتبروه فتحاً لم يسبقوا إليه ، وأنهم به قد بلغوا الغاية التي لا تسمى . وفي ذلك يقول الصفدي :

« لتعلم أيها الواقف على كتابي هذا ؛ أن ابن الأثير - رحمه الله - ما أتى بطائل ، وأنه لو تأخر وجوده إلى هذا العصر ، علم أن قوله ليس بجبهه ، وأن قطره يغرق في مثل هذه اللجة ، وإن الناس قد بلغوا محط الرحال وهو إلى الآن في الدجّه<sup>(٢)</sup> .

ونستطيع أن نعيد تجديدهم هذا إلى مصادر أساسية ثلاثة :

- أولها المعاني القديمة نفسها ، فاستقوا منها بما ابتكروه لذلك من الطرق المختلفة .
- ثانياً الاستمداد من القرآن والحديث ومعطيات الثقافة .
- وثالثها وقد قام على الألفاظ المفردة والتنويع في أساليب الأداء .

وما علينا الآن إلا أن نتقدم إلى هذه المنافذ ؛ لنطل على الجديد الذي حدثنا عنه ، مما سترد وجوهه فيما يلي :

#### ١ - التوليد :

وذلك كما يقول الصفدي بأن « يولد المعنى من معنى آخر كقول ابن المعتز :

---

(١) نصره الثائر ٥١

(٢) المصدر السابق ٣٤١

وَأَرَى الثُّرَيَّا فِي السَّاءِ كَأَنَّهَا قَدَمٌ تَبَدَّتْ مِنْ ثِيَابِ حَدَادِ

« فإنه ولد هذا المعنى من قول الآخر :

كَأَنَّ كُؤُوسَ الشَّرْبِ وَاللَّيْلُ مُظْلِمٌ وَجُوهُ عَذَارَى فِي مَلَاخِفَ سُودِ

« وكما قال ابن الدروي وقد ذكر أهل النوبة في مدح صلاح الدين :

سُودٌ وَتَحْمَرُّ الظُّبَا حَوْهَ مَا كَأَعْيُنِ الرُّمْدِ بَدَتْ لِلْأَسَاءِ

أَوْ لَا فَسْمُرٌ تَنْتَحِيهَا الْقَنَا مِثْلَ دِنَانٍ بُذِلَتْ لِلسُّقَاءِ

« فإنه ولد هذا المعنى الأول من قول الأرتجاني :

وَكَأَنَّ كُلَّ شَقِيْقَةٍ مُحْمَرَّةٍ كَحَلَّتْ مَحَا جَرَهَا بِأَحْمَرَ قَانِ

عَيْنٌ لِإِنْسَانٍ وَقَدْ رَمِدَتْ فَمَا يَبْدُو لِرَامِقِهَا سِوَى الْإِنْسَانِ

« وولد المعنى الثاني من قول أبي العلاء المعري في تشبيه البرق :

إِذَا مَا اهْتَجَّ أَحْمَرَ مُسْتَطِيرًا حَسِبْتَ اللَّيْلَ زَنْجِيًّا جَرِيحًا

« ولعمري لقد تصرف في هذا التشبيه الثاني تصرفاً حسناً .

« وكما ولدت أنا من قول الحصري :

النَّاسُ كَالْأَرْضِ وَمِنْهَا هُمُ مِنْ تَحْسِينِ اللَّمْسِ وَمِنْ لَيْنِ

مَرُوءٍ تَشَكَّى مِنْهُ الرَّجُلُ الْأَذَى وَإِثْمِدٌ يُجَعَلُ فِي الْأَعْيُنِ

« فنقلته إلى معنى المتنبي المشهور وقلت :

مَوْلَى تَفَرَّعَ مِنْ كِرَامٍ وَجَبَّهَهُمْ وَبَنَانُهُمْ لِلْمُجْتَسِلِي وَالْمُجْتَنِي

سادوا الأنامُ علماً وهم من جنسهم  
ومن الحجارة إثمٌ في الأعين

« وولدت أيضاً من قول بعض العرب :

كأن هلاله امرأة قين  
لها شطرٌ يلوح من الغلاف

« فقلت في العذار :

قلتُ إذ قيل تسلّ فهذا  
صدغُه قد دجا وكان يُنيرُ  
هي امرأة خده غاب منها  
في غلاف العذار شيءٌ يسيرُ<sup>(١)</sup>

وواضح أن ما قصده بالتوليد ؛ ما هو إلا أخذ لأسمى ما في البيت ، أو ما يشكّل نقطة ارتكازه وأروع ما فيه ، فيتناول المعنى أو اللفظ أو كليهما معا .

فظهور بياض البشرة من بين السواد ؛ هو أكثر عناصر الصورة إثارة في البيت الاول ، وكذلك كان اللون الأحمر في الإطار الأسود هو لب القول الثاني .

أما ما ادعاه الصفدي من توليده معناه من قول الحصري فقد أخذ الفكرة وأبرز عباراتها ، وهو فكرة التباين والإثمد في العين . وكذلك في قوله الأخير فإن اختفاء الإشراق تحت الغلاف هو أبرع ما يثب له الحس وكان هو ماتناوله الصفدي تحت اسم التوليد .

## ٢ - الانتزاع :

وننتقل إلى النافذة الثانية ، لنرى أن التجديد هنا حمل اسم الانتزاع أو ما دعوه كذلك : باستخراج معنى مبتدع من معنى ليس بمتدع . وفي ذلك يقول

---

(١) نصره الشاعر ١٩١ وما بعدها

الصفدي : « أما انتزاع المعنى الغريب من معنى آخر فكقول مسلم بن الوليد :

تَظَلَّمَ الْمَالُ وَالْأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ لَا زَالَ لِلْمَالِ وَالْأَعْدَاءُ ظَلَامًا

« انتزعه من قول أبي نواس :

بُحَّ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ

« فقول مسلم أفصح ومعناه أبلغ :

« وقد انفقت لي انتزاعات معانٍ - من معانٍ هي دونها - غريبة . من ذلك قول بيليك

القبجاني المعري في الأترج :

وَأُتْرَجَةٌ جَاءَتْ إِلَيْكَ هَدِيَّةً فَشَبَّهْتُ مِنْهَا الرَّيْحَ رِيحَ حَبِيبِ

إِذَا نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَيْهَا تَمَثَّلْتُ بِكَفِّ مَرِيضٍ مَدَّهَا لَطِيبِ

« انتزعت منه معنى آخر فقلت :

أَيَا حُسْنِ أُتْرَجٍ يُلُوحُ لِنَاطِرِي عَلَيْهِ مِنَ الْأُورَاقِ خُضْرُ الْغَلَايِلِ

حَكَى مُسْتَهَامًا غَيْرَ الْبَيْنِ حَالَهُ وَقَدْ عَدَّ أَيَّامَ الْجَفَا بِالْأَنَامِلِ

« ومن ذلك قول مهباز الديلمي :

هَلِ السَّابِقُ الْعَجْلَانُ يَمْلِكُ أَمْرَهُ فَمَا كُلُّ سَيْرِ الْيَعْمَلَاتِ وَخَيْدُ

رُؤَيْدًا بِأَخْفَافِ الْمَطَايَا فَإِنَّمَا تُدَاسُ جِبَاهُ فِي الثَّرَى وَخُدُودُ

« انتزعت منه معنى آخر فقلت :

أَضْحَى نَسِيمُ دِمَشْقَ حَيَّاهَا الْحَيَا يَمْشِي الْهُوَيْنَا فِي ظِلَالِ حِمَاهَا

وكأنه من مائها وهضابها ما داس إلا أعيناً وجباها»<sup>(١)</sup>

وأمر الانتزاع واضح كما يبدو ، فالشاعر اللاحق لا يرضى عن تعبير سابقه عن المعنى ؛ فيصوغه له في ثوب جديد تتحقق فيه عناصر الفصاحة والجمال . وقد بدا ذلك متحققاً فيما سلف من الشعر .

### ٣ - نقل المعنى من غرض الى آخر :

وقد مهد الصقدي لهذا بقوله : « والذي نقله أئمة الأدب عن الجاحظ أنه قال : وجدنا المعاني تُقلب ويؤخذ بعضها من بعض ، إلا قول عنتره في الذباب :

وَحَلَا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحٍ      غَرِدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرِّمِ  
هَزِجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ      قَدَحَ الْمُكِبِّ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْذَمِ

« غير أن ذا الرمة نقل معنى الصفة إلى الجندب فقال :

كَأَنَّ رَجُلَيْهِ رَجُلًا مُقْطَفٍ عَجَلٍ      إِذَا تَجَاذَبَ مِنْ بُرْدِيهِ تَرْنِيمٌ<sup>(٢)</sup>

« ومن قول ابن الرومي :

كَكَدَابِ عَلِيٍّ فِي الْمَوَاطِنِ جَدِّهِ      أَبِي حَسَنِ وَالْغُصْنُ مِنْ حَيْثُ يُخْرَجُ

« وقد نقلت أنا هذا المعنى إلى الغزل . فقلت في مליح رأيت في طاقة :

رَأَيْتُ فِي طَاقَةٍ كَالْبَدْرِ وَجْهَ فَتَى      فَقُلْتُ مِنْ تَحْتِ هَذَا الْبَاثَةِ النَّضْرَةُ

(١) نصره الناشر ص ٢٠٨

(٢) « « ١٩٧ وما بعدها



قالوا حَكَمْتُ وما أَبْصَرْتُ قامتهُ فَقُلْتُ إني عَرَفْتُ الغُصْنَ بالثَمَرِ<sup>(١)</sup>

« وقال مسلم بن الوليد :

فَغَطَّتْ بِأَيْدِيهَا ثَمَارَ نُحُورِهَا كَأَيْدِي الْأَسَارَى أَثْقَلَتْهَا الْجَوَامِعُ

« نقل السَّلامى هذا المعنى إلى الزنبور فقال :

إِذَا حَكَ أَعْلَى رَأْسِهِ فَكَأَنَّمَا بِسَالِفَتَيْهِ مِنْ يَدَيْهِ جَوَامِعُ<sup>(٢)</sup>

#### ٤ - عكس المعنى الى ضمه :

يقول فيه الصفدي : « وهو في التشبيه كثير ، لأن التشبيه واقع بين طرفين ، شبيه ومثبه به ، فإذا شُبهت النجوم بالشرار جاز ان تشبه الشرار بالنجوم ، وإذا شُبهت البرق بالسيف جاز أن تشبه السيف بالبرق ، وإذا شُبهت الهلال بالقلامه جاز ان تشبه القلامه بالهلال .

« قال ابن المعتز :

وَلَا حَ ضَوْءِ هِلَالٍ كَادَ يَفْضَحُنَا مِثْلُ الْقَلَامَةِ إِذْ قُدَّتْ مِنَ الظُّفْرِ

« وعكس ذلك سعد الدين بن عربي فقال في مליح قلم أظفاره :

أَبْعَدْتُ ظُفْرَكَ وَهُوَ بَعْضُكَ فَالَّذِي يَهْوَاكَ أَجْدَرُ بِالْبِعَادِ الْأَطْوَلِ

فَأَجَابَنِي أَتْظُنُّنِي قَلَمْتَهَا عَنْ حَاجَةٍ لَا بَلْ لِمَعْنَى عَنِّي لِي

(١) نصره الثائر ص ١٢٩

(٢) « « ٢٠٣

لَأُرِيكَ يَا مَنْ بِالْهَلَالِ يَقْيِسُنِي      أَنْ الْهَلَالَ قُلَامَةٌ مِنْ أَنْمَلِي

• وعكست أنا قول بعضهم في الورد :

كَأَنَّ أَحْمَرَ الرَّوْدِ وَالطَّلُّ فَوْقَهُ      خُدُودٌ تَوَالِي فَوْقَهَا الدَّمْعُ بِالْوَكْفِ

• فقلت من أبيات :

أَقْسَمْتُ مَا سَجَعْتُ وَرُقُّ الْحِمَائِمِ فِي      رَوْضٍ عَلَى مِثْلِ عَطْفِيهَا وَلَا صَدَحْتُ

وَكُلَّمَا اعْتَدَلْتُ بِالْمَيْلِ قَامَتْهَا      رَأْيُهَا فَوْقَ حُسْنِ الْغُصْنِ قَدَرَجَحْتُ

وَمَا اكْتَسَى خُدُّهَا مِنْ لَوْلُوِّ عَرَقًا      لَكِنَّهَا وَرْدَةٌ بِالطَّلِّ قَدْ رَشَحْتُ<sup>(٣)</sup>

وعلى هذا فعكس المعنى إلى ضده هو استناد كامل على المعنى السابق ، لا يبذل فيه الشاعر العاكس شيئاً يذكر من جهد وفكر أو خيال .

## ٥ — التضمين :

وهو نوع من التسلق على معاني السابقين ؛ والاستناد إلى دعائمهم في شد جوانب البيت ، وقد زاد انتشاره في هذا العصر حتى لم يَخْشَل منه شاعر ، وأضحى اعتمادهم عليه ، وغدونا نسمع بن شاطره التضمين شعره إذ قال بحير الدين محمد بن تميم :

أَطَالِعُ كُلَّ دِيْوَانٍ أَرَاهُ      وَلَمْ أَزُجِرْ عَنِ التَّضْمِينِ طَيْرِي

أُضْمِنُ كُلَّ بَيْتٍ فِيهِ مَعْنَى      فَشِعْرِي نِصْفُهُ مِنْ شِعْرٍ غَيْرِي

---

(١) نصره الثالث ١٩٢ وما بعدها

« ونقلت من خط سراج الدين عمر الوراق له :

تَوَارَتْ مِنَ الْوَاشِيِ بَلِيلِ ذَوَائِبِ      لَهُ مِنْ جَبِينِ وَاضِحٍ تَحْتَهُ فَجْرُ  
فَدَلَّ عَلَيْهَا شَعْرُهَا بِظِلَامِهِ      وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

« وكتبت على مجلد قديم قد رث :

مَلَكَتُ كِتَابًا أَخْلَقَ الدَّهْرُ جِلْدَهُ      وَمَا أَحَدٌ فِي دَهْرِهِ بِمِخْلَدِ  
إِذَا عَايَنْتُ كُتُبِي الْجَدِيدَةَ حَالَهُ      يَقُولُونَ لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَلِدُ<sup>(١)</sup>

## ٦ - الاقتباس من القرآن الكريم :

لم يترك أدباء هذا العصر - وقد جفت قرائنهم - مصدراً لاقتناص المعاني وتحصيلها ؛ إلا سعوا إليه واخذوا منه ، وكان القرآن الكريم ببيانه المعجز وأسلوبه العلوي ؛ أجدر هذه المصادر باهتمامهم ، فراحوا يقتبسون منه ، ويشدون بذلك من أزر أساليبهم ، حتى غدا وجود آية في النص الأدبي ادعى لقبوله ودفع الإيراد عليه .

من ذلك تعليق الصفي على عبارة لابن الاثير ، يذكر فيها هدية رطب لبعض ملوك الشام جاء فيها : « ولما استقلت به الطريق أنشأ الحد لغيره من الفواكه أربا ، وما منها إلا أن قال ياليتني كنت رطبا ، فقال الصفي : « وأين هذا من قول أبي الحسين الجزار :

قُلْتُ لَمَّا سَكَبَ السَّاءُ      قِي عَلَى الْأَرْضِ الشَّرَابَا  
غَيْرَةً مِنِّي عَلَيْهِ      لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابَا

(١) الغيث المسجم ٧٣/١ وما بعدها

فإن هذا أتى بلفظ القرآن العظيم ، فكان له في السمع وقع ، وفي القلب حلاوة ، ولو كان قوله ( ليتني كنت رطباً ) بعض آية أو بعض بيت أو بعض مثل ، أو معنى متداولاً فيه شيء ، فنقله إلى هذا لكان حسناً (١) .

وقوله حول عبارة أخرى لابن الأثير أيضاً « ثم إنه ذكر النخل فوصفه بوصف غير طائل ، لولا أنه ختم السجع ببعض آية من القرآن لكان سمياً (٢) » .

« وقال ابن النبيه :

لو لم تكنُ ابنةُ العنقودِ ريقتهُ      لما غدا خدهُ القاني أبا هبٍ  
تبتَ يدا عاذلي فيه ووجنتهُ      حمالةُ الوردِ لا حمالةُ الحطبِ (٣)

« وبيت الطغرائي :

فإنْ بجنحتَ إليه فاتخذَ نفقاً      في الأرضِ أو سلماً في الجوفِ اعترلِ

« الطغرائي اقتبس كلامه هنا من قوله تعالى : « وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء (٤) » .

#### ٧ — الاستعداد من الحرب الشريف :

قال ابن الأثير يصف حصار العدو لإحدى البلاد ، وحصار الثلج لهذا العدو :  
« والشتاء قد لقي عسكره من البرد بعسكره ، والساء قد قابلته بأغبر وجهه لا بأخضره ، والأرض كأنها قرصة النقي وعسى أن تكون أرض محشره » .

(١) نصره الثائر ٢٤٣

(٢) « « ٣٠١

(٣) « « ٣٢٥

(٤) الغيث المسجم ٣٥ / ٢

قال الصفدي : « ثم أخذ في ذكر اختراع المعنى من الحديث النبوي وهو :  
« إنكم تحشرون على أرض بيضاء كقرصة النقي »<sup>(١)</sup> .

#### ٨ — التورية :

كما أغرم شعراء العصر بالتورية لما فيها من الإثارة « وما أحسن قول بحير  
الدين بن تميم في اللينوفر :

غدا اللينوفرُ المصفرُ يحكي الله .. نجومَ فلا يُغادرُها شبيها  
تغوصُ العينُ فيه إذا تجلَّى الله .. هارُ وفي الظلامِ يغوصُ فيها

« وقد استخدم العين هنا في معنيين : أولهما العين الباصرة ، والثاني العين الجارية<sup>(٢)</sup> .  
« ونقلت من خط السراج الوراق له :

أنا الذي مرّضتُ شهراً كاملاً فما رأيتُ عائداً ولا صلّه<sup>(٣)</sup> .

#### ٩ — الإنجاز :

وقد عمد الصفدي إلى تعريف اللغز بقوله « اللغز هو أن تذكر شيئاً بصفات  
يشاركه فيها غيره ، فيرجع الذهن في ذلك إلى حيرة لا يدري مصرفها إلى أي متصف  
منها بتلك الصفات ، لكونها تصدق من جهة وتكذب من أخرى . واستقاه من  
الثلغيزي ، وهي حفر يحفرها اليربوع تحت الأرض ويجعلها متشعبة يميناً ويسرة  
ليخفي أمره على من يقصده ، فإذا طلبه في واحد منها خرج من آخر .

(١) نصره الثائر ٢١٥

(٢) « « ٢٣٢

(٣) الغيث المسجم ١ / ٣٣

ثم يقدم لنا نموذجاً للإلغاز فيقول « ألا ترى أن السامع إذا سمع قول القائل :

جَارِيَةٌ جَاءَتْ مِنْ الْهِنْدِ      يَحْتَبُهَا السَّيْرُ إِلَى الْقَصْدِ  
لَهَا بَنَاتٌ لَسَنَ مِنْ جِنْسِهَا      فِي حَدِّهِمْ جُزْئٌ عَنِ الْحَدِّ  
لَهُمْ قُرُونٌ وَلَهَا حَافِرٌ      وَذَلِكَ مِنْ أَعْرَابِ مَا أُبْدِي  
وَأَعْجَبُ الْأَشْيَاءِ أَوْلَادُهَا      يُكَلِّمُونَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ

أخذ يقول في نفسه : في البيت الأول ، جارية جاءت من الهند يحبها السير . ما في ذا شيء . فإذا سمع الثاني : لها بنات لسن من جنسها ؛ رجع في الحيرة وفكر وقال : كيف يكن من غير جنس أمهن . !! فإذا سمع الثالث : لهم قرون ولها حافر ؛ زاد في حيرته وقال : لسن هؤلاء ولا أمهن من الأناسي . فإذا سمع الرابع : يكلمون الناس في المهد ؛ تأكدت حيرته ثم رجع إلى أنهم من الأناسي لإثبات المهد والكلام ، وأخذ يعمل فكرته في موجود متصف بهذه الصفات ، فإذا أعيا ما مال إلى الألفاظ المشتركة ، ونزله بقوة فكرته وإصابة حسه على أن ذلك لا يصدق إلا على اللست الذي للفاصد وريشه .

وما أحلى ما استعمل هذا الشاعر السير والحافر والتكليم . وهكذا يكون اللغز ، (١) « وأحسن من ذلك كله وألطف قول بعضهم في الخللال :

وَمَضْرُوبٍ بِلا جُرْمٍ      مَلِيحِ اللَّوْنِ مَعْشُوقِ  
لَهُ قَدُّ الْهَيْلَالِ عَلَى      مَلِيحِ الْقَدِّ مُمْشُوقِ  
وَأَكْثَرُ مَا يُرَى أَبْدَأُ      عَلَى الْأَمْشَاطِ فِي السُّوقِ

(١) نصره الناشر ٣٤٧ وما بعدها

« وما أحلى قول القائل ملغزاً في دُمْلُجٍ »<sup>(١)</sup> :

إِلَى النَّسَاءِ يَلْتَجِي وَعِنْدَهُنَّ يُوَجَدُ  
الْجِسْمُ مِنْهُ فِضَّةٌ وَالْقَلْبُ مِنْهُ جَآمِدٌ<sup>(٢)</sup>

ويبدو أن الاهتمام بالألغاز كان بالغاً ، وأضحى باباً أصيلاً من أبواب شعر المقاطيع ، حتى ألفت فيه الكتب الخاصة ، منها كتاب الحظيري ( الإعجاز في الأحجى والألغاز ) . الذي ذكره الصفي في نصره الثائر<sup>(٣)</sup> .

### ١٠ — استعمال مصطلحات النمر :

وقد كشف الصفي عن شدة اهتمام الشعراء في استخدام هذه المصطلحات فقال : وهذا الباب أيضاً مما تقدم ، وسوره مما خرب وتهدم ، قد دخل الناس فيه أفواجا ، وراقت لآلئهم فيه انفراداً وازدواجا<sup>(٤)</sup> .

« وما أحلى قول البهاء زهير :

لَمْ يَقْضِ زَيْدُكُمْ مِنْ وَصْلِكُمْ وَطَرَةً      وَلَا قَضَى لَيْلُهُ فِي هَجْرِكُمْ سَحْرَةً  
تَرَكَتُمْ خَبْرِي فِي الْهَجْرِ مُبْتَدَأً      وَكُلُّ مَعْرِفَةٍ لِي فِي الْهَوَى نَكْرَةً<sup>(٥)</sup>

« وقال السراج الوراق يرثي الجزار :

(١) حلي يلبس في العضد .

(٢) نصره الثائر ٣٤١ وما بعدها

(٣) « « ٣٤٢

(٤) « « ٣٢٦ .

(٥) « « ٣٧٦



نَصَبَ الْعَدَاوَةَ حَاسِدُوكَ فَأَعْقَبُوا      جَزَمًا لِأَلْسِنِهِمْ وَخَفَضِ الشَّانِ  
فَهَتَى أَرَاهُمْ أَدْبَرُوا وَرَوَّسَهُمْ      مَرْفُوعَةً بِعَوَامِلِ الْمُرَاتِ

١١ — من التعليل :

مستفيدين في ذلك من معطيات الثقافة ، معتمدين قوة العارضة المنطقية . هذا  
شمس المعالي قابوس يعلل لتدني منزلته فيقول :

أَمَّا تَرَى الْبَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جَيْفٌ      وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ الدَّرَرُ  
وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لَا عِدَادَ لَهَا      وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ<sup>(١)</sup>

وقال بعض الشعراء :

إِقْنَعْ بِأَيْسَرِ شَيْءٍ أَنْتَ نَائِلُهُ      وَاصْبِرْ وَلَا تَتَعَرَّضْ لِلْوَلَايَاتِ  
فَمَا صَفَا النَّيْلُ إِلَّا وَهُوَ مُنْتَقِصٌ      وَلَا تَكْذَرْ إِلَّا فِي الزِّيَادَاتِ<sup>(٢)</sup>

وقال بعضهم :

أَمْسَيْتُ أَرْحَمُ أَتُرْجَأُ وَأَحْسَبُهُ      فِي صُفْرَةِ اللَّوْنِ مِنْ بَعْضِ الْمَسَاكِينِ  
عَجِبْتُ مِنْهُ فَمَا أَدْرِي أَصْفَرْتُهُ      مِنْ فُرْقَةِ الْعَصْنِ أَمْ خَوْفِ السَّكَائِينِ<sup>(٣)</sup>

(١) الغيث المسجم ١٦٧/٢

(٢) «      « ٢٠٩/٢

(٣) «      « ٢٠٠/٢

١٢ — التمرعب اللفظي :

لقد كان ميدان الألفاظ والتصرف بها أوسع الميادين التي بقيت لشعراء هذا العصر كما رأوا ، فتزاحموا فيه يقدمون أعمالاً غريبة والأعيب عجيبة ؛ مما سترد نماذجه فيما يلي :

« من ذلك قطعة إذا قرئت لاتتحرك فيها الشفتان . وهي :

ها أَنذا عاري الجَلَدُ      أَشهرَني الذي رَقَدُ  
آهٍ لِعَيْنٍ نَظَرَتْ      إلى غزالٍ ذي غَيْدُ  
أَرَيْتَنِي يا ناظِرِي      صَيْدَ الغَزالِ للأَسَدُ . الخ

« وكذلك قطعة أنصافها الأول معجمة والثواني مهملة . منها :

بي شَغَفُ شَبَّ بينَ جَنِيَّ      دواؤُهُ الوُدُّ وَالْوِصالُ  
يَبُثُّ بَثِّي خَفِيَّ غَيْظِ      أَحورُ مَوْعودُهُ مُحالُ  
زِينَ بِشَيْئَيْنِ غُنْجِ جَفْنِ      ومُلحِ دَلِ له كَمالُ

« وقول الفاضل :

يا غادياً شَبَّ السَّفِ      يهٍ وعائداً مِثْلَ الحَلِيمِ  
ضِيَعَتْ مَقَرَّةً وَعُدُّ      تَ شَبِيهَها من غَيْرِ مِيمِ<sup>(١)</sup>

« وما أحسن قول الأرجاني :

---

(١) الفَيْثُ المسجَمُ ٢١٨/٢

كُنَّا جَمِيعاً وَالِدَارُ تَجْمَعُنَا      مِثْلَ حُرُوفِ الْجَمِيعِ مُلْتَصِقَةً  
وَالْيَوْمَ جَاءَ الْوَدَاعُ يَجْعَلُنَا      مِثْلَ حُرُوفِ الْوَدَاعِ مُفْتَرِقَةً<sup>(١)</sup>

« وعلى ذكر القلب فما أحسن قول القائل :

جَاذِبْتُهَا وَالرَّيْحُ تَضْرِبُ عَقْرَبًا      مِنْ فَوْقِ خَدِّ مِثْلِ قَلْبِ الْعَقْرَبِ  
فَمَا يَلْتُ عَجَبًا وَصَدَّتْ وَانْتَنَتْ      وَتَسْتَرَّتْ عَنِّي بِقَلْبِ الْعَقْرَبِ<sup>(٢)</sup>

« ومن ذلك قول القائل :

قَالَتْ لِتَرِبٍ مَعَهَا مُنْكَرَةٌ      لَوْ قَفَّتِي ، هَذَا الَّذِي نَرَاهُ مَنْ ؟  
قَالَتْ : فَتَى يَشْكُو الْهُوَى مُتَمِّمٌ      قَالَتْ بِمَنْ ؟ قَالَتْ بِمَنْ قَالَتْ بِمَنْ

« وهذا في غاية الحسن ، يظن السامع له من أول وهلة أنه من باب التكرار وتحصيل الحاصل . الى أن يشهد ذهنه ويتأمل غرض الشاعر فيرقص له طرباً<sup>(٣)</sup> . »

« وكذلك قول القائل :

لَبِيقٌ أَقْبَلَ فِيهِ هَيْفٌ      كَلَّمَا أَمْلِكُ إِنَّ غَنَى هَيْبَهُ

« فان كل كلمتين من هذا لا يتغير معناهما بالانعكاس الا القافية ، فانها في نفسها معلومة . وليس على ذلك إزتر كلفة . »

« ومثله قول القائل :

(١) الغيث ٤٠٠/٢

(٢) « ٤٠٣/٢

(٣) « ٣٨٩/٢

رَقَّتْ شَمَائِلُ قَاتِلِي فَلِذَاكَ رُوحِي لَا تَقْرُ  
رَدَّ الْحَبِيبُ جَوَابَهُ فَكَأَنَّهُ فِي اللَّفْظِ دُرٌّ

أول كل بيت عكس الكلمة الأخيرة منه وليس عليه كلفة .

« وقد وجدت للقاضي الفاضل - رحمه الله تعالى - خطبة وضعها لدخول العام الجديد وهي طويلة ، كلها عري عن الإعجام . وهي في غاية الحسن .

« ووجدت الوراق الحظيري قد تكلف أشياء من هذه الأنواع ، ومن ذلك بيتان كل كلمة منها مهموزة وهما :

بِأَبِي أَعْيَدُ أَذَابَ فُؤَادِي إِذ تَنَاءَى وَأَظْهَرَ الْإِعْرَاضَا  
رَشَاءُ يَأْلَفُ الْجَفَاءَ فَإِنَّهُ أَقْوَمُ بَلْ أَبْدَى لِأَمْلِيهِ انْقِبَاضَا

وفي انقباض نظر (١) :

فهذه نماذج من التجديد بطريق التفنن في استخدام الألفاظ وتقليبها ، بل إنه الألاعب اللفظية التي ظن القوم أنهم إنما بلغوا بها وبأمثالها محط الرحال ؛ مما لم يأت به أحد قبلهم .

١٣ — الغلو والإغراب :

من ذلك قول الشاعر :

وَمَا اتَّقَى الْوَأَشُونَ وَالرَّكْبُ ظَاعِنٌ  
وَقَدْ رَامَ لِلتَّوْدِيْعِ مَنِي تَدَانِيَا

(١) نصره الناشر ٤٧١ وما بعدها

بَدَتْ فِي مُحَيَّاهُ خِيَالَاتُ أَدْمُعِي صَفَاءً ، فَظَنُّوهُ بِكَيِّ لُبَايَا

وقال الآخر :

وَمُهَفَّفِي قَسَمَ إِلَاهُ مِثَالَهُ نِصْفَيْنِ مِنْ غُصْنٍ وَمِنْ رَمَلٍ  
فَإِذَا تَأَمَّلَ فِي الزُّجَاجَةِ ظِلُّهُ جَرَّحَتْهُ مُقَلَّةٌ لِحَظَةِ الظِّلِّ<sup>(١)</sup>

١٤ - الإطراف :

وهي أن يأتي الشاعر بالمعاني الرشيقة الطريفة ، فتكون منها صورة غير مألوفة تنفرج لها الشفتان بابتسامة ما .

من ذلك قول الصفي في خفقان القلب :

لَمَّا رَقَدْتُ أَتَى خَيَالُكَ بَغْتَةً فَعَدَا فُؤَادِي خَافِقًا يَتَمَوَّجُ  
لَوْ أَنَّ صَحْبِي شَاهَدُونِي فِي الْكَرَى وَالْقَلْبُ يَرُقُّصُ فِي الْخِيَالِ تَفَرَّجُوا<sup>(٢)</sup>

ومنه قول الأرجاني :

وَقَالُوا انْتَبِهْ مِنْ رُقْدَةِ اللَّهْوِ وَالصَّبَا فَقَدْ لَاحَ صُبْحٌ فِي دُجَاكَ عَجِيبُ  
فَقُلْتُ : أَخْلَانِي دَعُونِي وَلذَنِي فَإِنَّ الْكَرَى عِنْدَ الصَّبَاحِ يَطِيبُ

(١) الغيث المسجم ٣٩٣/٢

(٢) نصره المائر ٢٢٤

وقد وجدت لأبي الحسن الطوسي الفقيه بيتين ؛ يُسأل عن معنى الثاني منها وهما :

مَنِينِي حِينًا فَلَمَّا      أَنْ مَلَلْتُ مِنْ التَّمَنِّي  
عَرَضَنَ لِي بِالْوَصْلِ حَتَّى      قَلْتُ قَدْ أَعْرَضَنَ عَنِّي

« الإِشْكَال فِيهِ أَنَّهُ كَيْفَ يَمْرُضُ لَهُ بِالْوَصْلِ وَهُوَ يَدْعِي أَنَّهُنَّ أَعْرَضْنَ عَنْهُ ، وَالْمَعْرُضُ لَا يَمْرُضُ بِالْوَصْلِ ، وَالْجَوَابُ : إِنَّ ( قَدْ ) هُنَا بِمَعْنَى حَسَبَ . وَذَلِكَ أَحَدُ مَوَارِدِهَا . كَقَوْلِ أَبِي تَمَامَ : ( قَدْ كَثُرَ اثْتِيبُ أُرْبَيْتِ فِي الْغُلُوَاءِ ) أَيِ حَسْبِكَ .

« وَالْمَعْنَى : مَنِينِي زَمَانًا إِلَى أَنْ مَلَلْتُ ، ثُمَّ عَرَضَنَ لِي بِالْوَصَالِ حَتَّى إِذَا قَلْتُ هَذَا حَسْبِي أَعْرَضَنَ عَنِّي .

« وَاتَّفَقَ لِي فِيمَا قَلْتُ بَيْتَانِ ثَانِيهَا مُشْكَلٌ . وَهُمَا :

قَالَ وَقَدْ أَبْصَرَ دَمْعِي دَمًا      هَذَا وَمَا رُعْتُكَ بِالْبَيْنِ  
فَقُلْتُ : لَمَّا فَنَيْتُ أَدْمَعِي      بَكَيْتُ بِالْدَمْعِ بِلَا عَيْنِ

« الإِشْكَالُ فِي ذَلِكَ ، أَنَّهُ كَيْفَ يَعْتَرِفُ بِأَنَّ دَمْعَهُ فَنَيْتُ وَنَقَدْتُ ، ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ بَكَيْتُ بِالْدَمْعِ بِلَا عَيْنِ . وَكَيْفَ يَتَّفِقُ الْبُكَاءُ بِلَا عَيْنٍ .. وَالْجَوَابُ : أَنَّهُ قَالَ أَوَّلًا إِنَّهُ أَبْصَرَهُ وَقَدْ بَكَى دَمًا فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ . فَقَالَ : لَمَّا نَقَدْتُ الدَّمْعَ وَلَمْ يَبْقَ لِي دَمْعٌ بَكَيْتُ بِالْدَمِّ . وَالْعَيْنُ هُنَا إِنَّمَا يَرَادُ بِهَا أَحَدُ حُرُوفِ الْهَجَاءِ أُخْتُ الْغَيْنِ الْمَعْجَمَةِ لِأَنَّ الْعَيْنَ الَّتِي هِيَ الْجَارِحَةُ مِنَ الْإِنْسَانِ حَاسَةٌ الْبَصَرِ . فَإِنَّ الدَّمْعَ إِذَا حُذِفَتْ مِنْهُ الْعَيْنُ كَانَ دَمًا (١) .

(١) فِصْرَةُ النَّائِرِ ٢٠٧

١٦ - أسماء الخلفاء :

قال الصفدي : « وهذا الباب - أعني أسماء الخلفاء في الألقاب - بما جسر الناس على دخوله ، وعبره كل أحد من المتأدبين وتصرف في محضه . فإنه سلس القياد في التورية إذا جذب ، وسريع الارتفاع إذا أقيم أو نصب . قال ابن سناء الملك :

بَايَعْتُهُ يَدُ السَّعَادَةِ وَالْبِيْعَةُ قَدْ كَرَّرَتْ عَلَيْهِ الْيَمِينُ  
وَاصْطَفَاهُ الرَّأْيُ الرَّشِيدُ عَلَى الْعَالَمِ لَمْ فَهِيَ الْأَمِينُ وَالْمَأْمُونُ

« وقال سيف الدين المشيد بن قزول :

يَا أَهْلَ وَدِّي دَعْوَةٌ مِنْ مُدَنَّفٍ خَفِيَتْ شِكَايَتُهُ عَنِ الْعُوَادِ  
تَاللَّهِ مَا جَلَدِي عَلَيْكُمْ طَائِعٌ كَلَّا وَلَا وَاللَّهِ قَلْبِي الْهَادِي

« وقال مجير الدين محمد بن تميم :

يَا مُؤَثِّرًا قَصْدِي حِمَاةً وَخِدْمَتِي سُلْطَانَهَا مِنْ بَعْدِ كُلِّ أَمِيرٍ  
أَنَا وَاثِقُ بِرَشِيدٍ رَأَيْكَ طَائِعٌ لِأَمِينِهِ الْهَادِي إِلَى الْمَنْصُورِ «<sup>(١)</sup>

١٧ - أسماء سور القرآن الكريم :

يقول الصفدي « وعلى الجملة فهذه الأشياء قد انتهك المتأخرون حرمتها ، ومنعوا من الآباء عصمتها ، خصوصاً أسماء الخلفاء كما تقدم ، وألقاب الإعراب وقد

(١) نصره الثائر ٣٢٥ وما بعدها



تقدم ، وأسماء سور القرآن . كما قال أبو الحسين الجزار يمدح فخر القضاة نصر الله  
ابن بصاقة :

وَ كَمْ لَيْلَةٌ قَدْ بَثَّهَا مُعْسِرًا وَ لِي      بِزُخْرُفِ آمَالِي كُنُوزٍ مِنَ الْيُسْرِ  
أَقُولُ لِفَقْرِي كَلَّمَا اشْتَقْتُ لِلْغِنَى      إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ تَبَّتْ يَدُ الْفَقْرِ

وكما قال ايضاً وقد دخل على شاعر أسود ولم يُخلع عليه ، يخاطب جمال الدين  
ابن رمضان :

غَيْرُ خَافٍ عَنكَ الَّذِي نَالَهُ الْأَسَدُ      سَوْدٌ بِالْأَمْسِ مِنْ نَدَى السُّلْطَانِ  
وَتَمَشِيهِ بِالْعِمَامَةِ وَالثَّوْبُ      بِ وَ مِندِيلِ الْكُمِّ وَالطَّيْلَسَانِ  
قُلْتُ إِذْ فَصَّلْتُ عَلَيْهِ أَرَى الزُّخْرُفَ      مَرْفَ يُتَلَّى بِالنَّصِّ فَوْقَ الدُّخَانِ

وكما قال سيف الدين بن قزول :

أَقْسِمُ مِنْ جَفْنِي بِالذَّارِيَاتِ      وَمِنْ دُمُوعِ الْعَيْنِ بِالْمُرْسَلَاتِ  
أَنِّي عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي حُبِّكُمْ      حَتَّى تُرَى رُوحِي فِي النَّازِعَاتِ

## ١٨ - أسماء المنازل والكواكب :

وهذه تسربت إليهم من ثقافة العصر . وإن دل استخدامهم لهذه المصطلحات  
في شعرهم على شيء ، فعلى سطحية تفاعلهم مع هذه العلوم ؛ الناجم بالتالي عن  
سطحية اطلاعهم عليها .

يقول « العدل برهان الدين بن الفقيه نصر :

بِحَيْدَمَتِكُمْ لَمْ أَنْزِلْ طَائِلًا      وَمِيزَانُ نَقْصِي بِكُمْ رَاجِحٌ

ففي الطرف من أدمعي نثرة  
وفي القلب من سعدكم ذابح<sup>(١)</sup>  
كما قال ابن قزّال :

بدرٌ جعلت القلب أخبية له  
خلعت عليه الشمس رونق حسنه  
كي لا يراه رقيبهُ العواء  
وحبته رونق ثغره الجوزاء<sup>(٢)</sup>

وكما قال الآخر في مליح بحرث :

يا حارثاً تُروى مقاماتُ الهوى  
أضحى يشقُّ لحدّ من قتل الهوى  
عن طرفه الفتاك غير مؤوّله  
في حرثه ليست خطوطاً مهمّله  
روحي الفداء لبدر تمّ سابق  
للثور ليس يروم غير السنبلة<sup>(٣)</sup>

١٩ - أسماء متابع العلوم :

كما قال أبو الحسين الجزار :

إنّ فصل الشتاء منذ نحاً جسدي  
فيه عظمي المبرّد إذ عنّ الكسائي  
مميّ أبدت بيانه الأعضاء  
واحتمي الفراء

وكما قال ناصر الدين حسن بن النقيب :

يا من مقاماته في الجود مذهبته  
ومن تشاريفه وشي وديباج

(١) نصره. الناشر ٢٦١

(٢) « « ٣٣٥

أَعْطَيْتَنِي جَسَدًا مُلْقَى وَلَيْسَ بِهِ  
رُوحٌ ، وَلِلْبَرْدِ إِقْلَاقٌ وَإِزْعَاجٌ  
وَلَيْسَ عَنِ فَرَوَةٍ تَحْتَ الْحَرِيرِ غِنَى  
إِنَّ الْحَرِيرِيَّ لِلْفَرَاءِ مُحْتَاجٌ

وكما قال مجير الدين محمد بن تميم :

وَصَادِحَةٌ تَرَدَّدَ لِي غِنَاهَا  
فَتَطْرِبُنِي وَأَجْهَلُ مَا تَقُولُ  
بِلَحْنِ حَارِّ إِبْرَاهِيمٍ فِيهِ  
وَوَازِنٍ لَيْسَ يَعْرِفُهُ الْخَلِيلُ

٢٠ - أسماء الكتب :

وفي اتخاذهم من أسماء الكتب منفذاً للتجديد في المعاني ؛ لم يعدموا فيها ميداناً للتنافس ، فتسابقوا في عدد الأسماء التي يوردها الشاعر في الأبيات القليلة . ومن ذلك قول الشاعر :

يَاسَائِلِي مِنْ بَعْدِهِمْ عَنِ حَالِي  
حَالِي إِذَا حَدَّثْتُ لَا جُمْلًا وَلَا  
عِنْدِي جَوَى يَذُرُ الْفَصِيحَ مُبَلَّدًا  
تَرَكَ الْجَوَابِ جَوَابُ هَذَا الْمَسْأَلِ  
أَلْمَعَا لِإِيضَاحِي لَهَا مِنْ تَكْمِلِهِ  
فَاتَرَكَ مُفَصَّلَهُ وَدُونَكَ جُمْلَهُ  
أَلْقَلْبُ لَيْسَ مِنَ الصَّحَاحِ فَيُرْتَجَى  
إِصْلَاحُهُ وَالْعَيْنُ سُحْبٌ مُثَقَّلَهُ

وعقب الصفدي بقوله « وقد ذكر في هذه الثلاثة ، عشرة أسماء من تصانيف الأدب .

كما قال ابن قزل في مליح يلعب بالقانون :

تَرَى ابْنَ سِينَاءَ فِي يَدَيْهِ  
أَقْلُ مَلْعُوبِهِ الْغِنَاءُ

(١) نصره النائر ٣٢٩

## قانونه المرتضى نجاه كل إشاراته شفاء

« وقد ذكر في البيت الثاني على قصر مجره من مصنقات الرئيس<sup>(١)</sup> أربعة كتب. وهذا كله ليس بشيء فقد « نظم شرف الدين القدسي - رحمه الله - قصيدة تقارب الخمسين بيتاً جمع فيها جملة من كتب التفسير والحديث والفقه والنحو واللغة وغير ذلك ، وذكر مشايخ العلوم وغيرهم وكلها غزل ، وأسماء البروج الاثني عشر والمنازل . . . »<sup>(٢)</sup> .

وهنا يقدم إلينا الصفدي آخر ما رصده من منافذ التجديد وهو :

### ٢١ - أسماء مشاهير العرب :

وينقل لنا بعضاً مما قاله الشعراء في هذا فيبدأ بقول ابن سناء الملك :

إني على ما كان سُغلي بالهوى      لم يشتغل وبطالتي لم تبطل  
أنا جدُّ أنصارِ النبيِّ لأنني      يا أشهلَ العينينِ عبدُ الأشهلِ

وقول ابن قزل :

عُدتُ فيه جاهليَّ الـ      حُبٌّ من غيرِ تعدي  
لحظُ عيني عبدُ شمسٍ      وفوادي عبدُ ودِّ

وكما قال شمس الدين محمد بن التلمساني :

وما كنتُ مجنونَ الهوى قبلَ أن يرى      لقلبي من صدغيك في الأسرِ عاقلُ

(١) الرئيس هو ابن سينا .

(٢) نصره الناشر ٤٢٩



.

## خاتمة

وهكذا نعود من جولتنا هذه مع الصفدي وكتابه بحصيلتين مرجوتين :

— اولاهما الصورة الوافية للصفدي الناقد بتفصيلاتها اللازمة وخطوطها المميزة وذلك في الفصول الأربعة الأولى .

— وثانيها المعرفة العامة التي اطمأنت في أذهاننا عن أحوال العصر الأدبية تحت أضواء الفصول الثلاثة التالية .

أما ما يتعلق بالصفدي الناقد ، فقد أدركنا كيف تحول مفهوم نقاد هذا العصر عما كنا نألف في القرون الأولى ؛ فقد زال من أذهان هؤلاء تقديس القديم لقدمه فحسب ، وغدوا يضعون أدبهم وأدباءهم على قدم المساواة مع إنتاج العصور السابقة وأصحابه ، فلا تتفاوت منازلهم إلا بما يكون لكل منهم من تميز فني ، وقد رأينا الصفدي وهو يقرر ان ادباء عصره قد بلغوا الرحال (١) ، من خلال مقاييس عصره بطبيعة الحال ، وهي ناحية هامة ترتب عليها نتائج خطيرة في حقل التراث الأدبي، إذ بفضلها حفل هؤلاء بنتاج العصر واهتموا بلمعه ، ووصلت إلينا من صنعهم مجموعات من الشعر جمة ، حملت في طياتها كل ما نتوق إلى كشفه من احوال الأدب وغيره عبر قرون متطاولة .

وإن احتاج هذا القول إلى دليل ؛ فهذه نماذج الشعر التي أوردتها الصفدي في كتابه بين أيدينا ، وقد جمع فيها من نتاج العصور منذ الجاهلية وإن غلب عليها شعر القرون المتأخرة .

---

(١) نصره الناثر ٢٣١

وهذه نقطة أخرى قد تكون نتيجة لسابقتها ، تلك هي مقاييس العصر النقدي التي استمدوها من أرفع النماذج الأدبية في نظرهم ومن خلال أذواقهم ، فلم تعد قصائدهم تتقيد بمنهج القصيدة الجاهلية ، وانتهى عندهم بهاء عمود الشعر وتأثيره القديم؛ فمال نظمهم بالتالي إلى الاهتمام بالشكل والصنعة اللفظية . علماً بأن هذه المقاييس الفنية المستمدة لديهم لم تكن تنفرد وحدها بالحكم ، بل زاحمتها وربما استتت في ذلك .. اعتبارات خارجية أخرى .

أما النتائج المتعلقة بالعصر فأبرزها أن لا سرقة عندهم ، والمعنى ملك لمن يجيد التعبير عنه ، فكان من أثر ذلك أبواب للأخذ جديدة تحت أسماء شتى من الاقتباس والاستمداد والتضمين وغير ذلك<sup>(١)</sup> ، وغدت المعارضات مشروعاً مفضلة فيما لو تمكن اللاحق من مطاولة السابق .

كما عرفنا أن المفهوم الغالب للنقد هو التعصب والخصومة ، حتى كانت المؤاخذة والتقريظ كلمتين تصنفان كل من يتصدى للأثر الأدبي بالمعالجة وبسط القول . ونخلص إلى القول بأن كتاب الصفدي « نصره الثائر » من الكتب النادرة خلال فترة طويلة من الزمن قد تتجاوز فترة العصور التي نشير إليها . فهو من أبرز الكتب في النقد التطبيقي في عصر طغت فيه مقاييس البلاغة وتفريعاتها والتفنن في الزيادة عليها ، حتى غدت قوالب وأصولاً تلجم القول وتلغي الذوق وتمنط التعبير ، وأمست تنافس قواعد النحو في ثباتها وحتمية مراعاتها والتقيد بمحدودها .

فجاء كتاب الصفدي ، بالتطبيق المطلق ليرفع لواء الذوق ، ويقيم لتأثر المتلقي وتفاعله مع النص وجوداً ، ثم ليكون الحكم ناجماً عن الموازنة بين النصوص من حيث وفاؤها بالمعنى يتهادى بالثوب الفني المثير .

وإن كان في هذه الدراسة من جديد ، فإنني لأظنها من أوائل الأبحاث الشاملة المتأنية ؛ التي طافت في مجاهل العصور المتأخرة وغاباتها العنداء الوعرة .

---

(١) انظر الفصل السابع « منافذ التجديد »



جامعة القاهرة كلية الآداب  
رقم التسجيل ١٨١٦٨

٩٥١٦

شرح قصة الخليل في المعروفين / عبد الحميد الباقلي

## هذا الكتاب :

١- بحث شامل في قضايا النقد الأدبي في فترة القرن الهجري الثامن  
تصدى أحكامه وملاحظات على الفترة الزمنية الممتدة من  
سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ إلى نهاية دولة المماليك في مصر والسما ٩٢٢هـ.

٢- اجتذبت شخصية صلاح الدين الصفدي الناقد شطراً من الاهتمام  
بوصفه واحداً من أبرز نقاد عصره؛ إن لم يكن أبرزهم على الإطلاق،  
مما يتيح اتحاده نافذة مريّة للإطلال على العصر، وأوضاعه الأدبية والنقدية.

٣- أول دراسة فنية، تتوغل للامسة الساج الأدبي ونقدته، في  
الفترة الموسومة بعصور الانحدار، مما تؤكد نظرة معنية على  
فهرس موضوعاته التي تناولتها المعالجة المتأنيّة . والله الموفق  
الناشر